شيفرة بلال

رواية

د. أحمد خيري العمري



شيفرة بلال

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الكتاب: شيفرة بلال
المؤلف: أحمد خيري العمري
تنسيق داخلي: سمر محمد
رقم الإيداع: 1438/530
L.S.B.N: 978-603-705-029-4

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: أحمد حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

شيفرة بلال

رواية

أحمد خيري العمري

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إهـــداء

إلى أيمن طارق جمال..

الحلم ، والإنجاز.

عزيزي أمجد

اسمي بلال.. عمري ثلاثة عشر عاماً، أعيش في بروكلين، نيويورك.

قرأت أنك تكتب سيناريو فيلم يحمل اسمي، بلال. لا تستطيع تخيل كم يبدو ذلك مثيراً لي، أن أمشي في الشارع لأقرأ اسمي في لوحات الإعلانات.. أن أراه مضيئاً على الشاشة كعنوان للفيلم.. أن أعرف المزيد عن السبب الذي جعل والدي (الذي لا أذكره، فقد رحل عندما كنت صغيراً جداً) يختار لي هذا الاسم.

للأسف لا أعتقد أني سأتمكن من مشاهدة الفيلم عند نزوله إلى دور العرض، لن أكون موجوداً هنا على الأغلب، ذلك أني مصاب بنوع نادر من السرطان في الدماغ.. وقد علمت من الإنترنت أن نسبة النجاة منه قد لا تبقيني إلى موعد نزول الفيلم.

أعرف أن طلبي يبدو غريباً، لكني أرغب في أن ترسل لي سيناريو الفيلم. أرغب بتخيل ما سيحدث على الشاشة، أرغب بمعرفة المزيد عن بلال، أفهم أن قراءة السيناريو ليست كمشاهدة الفيلم، لكن هذا أفضل من لا شيء..

أعدك أني لن أسرب السيناريو لأحد. وأعدك أني لن أخبر أحداً أيضاً. سيكون هذا سرنا المشترك.

أنتظر ردك..

مع الشكر.

بلال

ملحوظة: إن حصل وتعرفت على أمي بأي وسيلة، فلا تخبرها بأني أخبرتك عن نسب النجاة، هي لا تعرف أني أعرف.

أمجد

فتحت بريدي ذلك اليوم لأرسل استقالتي من العمل على السيناريو، فوجدت فيه هذه الرسالة.

للوهلة الأولى لم أفهم مَنْ هو المرسل، فقد كان عنوان المرسل غريباً بعض الشيء.. على الأقل يبدو غريباً عن قائمة العناوين التي ترسل لي رسائل على هذا البريد. بريد العمل الذي وضع على الموقع الترويجي للفيلم.

في الحقيقة لم أكن أتسلم رسائل كثيرة، وأغلب الرسائل كانت تأتي من (عبدول)، تستعجلني كالعادة..

منذ أن بدأت العمل قبل شهرين في هذا المشروع، وأنا لا أتسلم غير رسائل الاستعجال..

ببساطة كنت في المكان الخطأ.. وكنت أعلم منذ البداية أني في المكان الخطأ.. لكن لم يكن لديَّ خيار سوى أن أقبل بالعمل في الفيلم.. كنت عالقاً في رسالة دكتوراه منذ خمس سنوات دون تقدم حقيقي، رسالة دكتوراه عن مرحلة تاريخية في القرون الوسطى في الشرق الأوسط في أيام عزله لا يذكرها أحد، ولن يهتم لرسالتي أحد، وكنت مطالباً أيضاً بسداد أقساط المنزل، وكل الفواتير المرتبطة بذلك.

كنت عالقاً في كل هذا، في كل حياتي، في الدكتوراه، في أقساط الماجستير، في حلمي بأن أكون أستاذاً لامعاً في جامعة كولومبيا، ومن ثم تدريسي لمادة لا يهتم لها أحد في كلية مجتمعية في شمالي نيويورك، في علاقتي بكريستين التي أعرف تماماً أنها لا تحبني كما أحبها أنا، وربما لا تحبني على الإطلاق، لكنها فقط تقضي وقتاً ممتعاً معي، ولن يرف لها جفن يوم تقرر تركي لأنها وجدت رجلاً أفضل أو عملاً أفضل في ولاية أخرى..

وكنت أحبها. بيأس. بولع. كما لو أن هذا الأمريورث في جينات الشرقيين

لم أعش في الشرق كي آخذ منهم هذه العواطف، لكني غارق بلا أمل في حب امرأة تعيش معي، ولكنها لا تحبني.

مقيداً كنت من جميع الجهات، رسالة الدكتوراه التي لا تمضي إلى أي مكان، البروفيسور ميللر الذي يعيد لي كل ما أكتب، ونادراً ما يجد الوقت للقائي وجهاً لوجه، أقساط البيت الذي انهار سعره بعد الأزمة المالية.. وهذا الشرق الأوسط الذي لعنت بدراسته ولا يقودني إلى أن أكون مدرساً هزيلاً يدرس مادة لا يكترث لها أحد، في كلية حصلت على اعتمادها الأكاديمي بصعوبة.

وكنت ذات يوم أريد أن أكون (نجما أكاديمياً) مثل إدوارد سعيد.

كنت أعرف أن الوضع سيتغير حتماً عندما أنتهى من رسالة الدكتوراه، ستكون سيرتي المهنية مؤهلة أكثر لكي أقدم على العمل في جامعات أفضل.. أو مراكز أبحاث مهتمة بالشرق الأوسط.

لكني حالياً كنت مقيداً محبطاً، ولم يكن لديَّ سوى أن أوافق على العرض الذي جاء لي، للعمل في فيلم متحرك عن بلال الحبشي.

لا أدري بالضبط كيف جاء العرض.

كانت (ساعة سعيدة)! أي الفترة التي تقدم فيها المشروبات بسعر أقل، والتي تتزامن غالباً مع انتهاء ساعات العمل، كنت أذهب إلى حانة في منطقة (woodbury) خصيصاً في هذا الوقت، رغم أن عملي كان جزئياً، وكان ينتهي قبل هذا الوقت غالباً، لكني كنت أذهب في هذا الوقت لأسباب اقتصادية واضحة.

•

جاءني يومها عبدول، هكذا يسمونه، اسمه عبد العزيز أو عبد الحكيم أو شيء كهذا، وهو عربيٌ من مكان ما في الخليج على ما أذكر، لكن لم يعد ذلك مهماً، لأنه دائماً في نيويورك، تخرج من أكاديمية نيويورك للأفلام ثم استمر بالدراسة في شيء آخر، كان مولعاً بالسينما، يعرف كل شيء عن السينما منذ أول فيلم ناطق على الأقل، وكان ذلك مسلياً في البداية، عندما تعرفت عليه لأول مرة، ثم صار مزعجاً جداً، يمكن ببساطة أن

يسألني عن سنة حصولي على البكالوريوس، وعندما أخبره أني تخرجت في ١٩٩٧، فإنه سينطلق فوراً: أوه، هذه هي سنة التايتانيك! من يستطيع نسيانها؟! حاز التايتانيك ١١ أوسكار في تلك السنة، لكن برأيي كان يستحق ١٢ أوسكار، أو حتى ١٣. جاك نيكلسون لم يستحق الجائزة، بل ليوناردو، كان دور جاك دوسن فرصة عمره، ولا حتى هيلين هنت، في رأيي كانت كيت أحق بالجائزة، ما رأيك أنت؟!

غالباً كنت لا أعرف عم يتكلم. لست متأكداً إن كنت أكملت مشاهدة التايتانيك أصلاً، ولم أعرف من هي كيت أو هيلين، حدست فقط أنه يتحدث عن ليوناردو دي كابريو وليس ليوناردو دي فنشي مثلاً.

كان يتحدث عن أوسكارات ١٩٩٧ كما لو كان عضواً في لجنة التحكيم، أو على الأقل مقدم الحفل.

سألته: عبدول! كم كان عمرك في هذه السنة التي تقول عنها (من يستطيع أن ينساها)؟

قال بخجل: عشر سنوات! وشاهدت الفيلم بنسخة فيديو مقرصنة، مصورة من قاعة سينما تظهر حركة الجمهور كما حركة الممثلين.. ولكني بكيت عليه وبكت أمي أيضاً.

كان عبدول يعشق كوبولا وسكورسيزي، ويحفظ الحوار في أفلامهما، وقد تحداه أحدهم ذات مرة فأثبت عبدول أنه يحفظ فيلم (GoodFellas) عن ظهر قلب.

وعندما كان عبدول يسكر، في آخر الليل، كان يقول إنه يريد أن يخرج فيلماً عن عظمة الإسلام.. في كل مرة يسكر فيها كان يقول ذلك.. سألته مرة وهو في سكره ولست متوقعاً أي إجابة: ما دمت تريد أن تخرج فيلماً عن عظمة دينك، فلماذا تسكر ودينك يحرم الخمر؟

أجاب فوراً كما لو أن سكره قد طار: لأني أسكر أريد أن أخرج فيلماً عن عظمة الإسلام. أريد أن يغفر الله لي.

بدا لي ذلك مثيراً للشفقة.

وبلا أمل.

جاء عبدول في ذلك اليوم وهو يرحب بي بمبالغة غير معتادة: كنت أنتظرك يا أخي!..

شعرت بالقلق من موضوع (يا أخي)، لكني تجاهلت ذلك، لم أتعود من عبدول أن يناديني بذلك، لم أتعود من أي أحد أن يناديني بـ (يا أخي).

طلب عبدول البيرة لي وله، وقال إنه يريد أن يكلمني في موضوع مهم.

لمعت عيناه وهو يقول لي: لقد جاءت الفرصة.

لم أفهم عن أي شيء يتحدث. فكرت أنه ربما حصل على فرصة للعمل في فيلم أو عرض تلفزيوني..

كرر هو: لقد جاءت فرصتنا أخيراً.

شعرت بالقلق الآن أكثر، أولاً يا أخي، والآن: فرصتنا؟ هذه اللهجة أميزها عند العرب خاصة. نادراً ما يأتي منها شيء جيد.

سألته وأنا آخذ رشفة كبيرة من البيرة: عن أي شيء تتحدث يا عبدول؟

قال وعيناه تلمعان: عن فيلم يتحدث عن عظمة الإسلام!

أها. فهمت الآن (يا أخي.. وفرصتنا)..

لمجرد أني ولدت لأبوين مسلمين، لم يكونا يطبقان الكثير من تعليمات الإسلام أصلاً، فإن عبدول يعتقد أني أريد أن أشاركه فرصته بتقديم صورة عظيمة للإسلام، ربما كي يغفر الله لي شربي الخمر.

لم أكن (لست متديناً) فحسب، كنت ملحداً صريحاً أمام الناس، وفي المرات التي يفتح فيها موضوع الأديان، كنت أتحول من ملحد حيادي بارد لا يكترث للأمر كثيراً، إلى ملحد معادٍ جداً للدين.. كانت كريستين تقول إن ذلك يعود إلى شعوري بالنقص لأني من أصول مسلمة، وإني أريد أن أثبت للناس شيئاً عكس (الصورة النمطية) الجاهزة عن العرب وتتحداني بأن موقفي ما كان ليبدو بهذه الحدة لولا أحداث سبتمبر.. ربما كانت محقة.

مولعة هي بتحليل كل شيء وإرجاعه إلى أسباب نفسية، درست علم النفس في (جامعة نيويورك الحكومية –سوني) وتعد لدراسة الدكتوراه للحصول على رخصة مزاولة المهنة في نيويورك، أثناء ذلك تقوم بتحليل كل شيء على نحو مزعج، تحلل ولعي بها إلى كون الشرقيين يحبون الشقراوات بسبب لون بشرتهم الداكنة، ولا تتوانى عن تفسير بعض الأشياء الحميمة أثناء قيامنا بها.. أحياناً أشعر أني قد أكون (فأر تجاربها) الخاص لإعداد دراسة الدكتوراه، ربما تفكر بدراسة نفسيات العرب أو شيء كهذا..

لكني لم أكن عربياً حقيقة. لم أشعر يوماً أني عربي.

كنت أمريكياً تماماً، ولدت في كوينز ونشأت فيها، ولأن أمي وأبي أصلاً لم يكونا ينتميان لنفس البلد، حيث كانت أمي مغربية وكان والدي مصرياً، فإنهما أصلاً لم يورثاني أي شيء تجاه بلديهما.. لم أشعر يوماً إلا أني أمريكي.. صحيح أنهما دفعاني إلى تعلم العربية، لكن ذلك كان أكاديمياً تماماً، كما يدرس البعض الصينية أو الفرنسية.. لم تكن هناك علاقة بين دراستي للعربية وانتمائي على الإطلاق.. كان والدي يطمح لدفعي باتجاه العمل الدبلوماسي، وكان يقول إن أمريكياً من أصل عربي ويتقن العربية يمكن أن يجد دوماً فرصاً للعمل في شرق أوسط مليء بالمشاكل.

تجد كريستين دوماً المجال للقول إن كل هذه التفسيرات هي جزء من إنكاري للحقيقة. تقول إني في حالة إنكار.

ربما كانت محقة أيضاً. فربما حرص والداي على تدريسي اللغة العربية كجزء من التعويض عن شعورهما بالذنب لانفصال كل منهما عن بلده.

حاولت أن أقول لعبدول أن لا يتحمس كثيراً في ضمي إلى حماسه للفيلم، لكنه كان يتحدث عن ضخامة الإنتاج والأسماء التي يمكن أن تشارك في الفيلم، ومن ثم وجدته على نحو سريع يقول لي إنني مرشح للإسهام في إعداد سيناريو الفيلم..

سألته: أنا؟ لماذا؟

قال: أقول لك إن الفيلم عن بلال الحبشي مؤذن الرسول، وقد قـــرأت

لك مقالاً رائعاً عن أوضاع العبيد والعبودية في الإسلام، وتطرقت فيه إلى قصة بلال.. أنت خير من يشارك في السيناريو.

كان المقال أكاديمياً تماماً، موضوعياً تماماً، إشارتي إلى بلال الحبشي لم تكن عاطفية بحيث تجعل عبدول ينفعل هكذا، قلت إنه تحول إلى أيقونة ورمز لكل العبيد ولكل السود، وإن مكانته في الإسلام أعطت الأمل للكثيرين.. هذا كل شيء.

كان عبدول في منتهى الحماس، لم يكن يصدق أني يمكن أن أرفض،

لكن، لماذا أرفض؟

فكرت!

أنا في وضع مالي سيئ، والمشاركة في كتابة سيناريو فيلم قد تساهم في تحسين وضعي.

ليس هناك عاقل يمكن أن يرفض هذا العرض.

سمعت عبدول يسألني: هل أنت معنا في المركب؟

لم يكن هناك غير أن أركب معه.

احتضنني بشدة وقبّلني على عادة العرب التي لا أستطيع تحملها وهو يكرر كلمة (أخي).

كان يجب أن أفهم مبكراً ما الذي وضعت نفسي فيه.

❑ ❑ ❑

كان عبدول جزءاً من فريق أوسع، قسم منهم كان مثل عبدول، يستعملون كلمة (أخي) بمعدل مرتفع جداً في الجملة الواحدة، وقسم آخر بدا لي مهنياً أكثر.. وكنت أحاول أن أوضح للجميع، قدر الإمكان، أني لست متديناً، ولست مهتماً أصلاً بالدين، بل إني أقوم بجمع المعلومات التاريخية المتعلقة بالفترة التي يتحدث عنها الفيلم، ولست بصدد تأييد المحتوى الفكري للفيلم أو حتى مناقشته.

لم يكن هناك من يهتم لما أقول، وغالباً لم يفهم أحد مقصدي مما أقوله.

كان الفريق متحمساً جداً للعمل..

وكنت أبدو مثل الخروف الأسود الذي يجر الجميع إلى الوراء.

❑ ❑ ❑

كان قبولي بالعمل فرصة لكرستين كي تؤكد نظريتها.

في أعماقي، كانت تؤكد، ثمة شيء لا يزال ينتمي للشرق الأوسط ومعتقداته.

قلت لها إنها ربما تكون محقة، وهذا بالذات ما يجعلها تعيش معي دون أن تدفع سنتاً واحداً من الإيجار أو أي شيء آخر في البيت.

تشاجرنا وهددت هي بترك البيت.

لكني توسلت إليها أن تبقى.

بعد أن توسلت قالت لي إنها ترفض أن أستعبدها بالشكل الذي أفعله. وإن علاقتنا غير صحية.

كنت أشعر أنها هي التي تستعبدني وتستغل عواطفي تجاهها.

لكنها لم تترك البيت.

غالباً لأنها لن تجد بيتاً تسكن فيه دون أن تساهم في دفع الإيجار والفواتير، وكل شيء.

❑ ❑ ❑

كنت أشعر أني أخون نفسي، عندما أقوم بجمع معلومات تاريخية، أعرف أنها قد توظف لتمجيد فكرة لا أؤمن بها. كان عبدول يؤكد لي أن الفيلم يتحدث عن شخصية تاريخية، وليس فيلماً دينياً بأي شكل من الأشكال. لكن حتى التاريخ، فهو يمكن أن يقدم على نحو ديني.

كانت هذه مشكلتي مع الفيلم.

ولهذا كان عملي متراخياً، بطيئاً، وكان عبدول محبطاً مني. كان يريد أن يعرف كل شيء عن تلك الفترة، الأزياء، تسريحات الشعر، نوعية الأثاث... إلخ، فكل تفصيل تاريخي أحصل عليه يجعل الفيلم أقرب للحقيقة.

كنت أشعر بأن الأمر غير مُجدٍ، المصادر لم تكن تركز على هذه التفاصيل، لم تكن تكترث لها، لكن (عبدول) كان يريدها بكل الأحوال.

ثم قررت أني سأترك العمل، متحملاً كل الأعباء المترتبة على ذلك..

وفي نفس اليوم، جاءت رسالة بلال.

شيء ما تغير في داخلي بعد أن قرأت الرسالة.

كنت أشعر قبلها أني أخون نفسي، هنا، ومع احتمالية مساعدة صبي مقبل على الموت، فكرت أني ربما أقوم بأفضل شيء في حياتي كلها.

داهمني شعور غريب تجاه هذا. فكرت أن أمي لو علمت لأصبحت فخورة بي. أمر من النادر أن يأتي في بالي من الأساس.

كلمات الصبي حركت شيئاً ما في داخلي..

فكرت.. صبي أيامه معدودة في الدنيا، يريد أن يقرأ سيناريو الفيلم قبل أن يموت، ربما هذه أمنيته الأخيرة..

من يمكن أن يرفض ذلك؟

قررت أن لا أخبر كريستين. كانت ستقول إن الجزء العاطفي مني – كشرقي - هو الذي يتحكم في تفكيري، رغم أنها هي نفسها كان من الممكن أن تفعل الشيء ذاته لو طلب منها صبي بهذه الظروف طلباً كهذا.

مسحت رسالة الاستقالة.

سأبقى في الفيلم الذي يتحدث عن (بلال الحبشي)، ولكن من أجل (بلال) آخر.

❑ ❑ ❑

لاتيشا

في اللحظة التي ولد فيها بلال، فهمت أن حياتي تغيرت إلى الأبد.

كنت أسمع هذه العبارة كثيراً. وكنت أتوهم أني أفهمها. لكن الأمر مختلف عندما يحدث.

حتى ساعة الولادة، لم أكن أعي على أي تغيير أنا مقبلة.

لكن عندما انتهى كل شيء، وجاؤوا لي به، فهمت.

فتح عينيه ونظر لي بتفحص، كما لو كان يتعرف عليّ، ارتجفت بشدة وبكيت. أحببته فوراً. فهمت معنى أن تحب الأم ابنها. شيء مختلف عن كل المشاعر التي جربتها من قبل. أو التي قرأت عنها من قبل.

احتضنته فشعرت أنه جزء مني فعلاً، عرفت أن حياتي ارتبطت بهذا المخلوق إلى الأبد. من اليوم، حياتي اليوم لم تعد ملكي، لم أعد حرة، لقد تنازلت عن حريتي، ولكني كنت سعيدة بتنازلي هذا. ربما لم أكن حرة تماماً قبل ذلك، ربما كانت علاقتي بأبيه فيها نوع من الاستلاب، لكن مع بلال بدا لي أن الأمر سيكون مختلفاً. سأكون سعيدة بتنازلي عن حريتي معه، كما لو أني خلقت لهذا. مع (سعيد) كان الأمر أشبه بإدمان.

بكى سعيد أيضاً، قبّل يدي، وقبل يد بلال. طلب مني أن أسامحه، وعدني أنه سيتغير، كنت قد كففت عن عد المرات التي طلب فيها السماح. كففت فعلاً. كنت أحبه، كان طيباً، أحياناً. ليس عندما يكون سكران أو تحت تأثير الكوكايين.

نادرة هي المرات التي رأيت فيها سعيداً يبكي، لكنه بكي وهو يحمل بلالاً الذي ولد للتو، أخذه معه وهو يدور به، كان يتحدث معه بصوت منخفض.. كان يهمس لبلال بشيء لم أستطع تبينه. وكانت دموعه تملأ وجهه. كنت أعرف كيف أن عواطف سعيد تشبه الرولر كوستر، وما

يفرحه اليوم قد يغضبه غداً، لكن هذا الموقف كان مختلفاً جداً، الطريقة التي كان يحمل بها ابنه ويهمس بها في أذنه، كانت مؤثرة جداً.

عاد سعيد وأعاد الطفل لي، قال لي مجدداً إنه سيتغير من أجل الطفل، وطلب أن أسامحه على كل ما فات.

كنت أسامحه في الماضي لأني ببساطة أحبه كما لو كنت مريضة. بلا أمل في الشفاء منه. كنت مدمنة عليه، ولم يكن بوسعي إلا أن أسامحه حتى قبل أن تزول آثار الكدمات التي يتركها على جسدي أثناء نوبات سكره وغضبه.

فكرت يومها، أنه إن لم يتغير، فإني لست بحاجة له بكل الأحوال. وجدت حبا آخر يملأ قلبي. أسامحك يا سعيد لأني وجدت ما سيشغلني عنك، إن لم تتغير فإنك لن تستطيع أن تبتز عواطفي.. لقد انتهى هذا الوقت.

كان سعيد لا يزال في وضعهِ الطيب عندما همس لي: سنسميه (بلال).

قلت له: بلال؟ لِمَ بلال؟ لم أكن أعرف أنك تحبه.

سألني: أحب من؟

أجبته: بلال.. مغني الراب. لا أذكر أبداً أنك كنت تحبه أو تسمع له.

قال: لا، ليس (بلال) مغني الراب.. بل (بلال) الحبشي صديق ومؤذن النبي محمد.

صعقت. كانت هذه أول مرة يذكر فيها سعيد شيئاً عن النبي محمد. فكونه ولد في عائلة مسلمة لم يجعله مسلماً بالضبط، جاء معي إلى الكنيسة عدة مرات.. لكنه لم يتحدث بشيء عن الإسلام أو عن النبي محمد.. غالباً لأنه لا يعرف عنهما شيئاً أصلاً.

قلت له: ما معنى مؤذن؟

قال: كان بلال عبداً أسود، وكان من أوائل من آمن بالنبي محمد، وعذبه سيده كثيراً، لكنه صمد.. وقام أحد المؤمنين بشرائه وإطلاقه حراً

كان يملك صوتاً جميلاً، فجعله النبي ينادي للصلاة، يقف على مكان مرتفع، وينادي الناس للصلاة، فيعرفون أن وقت الصلاة قد حان.. تخيلي كم هو جميل هذا.

لم أركز كثيراً فيما قاله، ولم يخطر في بالي أن هذا الـ (بلال) الذي يتحدث عنه سيغير حياتي وحياة ابني لاحقاً. كنت أحب (سعيد) جداً، بلا سبب مفهوم، مريضة به، لكني لم أتخيله أبداً يمكن أن يقول شيئاً كهذا، هذه الأسطر الثلاثة التي قالها، كانت مختلفة تماماً عن كل شيء قاله في السنوات التي عرفته فيها.. كنت أحبه وهو الذي لم يكمل الثانوية العامة، بينما كنت أنا متفوقة، وأكملت الكلية، وكان لا يزال لديّ الطموح للمزيد، لكني أحببته هكذا، تخيلت أنها نزوة أولاً، كذلك ظنَّ كل من كان حولي، لكني بقيت أحبه.. عندما قال هذه الأسطر الثلاثة، وأشرق وجهه بنور ساطع وهو يقولها، شعرت أن في داخله معدناً خفياً هو الذي جعلني أحبه أصلاً.

هزتني قصة العبد الأسود الذي يحرره الإيمان من العبودية.

تخيلت صوته حزيناً، ينادي للصلاة بصوت كصوت جيمس براون.

وأحببت (سعيد) وهو هكذا.

قلت له: بلال، إذن.

ونظرت إلى بلال، لم أكن أدري أني سأشقى من أبيه، وأمرض به.

لم يدم وضع سعيد (الطيب) كثيراً، أيام فقط. لم تتجاوز العشرة.. ثم اختفى النور تماماً من وجهه.

تدهور وضعه خلال الأشهر التالية كثيراً.. زادت مشاكله، وزاد سكره، وأعتقد أنه لم يعد يتعاطى فحسب، بل صار جزءاً من شبكة توزيع مخدرات.

كنت قد حسمت أمري.. انتهزت فرصة أني شفيت منه، وقررت أن أطرده من حياتي وحياة بلال.

غضب وصرخ وشتم، بل وضربني وحطم جهاز التلفاز الذي لم أكن قد أكملت دفع أقساطه. لكني أصررت.

ثم خرج.. و(لم يعد).

لم يعد أبداً، ولا حتى ليرى بلال.

لا أزال أحبه قليلاً، رغم كل شيء.. لكن قليلاً جداً فقط، أفكر أنه قد جاء فقط ليمنحني بلالاً ويمضي. وقد فعل.

❒ ❒ ❒

تلك اللحظة، تغيرت فيها حياتي، يوم جاء بلال.

ولكن كانت هناك لحظة أخرى.. تغيرت فيها حياتي أيضاً إلى الأبد. هذه المرة إلى أبد آخر.

حدث ذلك يوم عرفت بإصابة بلال بالسرطان.

حدث كل شيء بسرعة. نزلة برد عادية، حمى.. صداع.. دوار.. إرهاق.. حاولت أولاً أن أعالج الأمر كما ستفعل أي أم بالأدوية المتوفرة في المتاجر من دون وصفة. لكن الأمر استمر ليومين دون أن يحدث تحسن لبلال.

أخذته بعد منتصف الليل، في ليلة عيد الشكر إلى المستشفى. كان القلق ينهشني. شيء ما أخبرني أن الأمر ليس على ما يرام. فجأة جاءني هذا الشعور، فلم أنتظر حتى الصباح. كان من المفترض أن أذهب إلى أمي في سانت لويس، وألتقي بأفراد أسرتي على عشاء عيد الشكر، لم أذهب طبعاً، لكني بقيت مع بلال.. عند منتصف الليل جاءني شعور أني قد أفقد بلالاً، وأنه كل أسرتي، وكل ما لديّ. هرعت به إلى المستشفى كما لو كان قد أصيب بالحمى للتو.

تحليل بعد آخر وقلبي لا يزال ينهشه القلق.

عندما وصلنا إلى أجهزة الفحص المقطعي، والرنين المغناطيسي، كنت أقنع نفسي أن هذه مجرد بروتوكولات معمول بها من أجل استدرار المال من شركات التأمين.

بدأت أقنع قلقي أن لا شيء يستحق القلق.

هذا لا يحدث.. لن يحدث لبلال. ليس لي وليس لبلال. هذا الطبيب مبالغ في الوسوسة. هذه مجرد بروتوكولات للتأكد من أن لا شيء يدعو للقلق. لكن هذا لا يحدث. لا يحدث لي. ستكون كل نتائج التحليلات والأشعات سلبية.

سيخرج بلال.

مجرد إرهاق. مجرد تعب عابر. كل الصبية في عمره معرضون لهذا.

❑ ❑ ❑

ثم جاءت اللحظة.

جاءت المرضة لتخبرني أن الطبيب زاك يرغب في رؤيتي في مكتبه.

هكذا تحدث الأمور دوماً.

دخلت المكتب كما لو كنت تحت تأثير المخدر. سألني الطبيب أسئلة لا أعرف أصلاً كيف أجبت عنها. كنت أنتظر جملته. أطلق رصاصتك يا دكتور وانه الأمر.

تأملت فيه بينما هو يمهد لي. كان وسيماً جداً. لِمَ كان عليه أن يدرس الطب وهو بهذه الوسامة؟ كان يمكنه أن يكون عارضاً أو ممثلاً أو مذيعاً بسهولة، هل عرف يوم درس الطب أنه سيجلس خلف مكتب ليخبر أماً ما أنها قد تفقد وحيدها؟

هل يعرف أني سأربط دوماً بين الرجال الوسيمين الذين لهم عيون زرق صافية وبين ما سيقوله الآن. بنتيجة الفحوصات التي يمهد لها. بالخبر السيئ الذي يقوله عن بلال.

كنت غارقة تماماً ثم سمعت الكلمة.

كلمة لاتينية طويلة معقدة، ثم قال: ورم في الدماغ.

ترك لي مجالاً للفهم.

كررت خلفه ببطء: ورم في الدماغ.

هز رأسه بأسف.

قلت له: أي نوع من الورم؟

ثبت عينيه في عيني ثم قال: من النوع الخبيث.

قلت: سرطان؟

هز رأسه مجدداً.

كنت أتوقع انهياري، لكن لم يحدث. فجأة شعرت بالغضب. الغضب. وجدت نفسي مليئة بالغضب. وددت لو أن أصرخ.. أن أحطم أثاث المكتب. أن أسب وأشتم.

لو أن أفقأ عيني الطبيب الوسيم وسامة أكثر مما يجب، بالنسبة لطبيب يخبر الأمهات بما أخبرني به للتو.

كنت أريد أن أصرخ: لماذا بلال؟ لماذا بلالي؟ وحيدي؟ كل ما أملك.

لم أفعل شيئاً من هذا. كان الطبيب يقول شيئاً إيجابياً، عن رحلة علاج صعبة ولكن تستحق العناء.

كتمت غضبي في أعماقي كالعادة. كما فعلت طيلة حياتي.

سألته عن التشخيص المحدد. عن اسم المرض بالتحديد، كي أستطيع أن أبحث عنه لاحقاً في الإنترنت.

قال لي: Focal Brainstem Glioma.

بدا الاسم كبيراً جداً على بلال. أشفقت عليه من هذا الاسم. صغير جداً على اسم مرض معقد كهذا!!

استمر الطبيب في دوره الإرشادي، مؤكداً أنه وفريقه سيكونون معي. وأن رحلة العلاج لن تكون سهلة، لكننا يجب أن نخوضها بأمل.

أخذت منه بعض الكراسات عن مجموعات دعم مقترحة، قال إنهـــا

يمكن أن تساعدني، بينما كنت أكرر اسم المرض مع نفسي كي لا أنساه.

سأذهب إلى غوغل لأعرف الحقيقة هناك.

عندما جاء بلال حررني من عبوديتي لأبيه. كان سعيد كالسرطان.

اليوم عليّ أن أقف مع بلال، بوجه السرطان الذي يريد أن يستعبده.

□ □ □

بلال

عكس ما يظن الجميع. كان السرطان هو أفضل ما حدث لي في حياتي، منذ أن ولدت.

صحيح أنه قد ينهي هذه الحياة.

لكنه يبقى أفضل ما حدث، رغم كل شيء.

أمي لم تعلم قط أي شيء كنت أعانيه، قبل أن يأتي السرطان ليخلصني. حاولت أن أخفي عنها دوماً. فعلت ذلك لأجلها، ولأجلي.. لا أعرف لم أخفيت ذلك حقيقة. لكني لم أقل شيئاً. ولا كلمة.

أمي لم تعلم قط، أن كل ما أعانيه من علاج السرطان، كل ذلك الغثيان والتقيؤ والصداع والخمول، كل ذلك الأسر على سرير المرض والأنابيب التي تدخل وتخرج مني، كل التقرحات في فمي، وجفاف الحلق الذي لا أعرف كيف أصفه.. كل هذا، لا يعد شيئاً مقابل يوم كنت أعانيه في المدرسة. يوم واحد عادي من أيام المدرسة.

بدأ الأمر في الصف الرابع، كل شيء كان عادياً قبلها. في الصف الرابع، وبعد ثلاثة أشهر من بدء الدراسة في الخريف، حصلت أمي على وظيفة كمعلمة في مدرسة في بروكلين، فقررت أن ننتقل إلى بيت جديد قرب عملها، وهكذا تركنا برونكس، حيث كنا نسكن، وتركت مدرستي التي كانت الأمور فيها عادية، إلى مدرسة جديدة، في بروكلين.

منذ اليوم الأول هناك، كانت الأمور سيئة، واستمرت بالسوء، بل بالزيادة بالسوء كل يوم، كل يوم، ولثلاث سنوات تقريباً، إلى أن تم تشخيصي بالسرطان، أو على الأقل إلى أن عرفوا في المدرسة أنني مصاب بالسرطان.

بدأ اليوم الأول هكذا: المعلمة تطلب من الجميع الترحيب بي، لا أحـــد

يرحب تقريباً، لا أحد يريد صديقاً جديداً جاء في منتصف السنة الدراسية، ثم تطلب مني أن أجلس في مقعد فارغ في آخر القاعة تقريباً، أخترق الجميع وسط نظرات لا مبالية، وعندما أجلس، أسمع أحدهم يقول من خلفي: أنت يا سمين.

تعالت ضحكات مكتومة هنا وهناك، والتفتت المدرسة وهي تقول بتثاقل: كفى يا جون.

لكن جون واشنطون لم يكتف. ما إن انتهى الدرس حتى عاود مجدداً وانضم له مايك: أنت يا سمين، أنت يا بدين المؤخرة، أنت يا كرة القرنبيط..

قررت أن أتجاهلهما، كما لو أني لا أسمع ما يقولان، أو كما لو أني لا أعرف أنهما يقصداني. وكان هذا على ما يبدو خطئي الشنيع الذي لم أتمكن من إصلاحه.

لو أني لكمت جون، أو رددت عليه، لربما كنت رجعت إلى البيت مليئاً بالكدمات، لكن ربما كان الأمر قد وقف عند هذا الحد.

لكني عدت إلى البيت وأنا مليء بكدمات لا ترى، وعندما سألتني أمي كيف كان يومي، رددت عليها: كان جيداً.

كان هذا جوابي كل يوم، وكل يوم كان أسوأ من الذي قبله.

خلال اليوم الثاني أيضاً ارتكبت خطأً قاتلاً، كان له أثره في زيادة السوء.

سألت أحدهم عن مكان دورة المياه. فأشار إلى دورة المياه الخاصة بالفتيات، كنت مستعجلاً فدخلت دون أن أنتبه إلى العلامة الخاصة على الباب. دخلت ثم علا صراخ الفتيات، خرجت مسرعاً وإذا بالكل ينتظر خروجي، علت الضحكات وعبارات الاستهزاء، تحول الأمر هنا من جون ومايك إلى المدرسة بأسرها، صرت هدفاً عاماً لكل من يشاء.. جون واشنطون صوَّر خروجي من دورة مياه الفتيات راكضاً، ووضع الفيديو على موقع المدرسة.. ألف مشاهدة وأكثر من مائة تعليق قبل أن يتم الحذف.. ولكن من يحذفه من الهواتف التي بقيت تتبادل الفيديو حتى اليوم؟

كل يوم كان أسوأ مما سبقه، كل أسبوع كان أسوأ من الذي سبقه.

كنت أقول في نفسي: سيكف جون ومايك عن هذا. سيضجران.. سيجدان أحداً آخر..

لم يحدث. ولم يحدث أن تدخل أحد لمساعدتي. قط. لا أحد.

صرت أدعو الله أن لا يرياني، أن يتلهيا عني بأي شيء، أن يلتفتا لدراستهما أكثر.. أن ينتقلا إلى مدرسة أخرى .. إلى ولاية أخرى.. أي شيء..

لكن ذلك لم يحدث.

ثم، تقريباً من الشهر الثالث أو الرابع لدخولي المدرسة، صرت أنام كل ليلة وأنا أتخيل جون ومايك وهما يموتان.

صرت أجد عزائي كل ليلة في خيالاتي عنهما وهما يموتان أبشع ميتة.

تخيلتهما يحترقان، يتعذبان ببطء قبل الموت.. ولا يبقى شيء منهما.

تخيلتهما يختطفان، يحتجزهما مجرم في مكان بعيد منعزل ويسومهما سوء العذاب.

تخيلتهما يغرقان.

تخيلتهما مقيدين على السكة الحديد والقطار يمر عليهما فلا يبقي منهما عضلة متصلة بأخرى.

كل ليلة، قبل أن أنام، كنت أتخيل لهما نهاية ملائمة، تخفف عني ما أعانيه منهما في الصباح.

وكل صباح، كنت أذهب لأجد أن شيئاً لم يحدث لهما، وأنهما لم ينتقلا إلى مدرسة أخرى، ولم يختطفا، وأن القطار مر في طريقه المعتاد دون أن يقطعهما كما تمنيت.

وكل يوم كانت أمي تسألني: كيف كان يومك؟ وكل يوم كنت أرد: كان جيداً.

لا.. مرة ذهبت إليها أرتجف، أرتجف كلي، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. قلت لها: الأولاد في المدرسة.. الأولاد في المدرسة..

احتضنتني بخوف وقالت: ما بهم؟

قلت لها: يقولون إني بدين.

هذا كل ما قلته لها. سألتني: هل هذا كل شيء؟ فقلت نعم، كل شيء، لم أقل المزيد. لا أعرف لماذا.

قالت لي: ستكون الأمور بخير..

لم يحدث.

□ □ □

بعد أن تأكدت أن شيئاً ما لن يحدث لجون ومايك، أخذت أنام كل ليلة وأنا أدعو الله أن لا أستيقظ. أن أموت. لم أكن أتمنى شكلاً معيناً لموتي، فقط كنت أريد أن أستمر في النوم ولا أستيقظ أبداً. أبداً. لم أكن أريد أن أذهب إلى المدرسة، حيث سيضحك عليّ الجميع ويهينونني.

لم أمتِ أيضاً. لم تتحقق حتى هذه الدعوة.

وجدت نفسي أكره نفسي بالتدريج. وجدت نفسي أرى أني أستحق ما يفعله بي جون ومايك والآخرون. كنت أرى أني بدين فعلاً، وصرت أنظر إلى المرآة فأرى شخصاً كريهاً منفراً يستحق ما يفعل به.

مع الصف السابع انضمت الفتيات إلى فريق السخرية، خاصة الفتيات الجميلات اللواتي لهن شعبية كبيرة في المدرسة.

وفي تلك الفترة زادت حدة الأذى الذي أتلقاه.

دفعوني مرة من حافلة المدرسة وهي على وشك السير، وتحطمت نظارتي وتمزق بنطالي.

وحبسوني مرة في دورة المياه بعد أن انتهى وقت المدرسة.

وكنت قد اعتدت تقريباً على سحب بنطالي مني في رواق المدرسة أمام الجميع.

نعم، فكرت بالانتحار طبعاً، فكرت بكل الوسائل وحلمت بها.

لكن شخصاً جباناً مثلي، لم يكن ليجرؤ على فعل ما يريد فعله.

كنت أكره نفسي، أكرهها لدرجة الموت، لكن أحداً لم يكن يعلم ذلك، كل ما في الأمر أني بدوت كما لو كنت أحب العزلة والهدوء أكثر.

❑ ❑ ❑

ثم جاء السرطان.

كان له أثر إيجابي.

تغيرت أشياء كثيرة.. لم ينته الأمر تماماً على الفور، لكنه تغير بالتأكيد. صارت المضايقات أقل بكثير.

منذ أن دخلت المدرسة بعد أن خرجت من المستشفى أول مرة، حدست أن شيئاً ما تغير.

كان هناك التأمل الصامت الخالي من التعابير. يتفرجون عليَّ كما لو كنت عينة مصابة بالسرطان في المدرسة.

وكان هناك العطف. كرهته. مزيف ومهين. ولكنه أفضل من الأذى والسخرية.

وكانت هناك اللامبالاة. كانت هي الشيء الأكثر.. وكان هذا هو الأفضل بالنسبة لي.

لم أحب أن أكون شيئاً يتأملونه أو يعطفون عليه. كنت أفضل أن أكون شيئاً لا يبالون به.

وهكذا فعل جون ومايك، وكل من كان يشاركهم. فجأة لم أعد موجوداً بالنسبة لهم. لم يعودوا يصوبون سهامهم نحوي. كففت أن أكون كيس الملاكمة الذي يفرغون فيه غضبهم أو توترهم.

ربما لم أكف بالضبط. لكن الأمر قل جداً.

في الأيام الأولى لم أكن أصدق ما يحدث. كنت أذهب إلى خزانتي متوقعاً المعتاد من السخرية أو ضربة على الرأس بكرة المضرب أو أي شيء.. لكن، كل هذا توقف فجأة. صار نادراً جداً.

حتى الأساتذة، صاروا ألطف ويهتمون بي فجأة.

قبلها كانوا يكتفون بـ (كفى يا جون) عندما يفعل جون شيئاً أمامهم.

كان عليّ أن أصاب بالسرطان كي أصل لهذا.

منحني السرطان فرصة لأتنفس الصعداء، لم تلتئم جروحي، لكني وجدت المجال لكي أتنفس.

كنت أفكر بخلايا السرطان التي في جسدي بحنو كبير.

لقد كفت عني أذى جون ومايك.. وكنت ممتناً لها كثيراً..

كنت أكره جسدي، أكره نفسي، لذا فلم أجد أن السرطان أمر سيئ.. كنت بطريقة ما أستحقه.

لقد بقيت أتمنى الموت لفترة طويلة، وتخيلته سيأتي فجأة ويخلصني من جون ومايك.

لكنه بعث بالسرطان أولاً، وكان ذلك كافياً لإزاحتهما.

لم يكن دماغي بحالة جيدة.. كان هناك ورم يتمدد فيه بالتدريج.

لكني كنت أتنفس أفضل.

❑ ❑ ❑

عندما حدثتني أمي عن فيلم يتم الإعداد له باسم (بلال) سارعت للبحث عنه في الإنترنت، أردت أن أعرف أي معلومة، مهما كانت صغيرة عنه. لم يكن هناك الكثير في البداية.

لكني تخيلت الاسم على أفيشات الدعاية، تخيلته يملأ الشوارع، والساحات.

لست أنا. لكنه اسمي.

فكرت أن ذلك سيكون مزعجاً لكل من آذاني وسخر يوماً مني.

فكرت أنهم ربما سيشعرون بالذنب، عندما يرون العنوان، ربما سيذكرهم بما كانوا يفعلونه بي. ربما سينغصهم ذلك في الرواح والمجيء.

بحثت أكثر عن الشخصية التي يقدمها الفيلم، كان واحداً من العبيد السود الذين آمنوا بالنبي محمد، نبي المسلمين. كان عبداً وعذبه سيده كثيراً لأنه آمن بالنبي محمد. لكن أحد أصدقاء النبي محمد الأثرياء اشتراه من سيده وأطلق سراحه. كانت أمي قد أخبرتني شيئاً كهذا ذات مرة، عندما سألتها عن اسمي.

ثم، قرأت شيئاً مذهلاً. شيئاً جعل شعري يقف.

لقد تمكن بلال من الانتقام.

لقد تمكن من قتل سيده الذي عذبه.

صار بلال (بطلي).

ليس لأن اسمي مثل اسمه، بل لأنه تمكن من أن ينتقم.

هذا العالم يحتاج إلى أمثال بلال، لكي يصبح أفضل.

وجدت بعض الصور لبلال كما سيظهر في الفيلم، وأخذت أتخيله وهو ينتقم من سيده.. ومن جون ومن مايك ومن السرطان.

تخيلته بثلاثة أبعاد.

لا بأربعة..

كنت معه في البعد الرابع.. أو ربما كنت أنا هو..

مررت أمام المرآة، وللمرة الأولى منذ سنوات لم أشعر أني يمكن أن لا أكره هذا الفتى الذي يظهر أمامي فيها.

كان هناك ثمة أمل في أن أحب نفسي، أو على الأقل أن أكف عن كراهيتها..

قضيت الليلة وأنا في فيلم ثلاثي الأبعاد من تأليفي وإخراجي وتمثيلي.

ينتقم فيه بلال من كل مَنْ آذاه، وليس من سيده فحسب.

وفي الصباح بحثت في موقع الفيلم عن بريد إلكتروني يمكن التواصل معه.

أرسلت البريد إلى شخص اسمه أمجد حلواني، كتب عنه أنه (المستشار التاريخي للسيناريو).

طلبت منه أن أطلع على سيناريو الفيلم.

في نفس اليوم، كانت لديَّ جلسة أخرى، من جلسات العلاج الكيميائي.

لم أكن أدري، أني قد وضعت أولى خطواتي، على علاجي الحقيقي.. المختلف.

❒ ❒ ❒

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: مرحبا

أهلاً بلال.. كيف الحال؟ أرجو أن تكون بخير.

أسعدني اهتمامك بالفيلم، وأرجو أن تتاح لك فرصة مشاهدته في دور العرض.

للأسف لا يمكنني إرسال السيناريو كما طلبت، وذلك لوجود العديد من القيود القانونية التي تمنع العاملين في الفيلم من تسريب أي شيء عنه.

بالمقابل، سأقوم بجمع كل ما يمكنني من معلومات عن بلال الحبشي من الكتب التاريخية، وإرسالها لك، ويمكنك أن تتخيل سيناريو لفيلم مبني على هذه المعلومات بمعزل عن سيناريو الفيلم الذي يتم إنتاجه فعلياً.

سيكون هذا السيناريو هو نسختنا المشتركة، أنا وأنت، من قصة بلال الحبشي.

ما رأيك؟

تحياتي

أمجد

□ □ □

أمجـد

ما الذي أفعله بالضبط؟

هل أدخل في هذه اللعبة مع صبي بمثل هذه الظروف؟

هل أدرك ماذا يحدث هنا؟

ما الذي يجب أن يقال أصلاً للمقبلين على الموت؟ ماتت أمي وقبلها مات أبي، لم أعرف كيف أخفف عنهما بكلمة واحدة، أمي وجدت في الدين عزاءها، عندما مات أبي كانت تقرأ له القرآن وهي تمسك بيده، والفترة التي سبقت موتها أصبحت أكثر تديناً.. حاولتُ وهي على فراش الموت أن أتقمص دورها مع أبي، أن أقرأ لها القرآن.. فعلت ذلك مرة أو مرتين فقط لكي تشعر هي بالراحة.. لكن ذلك لم يرحني أنا.. شعرت بالنفاق.. لم أستطع التمثيل.

حتى أثناء مراسيم صلاة الجنازة، لم أشعر بشيء تجاه المراسيم، لم أكن أؤمن أن ثمة شيئاً بعد هذه الحياة.. لذا بدا كل شيء مبالغاً في التعقيد.. كنت حزيناً على فراق أمي، وبدت المراسيم كما لو كانت قد اخترعت لتسلية أهل الميت وإلهائهم.. قلت ذلك لكريستين وأكدت تفسيري.. كما قالت إن أغلب الطقوس أصلاً أقيمت لهذا!

لم يكن هناك ما أقوله لأمي وهي تحتضر، كانت لديها قناعاتها عن الموت، وكانت تؤمن بشكل ما بوجود الله والحساب وكل هذا.. لم يكن لديَّ شيء أقوله، ولم تكن تنتظر مني أن أقول شيئاً على الإطلاق، كان لديها بعض القريبات اللواتي تكفلن بكل شيء..

لكن هل يمكن أن أفعل الشيء ذاته مع صبي ينتظر الموت، وهو في الثالثة عشرة من العمر؟

هل سأقول له: إنه لا شيء ينتظره هناك.. ستنطفئ الأضواء فجأة

عندما تموت. وتغادر، ويسكت كل شيء..

كان هذا ما أؤمن به.

لكن لا يمكن أن أقول ذلك لصبي يوشك أن يموت.

لا يمكن..

❐ ❐ ❐

كنت أؤمن دوماً أن الحقيقة أفضل من الوهم.

لذا فقد أخبرت أبي بإصابته بسرطان البنكرياس فور علمي بالأمر.. كانت أمي تريد إخفاء الأمر عنه، والمضي في العلاج بالتدريج إلى أن يستنتج.. وجدت أنا أنه يجب أن يعلم فوراً..

الحقيقة دوماً، مهما كانت مؤلمة أفضل من الكذب.

لكن، هل هذا ينطبق على طفل مقبل على الموت أيضاً؟

وهل يمكن لي أن أكون متأكداً أنه لن يحدث شيء بعد الموت، وأن الأمر أشبه بسحب المكبس من مولد الكهرباء، سينطفئ كل شيء وينتهي الأمر؟

كيف لي أن أكون متأكداً ما دمت لم أمت من قبل.

ما الذي ورطت نفسي فيه؟

❐ ❐ ❐

لا مجال للتراجع..

كنت أدرس أشخاصاً بالغين، أدرسهم مادة التاريخ..

اليوم، عليّ أن أقف أمام مراهق سيغادر الدنيا، لأخبره شيئاً عن التاريخ، وشيئاً آخر عن المستقبل.

وكنت أعرف أن عليّ أن أنقل له رسالة إيجابية..

على الأقل ليتقبل الموت بشجاعة..

تأملت في مهمتي التي تورطت فيها للتو.

عليَّ أن أجد في (بلال الحبشي)، ما يجعل (بلال النيويوركي) أقوى بمواجهة السرطان.

ليس سهلاً على الإطلاق.

لكن التراجع لم يعد خياراً، ما دمت قد قمت بإرسال الرسالة.

□ □ □

From: bilal2001ny@hotmail.com

To: Amjadhelwani@bilalmovie.org

subject: لا بأس

أهلاً سيد أمجد

شكرا لسؤالك، ولكن كيف تعتقد أن مريض سرطان الدماغ يشعر يا ترى؟

لا بأس في الفكرة، يمكننا أن نتخيل معاً سيناريو لفيلم عن بلال، وسأتظاهر أنا أنه نفس سيناريو الفيلم الذي سيظهر على الشاشة..

بانتظار ما سترسل.

تحياتي

بلال

□□□

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: الصخرة

لن أبدأ من البداية كما يحدث عادة.

بل سأبدأ من مشهد متقدم، لكنه مهم. يمكننا بعدها أن نرجع بالفلاش باك إلى البدايات.

ولن أبدأ ببلال. بل بأسطورة إغريقية ربما تكون سمعت بها، كما سمعنا جميعاً، وهي أسطورة لها أثرها في العقل الغربي.

أتحدث عن سيزيف، أسطورة سيزيف، تحديداً (صخرة سيزيف).

ملخص القصة أن الآلهة تعاقب سيزيف بأن يقوم بحمل حجر ضخم إلى قمة جبل، وهناك، وقبل الوصول إلى القمة، يسقط الحجر إلى القاع، ويكون على سيزيف أن يحمل الحجر مرة أخرى، ويتكرر ما حدث معه مجدداً، مرة تلو مرة تلو مرة... إلى ما لا نهاية.

عقوبة سيزيف هي أن يستمر بأداء عمل لا معنى له، لا نتيجة له.

إنه أن يكون كل جهدك (عبث).. لا طائل من ورائه.

❑ ❑ ❑

حسناً، هذه صخرة سيزيف، فما علاقتها ببلال الحبشي؟ ولماذا أبدأ بها الحكاية؟

لأن ثمة صخرة أخرى، مختلفة تماماً في قصة بلال الحبشي.

صخرة، مهمة، وقد تكون أول ما يذكرها أي شخص يذكر (بلال).

صخرة صارت بمثابة الركيزة التي تستند عليها قصة بلال الحبشي ومسيرته.

تلك الصخرة، راسخة في عمق ذاكرة كل من يعرف بلال الحبشي أو سمع بقصته..

تلك الصخرة، لم تكن صخرة بلال بالضبط، كانت صخرة أمية..

لكنها التصقت ببلال.

بالضبط وضعت على صدر بلال.

❑ ❑ ❑

المكان: مكة. مدينة في جزيرة العرب. بالضبط في الصحراء المحيطة بها.

الزمان: القرن السادس الميلادي.

المناسبة: عبدة الأصنام في مكة يحاربون ديناً توحيدياً جديداً.

كان أمية بن خلف، سيد بلال، يُخرج بلالاً في الظهيرة، عندما ترتفع الشمس، إلى بطحاء مكة، صحرائها خارج المدينة، فيدفع ومن معه بالصخرة العظيمة ويضعها على صدر بلال. ويقول له :لا تزال هكذا، حتى تموت أو تكفر بالدين الجديد وتعود لعبادة الأصنام.

الصخرة على صدر بلال، تحجز عنه الهواء، يغالبها بلال لكي يأخذ النفس، وعندما يشهق ليأخذ النفس، تضغط الصخرة أكثر على صدره..

الصخرة على صدر بلال، وظهره يلتصق بالرمل الحار الحراق، وحوله أمية ومن معه، يقولون له إن ثمة خياراً يمكنه أن يزيح الصخرة عن صدره، خياراً يمكنه من الاستمرار بالعيش.. خياراً يقوله بلسانه فحسب، وكان النبي، صاحب دعوة التوحيد، قد أجاز ذلك أصلاً، قال للضعفاء، حتى للأحرار منهم، إنه يمكنهم أن يذكروه (أي النبي) بسوء، ما داموا مضطرين لذلك.

كان بلال يعرف ذلك.. يعرف أنه يمكنه أن يقول بلسانه كلمة كفر عابرة، ويقول إنه يؤمن بتلك الأصنام، ويبقيه ذلك في فئة المؤمنين بالدين الجديد، دونما مشكلة أو حرج. لقد قال لهم النبي ذلك بوضوح.

فلماذا يحتمل بلال ذلك العذاب، وتلك الصخرة العظيمة الجاثمة على صدره؟

ببساطة، لأن بلالاً رفض، حتى وهو في هذا الموضع، أن يعتبر نفسه ضعيفاً.

نعم، سلبوه حريته، بل لقد ولد وحريته مسلوبة.

لكن ليس (قوته).

إذا كانت حريته قد سلبت، فهذا لن يجعله ضعيفاً.. يتصور أمية بن خلف ومن معه أن الأمر سواء، أن سلب الحرية يحتم جعل العبد ضعيفاً.. حتى العبيد يتوهمون ذلك، حتى بلال ربما كان يتوهم ذلك، يتصور أن عليه أن يكون ضعيفاً لمجرد أنه مسلوب الحرية.

تلك الصخرة التي وضعت على صدره، جعلته يرى نفسه على نحو مختلف.. جعلته يكتشف ماذا فعل به الإيمان، ماذا غيّر فيه الإيمان..

تلك الصخرة جعلته يكتشف إنه اليوم أقوى، جعلته يكتشف أن إيمانه جعل منه شخصاً أقوى، أقوى حتى من بعض المؤمنين من الأحرار الذين لم يتحملوا ما تحمل..

كان الألم فظيعاً حتماً، لا يطاق.. لكن الصخرة جعلته يكتشف أن طاقته على التحمل قد زادت أضعافاً مضاعفة..

الألم كبير.. نعم، لكن الإيمان جعل من طاقة التحمل عنده أكبر..

كان يفترض بالصخرة أن تكسره، لكنها جعلته يكتشف كم هو قوي، كم يمكن له أن يكون قوياً..

على الصخرة تكسرت إرادة أمية، لا بد أنه فهم يومها أن ذلك الشيء الذي حدث في داخل بلال كان استثنائياً.. كان حدثاً خارقاً للعادة..

وعلى الصخرة، ولد بلال من جديد، لقد صار حراً بطريقة ما، وحتى قبل أن يتحرر من عبوديته رسمياً، فإن مروره بتلك الصخرة منتصراً، وهو يتمتم بكلمة التوحيد (أحد، أحد)، كان إيذاناً بحصوله على حريته.. حريته

التي لم يكن يفصل بينه وبينها إلا ساعات قليلة بكل الأحوال..

❐ ❐ ❐

أتخيل الصخرة، على الصدر العاري لبلال.

والرمل الحار للصحراء المجدبة، في ظهيرة حارة، ربما كانت في منتصف الصيف.

لو أن نحاتاً ما استلهم هذا المشهد، لو جعله نصباً أو تمثالاً..

لكان جديراً به أن يكون اسمه: نصب الحرية.

نعم، صخرة بلال تلك، دخلت التاريخ، كنصب للقوة التي تأتي من الإيمان، وللحرية التي تأتي من القوة..

❐ ❐ ❐

الصخرة واحدة..

مرة مع سيزيف مثالاً للعبث واللا جدوي.

ومرة مع بلال، مثالاً للإيمان يقوي الأشخاص، يحررهم من قيودهم، من ضعفهم..

في حياة كل منا، هناك دوماً هذا الخيار..

صخرة ما، نجعلها كصخرة سيزيف، ونقضي حياتنا في العبث أو اللا جدوى..

أو صخرة نجعلها كصخرة بلال، تجعلنا مصاعبها نكتشف قوتنا..

دوماً ثمة صخرة ما..

وهناك اختيار واعٍ نختاره..

سيزيف أو بلال.

❐ ❐ ❐

كان بلال نائماً بعد أن أنهى نوبة من نوبات القيء التي يصاب بها بعد جلسة العلاج الكيمياوي، وكنت قد أنهيت إزالة آثار القيء وجلست على الحاسوب في غرفته أحاول الدخول إلى موقع يعطي بعض الإرشادات والنصح لأمهات الأطفال المصابين بالسرطان مع تقدم العلاج، خاصة الدعم النفسي لأمهات يعرفن خطورة حالة أطفالهن، كنت أجد في الموقع بعض التعويض عن الذهاب لمجموعات الدعم، لم يكن لديَّ الوقت دوماً لمجموعة الدعم التي سجلت فيها.

كانت صفحة بريد بلال مفتوحة، ورأيت فيها رسالة إلى بلال من أمجد حلواني.

كان بلال قد أخبرني أنه راسل سيناريست الفيلم طالباً منه السيناريو، لم أجد مشكلة في الأمر، توقعت أن لا يأتي رد، لكني فكرت إن كان بلال يبحث عن (بلال الحبشي) حقاً أم كان يبحث عن والده، لأن كل ما يربطه بوالده هو الاسم الذي اختاره له يوم ولد، ثم رحل.. فكرت إن كان يمكن حقاً البحث عن سعيد بعد كل هذه السنوات وإن كان ذلك مجدياً أصلاً لبلال.

لم أتوقع أن يأتي رد من السيناريست، بل لم أتوقع أصلاً أن يقرأ رسالته أحد. قلت له ذلك كي لا يحبط، ووعدته أن نحاول البحث في الإنترنت عن بلال الحبشي. لم يقل بلال شيئاً يومها.

لم يكن بلال قد أخبرني برد أمجد الأول عليه، غريب كم هو كتوم هذا الصبي، دوماً عرفت ذلك، وزاد الأمر مع انتقالنا إلى بروكلين، حاولت كثيراً أن أخترق القشرة التي يحيط نفسه بها، لكني عجزت.. يكون أحياناً مرحاً جداً، ويغرق في أحيان أخرى في صمت كئيب.

فكرت أنه ربما تكون هناك مشكلة لديه في المدرسة، لاحظت أن لا أصدقاء كثيرين له، لا أحد تقريباً يتصل على الهاتف، لا أحد يخرج معه خارج المدرسة.

حاولت كثيراً أن أسأله، أن أجعله يخبرني إذا كان ثمة شيء خطأ في المدرسة، كان يرد دوماً (كل شيء بخير).

شككت، بوجود شيء ما، ذهبت إلى مدرسته، وقابلت المسؤولة، فقالت لي إن بلالاً لم يشك يوماً، وإنه لو كان ثمة مشكلة لكان قال شيئاً، ونصحتني أن أتركه يتعامل مع الأمر بنفسه لو كان ثمة مشكلة عابرة، وأوضحت أن محاولة حلها بدلاً منه سيجعله اتكالياً ويطلب حمايتي دوماً، وما دام لم يتحدث هو عن مشكلة، فلا داعي لافتراض وجودها.

شككت بوجود أذى وتنمر من الطلبة موجه نحوه من قبل، كان قد جاء مرة ليخبرني أنهم ينادونه بالسمين، وكان يرتجف، ولم يكن بلال سميناً لهذه الدرجة، كان وزنه أكثر من المعتاد بقليل ليس إلا، سألته إن كان هذا كل شيء، فأكد ذلك، حاولت أن أطمئنه، وذكرت له نسب زيادة الوزن بين من هم في مثل سنه، لكي يشعر أنه ليس وحيداً. سكت هو، ولم يعد إلى ذكر الموضوع مجدداً..

عدا صمته ووحدته، كان يقرأ كثيراً، وينام جيداً ويأكل جيداً، علاماته كانت جيدة عموماً، الشيء الوحيد الذي لاحظته أنه تدهور أو اختفى، هو أنه كان يمتلك موهبة جيدة في الكتابة، وكان يطيب لي أن أتصور أنه أخذها مني، لكنه توقف تماماً عن الكتابة، أو عن كتابة أي شيء مميز في فروضه في اللغة الإنجليزية. فكرت أنا أن هذا ربما يكون جزءاً من (أنه يكبر)، وربما كان الصبيان في مثل سنه يرون أن الكتابة (بناتية) بطريقة أو بأخرى، لم أحب أن أتدخل في هذا..

الغريب أن السرطان كسر صمته قليلاً، لم يكسر كتمانه، كسر صمته فقط، صار يتحدث أكثر ويسأل أكثر، سألني عن والده في هذه الفترة أكثر مما سألني طيلة حياته. لم أفهم تحديداً إن كانت هذه الأسئلة ناتجة عن

معرفته بإصابته بالسرطان، أو أنها أسئلة مختزنة في داخله منذ أن وعى أن والده غادر وهو لا يزال بعمر أشهر، وجاء السرطان ليحررها.. أم أن هذه الأسئلة هي نتيجة طبيعية لهذه السن، عندما يكون الصبي على أبواب المراهقة، ويكون بحاجة إلى والده، ربما أكثر من أي وقت مضى.

تحرر من صمته، لكنه بقي كتوماً، كنت أجد من تاريخ زيارات مواقع الإنترنت أنه زار بعض المواقع التي تتحدث عن نوع السرطان الذي أصيب به، وعن نسب النجاة منه. كان يزيل أحياناً كل تواريخ الزيارات، فلا أعرف ماذا زار من مواقع، وكان أحياناً يتركها كما هي، كما لو أنه يريد أن يقول لي، عندما أدقق على زياراته، أنه يعرف احتمالية نجاته الضئيلة.

لا أعرف إن كان هذا يسهل الأمر عليّ أم لا..

أن تعرف أم أن ابنها يعرف أن فرص نجاته ضئيلة..

وأن من كل عشرة مثله، عليه هو أن يغلب ثمانية، لكي ينجو..

في صندوق رسائل بلال، رسالة لم تفتح من أمجد.

ربما وصلت بينما كان العلاج الكيمياوي يتدفق في شرايينه.

أو ربما أثناء واحدة من نوبات القيء.

تأملت في بلال، كان يغط في نوم عميق. يشبه الإغماءة من الإرهاق.

نظرت إلى الرسالة غير المفتوحة.

بلال قاصر بعد كل شيء، وأمجد لا بد أنه أكبر منه بكثير.. عليَّ أن أراقب ماذا يقول لابني.

بقليل من التردد فتحت الرسالة وقد قررت أن أزيل علامة أنها قرئت بعد أن أنهيها.

❐ ❐ ❐

رسالة أمجد كانت غير متوقعة.

توقعت أنه سيتحدث عن السنة التي ولد فيها بلال أو المكان الذي ولد فيه، شيء كهذا.

لكن سيزيف وصخرته والأسطورة الإغريقية!

وصخرة بلال؟ وهذا التعذيب على الرمل الحارق؟

والربط بينهما، العبث واللا جدوى مقابل التحمل والألم من أجل الحرية؟

وتلك الجملة الأخيرة، التي تقول إننا نصادف دوماً صخرة ما في حياتنا، يمكننا جعلها صخرة سيزيف أو صخرة بلال.

كل ذلك كان قوياً جداً..

لا أعرف إن كان بلال سيفهم كل ما كتبه هذا الأمجد.. لكني أنا، وجدت نفسي أتفاعل جداً مع ما كتب.

بينما أقرأ، كنت أجد قصة حياتي وحياة من حولي بين السطور، أغلب أقربائي يقضون حياتهم كلعبة سيزيفية لا معنى لها، نشأت أنا في سانت لويس.. سيزيف كان الاسم الوسطي للجميع تقريباً.. في بيئة سيزيفية عاقبتها الآلهة بأن تقضي حياتها في دحرجة الصخرة إلى الأعلى ثم إعادة دحرجتها مجدداً. كل من عاش في كلارا أفينيو في سانت لويس، يعرف ما أعني، أو ربما لا يعرفه لأنه يعتبره الطريقة الوحيدة للحياة، سيزيفية تماماً، ولكن سيزيف هنا زنجي وليس إغريقياً، كان الحي دوماً في قائمة أسوأ الأحياء للعيش في أمريكا طولاً وعرضاً، وليس في ميسوري وحدها، ويمكن لأي أحد أن يتخيل معنى أن تولد في حي كهذا، نادراً ما يمكنك أن تخرج منه إلى ما هو أفضل منه، كان من المفترض أن أبقى فيه، كانت نسب الفقر والجريمة قريبة جداً من نسب احتمالية موت بلال بالسرطان، كما لو أن عليَّ أن أبقى دوماً أحارب هذه الأرقام وأحاول النجاة منها..

كان والدي عاطلاً عن العمل أغلب الأوقات، لكنه كان يحبني، يوم وجدني متفوقة في المدرسة، قال لي إن ثمة فرصة لي أن أخرج من الحي

ومن تلك الأرقام وتلك النسب. بدا ذلك حلماً بعيداً يوم قاله، لكني تمسكت بحلمي. يوم حققت حلمي، ولو جزئياً، كان والدي في السجن.

كنت الوحيدة التي دخلت الكلية من بين كل أبناء أقاربي.. كنت فخرهم وقليلاً من غيظهم أيضاً..

في وقت ما.. كان يفترض أن أكمل وصولاً إلى الجامعة والحصول على شهادة البكالوريوس، لكن حدث أن التقيت بسعيد، وأرجعني سعيد إلى المربع الأول، إلى صخرة سيزيف، أحملها كل يوم وأركض بها لأتمكن من دفع القوائم وتسديد أقساط دراستي التي لم أنهها كما أحببت.. بل توقفت عند شهادة الدبلوما فقط.. كان سعيد يعمل أحياناً، ولا يعمل أغلب الأحيان، وكان يستغل إدماني له، فلا ينفق شيئاً على البيت أصلاً مما يكسبه من عمله.

كان يستغل إدماني عليه، كي أنفق على إدمانه على المخدرات.

تلك كانت مرحلة سيزيفية بامتياز من حياتي..

ثم جاء بلال، وخلصني من إدماني ومن صخرة سيزيف، ثم واجهت الحياة كما لو كانت قريبة مما وصفها هنا هذا السيناريست: كما لو كانت صخرة بلال..

قدمت لإكمال دراسة الجامعة، وحصلت على قرض مكنني من ذلك، وكنت أعمل في الوقت ذاته لأنفق على بلال.. غرقت في ديوني لأسدد القرض الدراسي، لكنني حصلت على شهادة البكالوريوس من جامعة ميسوري، وفي اليوم الذي خرج فيه والدي من السجن، كان أول يوم التحق فيه بالعمل كمدرسة للغة الإنجليزية في ثانوية فيرغسون، سانت لويس.

تأملت في بلال النائم: وهذا السرطان الذي ينهش دماغه، هو أيضا صخرة..

ولكني لا أعرف حتى الآن إن كنت أعاملها كصخرة سيزيف، أو كصخرة بلال..

□ □ □

كنت على وشك أن أضع علامة، بحكم العادة، على ما كتبه أمجد..

كنت سأعطيه +A، بالتأكيد.

لكني أغلقت الرسالة بسرعة، وجعلتها (غير مقروأة).

وتساءلت إن كانت ستنفع بلالاً.

□ □ □

أمجد

عندما أعدت قراءة ما كتبته لبلال، شعرت بالخجل من نفسي.

كيف أبيعه ما لا أنفذه..

صحيح أني تجنبت أن أذكر عن أي إيمان أتحدث.. تحدثت عن قوة (الإيمان) بالمطلق، لم أتحدث عن الإيمان بالله، بل عن الإيمان فحسب، لكن يمكن لبلال بسهولة أن يعتقد أني أتحدث عن الإيمان بالله، وهذا غالباً ما سيعتقده هو وأي شخص آخر يقرأ ما كتبت.

أي نفاق هذا، فكرت..

فتحت الرسالة مجدداً من هاتفي وأنا في المترو، كان مزدحماً كما يليق بنيويورك بعد ظهيرة يوم الجمعة. قرأت الرسالة مع نفسي كما لو كنت أقرؤها بصوت عال، أحببت ما كتبت، ولكن كرهتني، كرهتني جداً، أحببت المقارنة بين صخرة سيزيف وصخرة بلال، أحببت الفكرة، لكني أحسست أني أتفذلك.. أحسست أني ربما كنت أستعرض عضلاتي على الصغير بلال..

هل كنت مخطئاً بإعطاء هذا البعد الأسطوري في المقارنة؟ في النهاية كان سيزيف أسطورة لم تحدث، رغم تأثيرها الثقافي، لم تحدث.. أما صخرة بلال فقد حدثت، تعرق بلال عليها وعلى الرمل الحار في صحراء مكة..

لا أعلم.. كنت مرتبكاً تجاه ما كتبت، أحببته، وكرهتني، كرهت أني لم أكن على مستوى ما كتبت، كرهته لأني كنت أقل من أن يضعوا صخرة بلال على صدري، وربما أقل من أن أعاقب عقوبة سيزيف.. كنت مجرد شخص قال كلاماً جميلاً لكنه لم يكن على مستواه..

نظرت إلى الناس في المترو.

أغلبهم بين صخرة سيزيف وصخرة بلال حتى لو لم يسمعوا بسيزيف أو بلال..

ربما هم أمام الصخرة دوماً، ثمة زيوس (إله الإغريق) يأمرهم أن يحملوها كسيزيف، أو أمية يهددهم بوضعها على صدورهم..

ربما زيوس وأمية متفقان حالياً، فكرت.

ربما هما يعملان معاً حالياً بطريقة أو بأخرى..

ربما زيوس هو المسؤول عن الملايين، مئات الملايين الذين يقضون حياتهم في اللا شيء.. يعملون في حمل الصخور التي تسقط قبل أن تصل للقمة، ويستمرون بذلك.. وكل من يتمرد منهم على هذا القدر، يذهب فيتسلمه أمية، فيضع الصخرة على صدره..

ربما كانا يعملان معاً لصالح مدير بنك ما.. تزيد أرباحه كلما استمرت لعبة (الفليبرز) المجنونة.

غرقت في أفكاري، وفاتتني محطة Barclays Central حيث كان يجب أن أهبط لأصل إلى مطعم Bogota Latin Bistro حيث كنت اتفقت مع كريستين على الالتقاء بها، نزلت في المحطة التالية، ومشيت إلى حيث المطعم، فوجئت بكريستين مع مجموعة من أصدقائها، لم تكن قد أخبرتني أنها ستأتي معهم، وقرعتني علناً على التأخر، وهي تقول للجميع: يمكننا أن نثبت مع أمجد أن عدم الالتزام بالوقت مسألة جينية، ولا علاقة لها بالسلوك المكتسب.. ولد وعاش في أمريكا لكنه يتصرف كما لو كان في الشرق الأوسط.

ضحك البعض ولمحت بعض نظرات التعاطف من البعض الآخر، كان موقفها خشناً على نحو علني كما لو كانت تريد أن تقول للجميع كم هي قوية وقادرة على إذلالي.. بالضبط كما أصرت على شراء الكلب (كوبر) فقط بعد أن عرفت أني أكره الكلاب وأخاف منها.. وصارت تقول إن كرهي للكلاب لا علاقة له بالخوف، بل بل برواسب دينية موجودة عندي، حيث إن المسلمين يعتقدون أن الكلاب نجسة. لم أكن أعرف هذا أصلاً عن المسلمين!..

بقيت طيلة العشاء وأنا ساهِم ولم أتحدث، ولم تكترث كريستين، بل كانت تلاطف براندون. كالمعتاد منذ أن ظهر في حياتها منذ أشهر.

فكرت أن كريستين لو قرأت ما كتبت عن صخرة سيزيف لحللت ذلك بأني أرغب في إثبات معرفتي بالثقافة الغربية لا أكثر ولا أقل.. وأن شعوري بالنقص يجعلني أبالغ في كل شيء.

فكرت أيضاً أن كريستين هي بطريقة ما كصخرة سيزيف، أحملها على ظهري عبثاً ودون جدوى حقيقية من العلاقة معها.

لكني كنت أحبها..

أو هكذا كنت أعتقد أن هذا هو تعريف مشاعري نحوها.

□ □ □

From: bilal2001ny@hotmail.com

To: Amjadhelwani@bilalmovie.org

subject: سؤال

شكراً سيد أمجد على الرسالة.

قرأت ما كتبته وكنت أنهيت للتو جلسة علاج كيمياوي. لا أظنك تعرف ما يكون الشعور بعدها. لا أتمنى لأحد أن يعرف. كان الغثيان يجعلني أشعر أني أصبحت كيساً مليئاً بالقيء.. كانت الغرفة تدور بي، وحلقي يحترق.. ورائحة القيء تملأ أنفي حتى لو كان كل أثر قد أزيل من أمامي.

ثم قرأت ما كتبت. وأظن أني فهمته.

لكني أسألك.. لو جاءني أحد الآن، وقال لي إنك ستنتهي من هذا العذاب الذي تشعر به بمجرد أن تقول بعض كلمات لن تكلفك شيئاً، ولن تخسر شيئاً بترديدها.. أما كنت سأقول هذه الكلمات؟

دعني أطرح عليك السؤال بطريقة أخرى، افترض أني أريد أن أضيف مشهداً في السيناريو على مشهد تعذيب بلال، بلال وفوقه الصخرة، والرمل الحارق من تحته، تأتيه أمه أو أخته أو زوجته أو حبيبته (لا أعرف، أي أحد) وتقول له: يا بلال، إنها كلمات قلها وانه هذا العذاب.

ماذا سيرد عليها؟ خاصة أنك تقول إن نبيهم كان قد سمح لهم بذلك..

❑ ❑ ❑

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: نعم ممكن

كان لبلال أم فعلاً، اسمها حمامة، وأخت واسمها غفيرة، ولكن لا نعرف الكثير حقاً عنهما. لا نعرف إن كانت أي منهما موجودة في هذه الفترة من حياة بلال.

ممكن أيضاً أن نجعله يقول لها، ليعبر عن موقفه: أريد أن أقول لأمية إني صرت أقوى منك، إنك لم تعد تخيفني، نعم أنا أتالم.. نعم أنا أتعذب، لكن عذابي هذا، لأني أتحمله، فإنه يوصل رسالة للجميع، عن قوة الإيمان، يقول للمؤمنين إن بإمكانهم التحمل، إن ثمة المزيد من القوة بانتظارهم.

ويوصل رسالة لعبدة الأصنام: إيماننا يجعلنا أقوى منكم.. لم نعد نخافكم.

❒ ❒ ❒

بـــــلال

أعرف سيزيف. قرأت عنه بشكل عابر سابقاً. وقرأت عنه المزيد اليوم.

وأعرف الآن ما يقصد أمجد.

ما دمنا نعاني بكل الأحوال، فلنجعل لمعاناتنا معنى.. أعتقد أن هذا ما يرمي إليه.

قبل السرطان، كنت أعاني من تنمر وأذى الجميع معي في المدرسة، يوماً بعد يوم بعد يوم، كل شيء كان عبثاً، بلا جدوى، لم أفعل شيئاً أصلاً لأوقف كل هذا العذاب.

ثم جاء السرطان على أطراف أصابعه إلى دماغي.

يمكنني أن أستسلم له.. وسأبقى أعاني بكل الأحوال.

أمجد يقول إن صخرة بلال، ستجعل لمعاناتي معنى.

أو يمكن أن تجعل لمعاناتي معنى.

كل شيء يمكن أن يكون صخرة سيزيف أو صخرة بلال.

الأمر يعتمد علينا.

لا أزال أشعر بالغثيان. لا يزال القيء يملؤني..

كيف يمكن أن أجعل هذا صخرة بلال، وليس مجرد عبثاً سيزيفياً آخر؟

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: البدايات

لا نعرف الكثير عن طفولة بلال الحبشي، أو الفترة التي سبقت مرحلة إيمانه والتي أدت إلى مواجهته مع سيدِهِ (أمية) والصخرة إياها.

وهذا طبيعي جداً. فبلال كان مجرد عبد، مجرد شيء محتقر في نظر أسياده ونظر المجتمع عموماً. لِمَ على أي أحد أن يهتم بميلاد أو طفولة عبد.

رغم ذلك، فنحن نعرف شيئاً عن بلال، يمكن أن يجعلنا نفهم هذا الاحتقار أكثر، يجعلنا نفهم مكانة العبيد في هذا المجتمع.

تذكر المصادر عن بلال أنه كان من (مولدي السراة)، والسراة هي منطقة بين مكة واليمن، وقيل أيضاً إنه من مولدي (مكة).

أما لقب (المولدين)، فهو يعني أنه ولد بناء على طلب من سيده الذي كان يملك (أمه)، وقد قرر أنه يمكن أن يستفيد من كونها أنثى خصبة، لذا فهو يجعلها تنجب، غالباً من عبد مثلها، قد يكون من ممتلكاته أيضاً وقد لا يكون، فتلد له ذكراً يكبر ليكون عبداً له يساعده في العمل أو يبيعه أو أنثى تكبر لتكون خادمة أو جارية أو يبيعها أيضاً.

ولد بناء على طلب سيده، كان سيده يرغب في المزيد من الربح.

أي امتهان لإنسانية الإنسان، أن يولد، فيفهم أنه ولد كي يزيد ربح أحدهم، ولد كي يباع، ولد كي ينتفع به أحدهم، الذي سبق له أو لمثله أن انتفع من والديه..

أي امتهان لكرامة الإنسان، أن يكون قد ولد، حسب طلب السيد، الذي يرغب أن يرى عبداً آخر في ممتلكاته.. كما لو كان حصاناً آخر.. أو أي نوع من المواشي..

وهكذا فإن بلالاً على الأغلب لم يكن يعرف والده (شخصياً).

لقد أنجبه من أجل أن تزيد ثروة السيد.. نقطة.. انتهى.

الكثير من المصادر التاريخية تسميه باسم أمه.. بلال بن حمامة، وليس باسم الأب كما هو المعتاد.. وهذا يعني أن هذا الاسم كان شائعاً حتى مع احتمالية وجود الاسم الآخر: بلال بن رباح..

وكانت التسمية باسم الأم تتضمن نوعاً من التحقير.. تتضمن إشارة ولو خفية إلى ما كان يعد عند العرب تحقيراً..

لا بد أنه عانى من ذلك.

❑ ❑ ❑

هكذا ولد بلال، وهكذا ولد الكثير من العبيد، تلبية لمطالب أصحاب المال في الحصول على المزيد من (رأس المال)، وكان العبيد، باعتبارهم يمثلون (قوة عاملة)، جزءاً من رأس المال الذي لن يشبع أصحابه من زيادته.

ولد في العبودية، لم يعرف غيرها.

وكان من المفترض به أن يبقى كذلك.

لكن ما حدث لاحقاً كان مختلفاً.

❑ ❑ ❑

لا نعرف الكثير عن حمامة، أم بلال.

لا نعرف إن كانت قد بيعت كـ (أَمَة) أم أنها ولدت كذلك كما ولد بلال.

لا نعرف إن كانت قد أُسرت وهي طفلة نتيجة قطع طريق أو بيعت للنخاسة لأن أسرتها مرت بضائقة.

لا نعرف إن كانت تذكر حياة سابقة، حياة ما قبل العبودية، وأنها ضخت في بلال شيئاً من ذكرياتها، لكن لا بد أن تكون هناك لكل عبد، ذاكرة يتناقلها من أسلاف له، مرروا له ذاكرة عندما كانوا يتنفسون الهواء فكان يأتي مختلفاً تماماً..

❑ ❑ ❑

بلال الحبشي

اسمي بلال.

أمي حمامة، وأبي رباح.

وأنا عبد لعشيرة في مكة، هي عشيرة بني جمح.

غالباً أعمل عند أحد ساداتها: أمية بن خلف.

يسمونني (بلال بن حمامة). ذلك أني لم ألتق بوالدي أبداً.

تزوج أمي فقط كي ينجبني بأمر سيدهما. ولكنه كان يعمل في مكان بعيد. فانقطعت أخباره عن أمي.

وهكذا فقد ولدت كي أكون عبداً.

لم أولد عبداً فقط.

بل لقد ولدت كي أكون عبداً.. زوجوا أمي بأبي كي تنجب عبداً يضاف إلى ثروة سيدهما.

منذ أن وعيت، وأنا أشعر أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً.

نعم لم أعرف غير أني عبد.

لكني كنت أشعر أن هذا لا يمكن أن يكون صواباً. شيء ما في داخلي كان يقول لي إن الأمر كله خطأ.

ربما أمي، قالت لي شيئاً في طفولتي عن وقت كانت هي فيه حرة في مكان بعيد.. وقت بعيد تذكر فيه طفولة كان يمكن لها فيها أن تفعل ما تشاء، تركض في الحقول البعيدة وتطير خلف الفراشات..

ربما لأنها قالتْ لي ذات مرة، إن اسمها لم يكن حمامة، وإنها اختارت هذا الاسم كي ينادوها به لأنها تريد أن تطير بعيداً، حرة مثل الحمام..

ربما من يومها، اكتشفت أنه يمكن أن يكون لي جناحان..

وأنه يمكنني أن أحلق بعيداً عن كل هذا..

❑ ❑ ❑

لاتيشا

لديَّ شعور غريب تجاه الرسائل المتبادلة بين أمجد وبلال..

هل بلال يرغب فعلاً في معرفة المزيد عن اسم بلال، هل يعتبر أن اسمه هذا هو كل ما يربطه بوالده، ولذلك فهو يبحث عنه.. هل يبحث عن ظل أب؟

هل أمجد هو (ظل أب) بالنسبة له، ولو بشكل افتراضي..

حاولت دوماً أن أكون الأم والأب لبلال، كما تحاول كل الأمهات العازبات، وفشلت، كما يفشلن جميعاً على الأكثر، تعرفت على أكثر من شخص بعد رحيل سعيد، كان هناك منهم من يريد أكثر من مجرد علاقة عابرة، لكني كنت أنظر لهم دوماً بعين بلال، هل يمكن أن يكون هذا الرجل أباً، أو حتى ظلاً لأب لبلال؟

فشلوا جميعاً في الاختبار. وكان عليَّ أن أكون الأم والأب، أنا التي تذهب إلى تدريبات البيسبول، وأنا التي تريه كيف تكون الضربة الأكثر دقة، وأنا التي تتحدث معه عن كأس السوبر بول، وأنا التي تعلمه كيف يقود الدراجة وكيف يسبح، وكل ما كان يجب أن يتعلمه من رجل.

كنت أعتقد أن هذا هو الطبيعي.. أن دور المرأة الخارقة الذي أقوم به، وتقوم به ربما كل الأمهات العازبات، وحتى غير العازبات أحياناً! هو الوضع الطبيعي..

كنت أحاول بذل كل ما أستطيع كي تكون مراهقة بلال آمنة بأقل قدر ممكن من الخسائر.

لم أكن أتخيل قط أني يمكن أن أخسر بلالاً قبل المراهقة!

أهرب من هذا الخيال دوماً، إلى نسب النجـــاة، إلى غوغـل لأجـد فيه

أبحاثاً جديدة بنسب جديدة ربما، إلى أبحاث جديدة بعلاجات جديدة، إلى قصص الناجين من السرطان.. أحاول أن أتخيل أني سأقف يوماً لأقص لأمهات أطفال السرطان كيف تمكنا أنا وبلال من عبور العاصفة.

لكنه مرة أخرى دور المرأة الخارقة الذي يبدو أن عليَّ أن ألعبه.

ثمة لحظات صعبة، كنت أتمنى لو أن (سعيد) كان هنا. لو أن ثمة رجلاً يساعدني في هذا العبء.

لكني أدرك جيداً أن (سعيد) لو جاء، فإنه ستكون هناك لحظات أصعب بكثير..

وربما لم يكن حاضراً معي أصلاً في لحظات بلال الصعبة.

لدينا أوهام عن قوة الرجل..

لو كان قوياً فعلاً، لاختاره الله للإنجاب!

لكني لم أكن أحتاج إلى قوة رجل بالضبط.

كنت أحتاج إلى الرفقة في هذا الدرب. الرفقة على الأقل. ووبي وديان وماغي في المدرسة كانوا أكثر من متعاونين، كل الأيام التي أخذتها كإجازة تم تغطيتها من قبلهن قبل أن يحدث أي تذمر من السيد ويد، الذي لم يقتنع بي يوماً منذ دخولي المدرسة.

نعم كانوا أصدقاء رائعين، ومشاعرهم كانت صادقة، لكني أحتاج إلى الرفقة.

تراه (بلال) هو من يحتاج إلى ظل أب حقاً؟ أم أني أنا التي أحتاج إلى ظل رجل؟

المرأة الخارقة التي تحتاج ظل رجل.

□ □ □

نتائج بلال المختبرية لا تشير إلى وجود أي تحسن.

لم تقل لي الممرضة (بيتّي) بالضبط.. فقط قالت وهي تبتسم بتعاطف إن بلالاً (صبي شجاع) وإنه (يكافح بقوة).

وكنت أعرف ماذا تعنيه هذه الكلمة، وصرت أفهم هذه الابتسامة أيضاً. ربما كان الأطباء وكادر التمريض قد تعودوا هذه الابتسامة وأتقنوها بالتدريج، لكني واثقة أن كلاً منهم قد بذل جهداً كبيراً في البداية كي يفعل ذلك.. كما صرت أعرف تماماً الأرقام التي يفترض أن تشير إلى تحسن أو تدهور حالته.. كل مرة كانت تظهر نتائج التحليلات، كنت أقارن بينها وبين وضع بلال النفسي العام فأجد تطابقاً، بلال يتدهور..

لكن هذه المرة، كان بلال يبدو لي بشكل عام أنه أفضل، رغم أن نتائجه المخبرية كانت سيئة.

لم أكن أعرف بعد أن ذلك هو أثر بلال الحبشي عليه.

❐ ❐ ❐

قالت لي ماغي: جاتسبي العظيم انتصر على موبي ديك.. كنت حائرة في الرواية التي سأختارها لطلابي هذه السنة، بين جاتسبي وموبي، لكن جاتسبي استطاع أن ينتصر على الحوت الأبيض. ربما لأني لا أريد أن أتذكر أني أشبه موبي ديك!

ثم قالت: ولكن لو ترك الأمر لي، لاخترت كتابي المفضل..

قلت لها بسرعة: كتاب بيتي كروكر للطبخ؟

ردت: نعم، وبطبعة الكندل، ١٦٠٠ صفحة!

كانت ماغي بدينة جداً، تأقلمت مع بدانتها على نحو مريح، إلا من فترات عابرة جداً تقرر فيها أنها ستلتزم بحمية جديدة، ثم لا تلبث أن تقرر أن الأمر لا يستحق ذلك، وأن الطعام أشهى من القوام الجميل. كانت أيضاً، مرحة، كأغلب البدينين. وكانت ترمي النكات على بدانتها قبل كل شيء.

عدت إلى جاتسبي وسألتها: جاتسبي للصف التاسع؟ أليس هذا صعباً عليهم.. غالباً يكون هذا للعاشر فما فوق.

قالت: صحيح، سأطلب منهم أولاً مشاهدة الفيلمين اللذين اقتبسا عـــن الرواية، وواحد منهما حديث كما تعلمين ومن بطولة كابريو وستكون الفتيات سعيدات بهذا!.. وسأطلب منهما المقارنة بين الفيلمين، ونختار بعض الفصول للقراءة.. الرواية تتحدث عن الحلم الأمريكي، من المهم جداً تثبيت هذا في نفوس النشء.

ثم سألتني: هل أنت حائرة بين أي مجموعة من الروايات أم أنكِ لم تفكري بعد؟

قلت: (جذور).. سأختار (جذور).. لأليكس هيلي.

قالت متفاجئة: جذور؟! ما الذي جعلك تفكرين بها.. إنها بالتأكيد صعبة بالنسبة للصف العاشر.

قلت: لا أعرف. تذكرتها فجأة.. ونعم هي صعبة، لكنها تحولت إلى مسلسل تلفزيوني، سأختار منها مقاطع ونناقشها مع الأولاد.

❑ ❑ ❑

فعلاً تذكرتها فجأة. رغم أنها كانت من أحب الكتب إلى قلبي وأنا لا أزال صغيرة، أكبر قليلاً من عمر طلابي الآن.

عندما كتب أمجد في رسالته عن التعذيب الذي تعرض له بلال، فقط لكي يقول إنه لا يزال يعبد الأصنام، وتلك الصخرة التي قارنها أمجد بسيزيف، شعرت أنني مررت على شيء كهذا من قبل. شعرت أن المشهد موجود في ذاكرتي، كما لو أني حضرته في حياة سابقة وأني كنت من الذين يتفرجون على بلال بينما هو يعذب، أو كما لو أني كنت قد شاهدته في فيلم قديم بقي محفوراً في ذاكرتي.

كان هناك شيء مألوف في الأمر.

ربما لأن التعذيب نفسه أمر معتاد.. لكن كان هناك شيء أكثر من هذا في ما أحسسته وقتها.

وبينما كانت ماغي تتحدث عن جاتسبي العظيم وموبي ديك، تذكرت.

لقد كان ذلك المشهد في (جذور). ليس في الكتاب بالضبط . ولكن في المسلسل الذي اقتبس من الكتاب.

كان كونتا كنتي، الفتى الأسود الذي تم اختطافه من أفريقيا وتم جلبه إلى أمريكا وبيعه كعبد، يرفض أن يرد على اسمه الجديد الذي اختاره له سيده الأبيض.. وكان السيد قد اختار له اسم (توبي)، كما لو كان كلباً تشتريه أو تجده ضالاً فتجعل له اسماً تختاره أنت، وكان كونتا كنتي يتجاهل أي نداء له بهذا الاسم.

تم ربطه في الحبال وضربه بالسياط بشدة، أمام كل العبيد الآخرين..

ما هو اسمك؟

كان يرد: كونتا كنتي.

فتنهال عليه سياط الرجل الأبيض: ما هو اسمك؟

فيرد بصوت لا يكاد يسمع: كونتا كنتي.

كونتا كنتي.. كونتا كنتي

كان على وشك الموت..

عندما جاءه السؤال: ما هو اسمك؟

فقال: توبي.

هنا فقط انتصر الرجل الأبيض. وطلب منه أن يرفع صوته، ليسمع كل (العبيد).

بلال لم يستسلم. بقي مصراً على إله واحد.

لكن موقف كل منهما كان متشابهاً في جوهره.

كونتا كنتي كان مصراً على هويته، على كل ما بقي له من قريته البعيدة في غامبيا التي خطفه منها تجار الرقيق.. وبلال كان مصراً على الإله الوحد، الذي تمكن من خلال الإيمان به أن يحدد هويته وأن يجد لنفسه مكاناً بين البشر.

بطريقة ما، كانا متشابهين جداً، ولكن كل واحد كان في طريق مختلف، واحد منهما في طريقه إلى الحرية، والآخر في طريقه إلى العبودية، واحد منهما تمسك بهويته، عبر إيمان بإله واحد.. والآخر اضطر إلى التنازل عن هويته، من أجل أن يبقى على قيد الحياة.. لكنها أصبحت حياة عبيد.

بلال وكونتا كنتي، بدوا لي متشابهين كوجه في المرآة، واحد في لحظة انتصار، والآخر في لحظة انكسار.. هل كان الأمر نصراً عند بلال لأنه ربطه بإله أكبر من مجرد اسم شخصي، بينما بقي الأمر عند كونتا كنتي شخصياً؟ هل كانت هناك قوة أكبر تحمل بلالاً، لأن إيمانه بالإله جعل إيمانه بنفسه أقوى؟ بينما كان الأمر أضيق من هذا عند كونتا كنتي؟ أم أن الأمر أعقد من هذا، وأن ثمة ظروف تهيأت لبلال جعلته أقوى ويمتلك فرصة في النجاة، بينما كانت فرصة النجاة محدودة لكونتا كنتي؟

أياً كان. شعرت أن الأمر يستحق أن يقرأه الأولاد. شعرت أن الجميع يمتلكون (جذوراً) هنا في هذا المشهد، ليس الأسود مقابل الأبيض، ولا السيد مقابل العبد، لكن كان الأمر له علاقة بحقيقتنا الداخلية، بهويتنا، بتمسكنا بها، بإصرارنا عليها، مقابل السياط مختلفة الأشكال التي تحاول أن تجعلنا نتخلي عن هذه الهوية وتفرض هوية أخرى..

انتبهت على صوت ماغي وهي تقول: لا تسيئي فهمي يا لاتيشا، جذور رائعة وكل شيء، وقد بكيت عندما قرأتها في مراهقتي ولكنها تنتمي لمرحلة أخرى تماماً، ألا ترين أننا تجاوزناها الآن؟ لم يعد الأمر كما كان يوم صدرت الرواية..

سألتها: تجاوزنا ماذا؟

نظرت لي وهي تبتسم وتقول: تجاوزنا العنصرية.. الآن وقد صار لدينا رئيس من الأمريكيين الأفارقة.

تعرفين أن الكثيرين من البيض انتخبوه أيضاً (كنت أعرف فعلاً أنها انتخبته في المرتين.. بينما انتخبته أنا في المرة الأولى بحماس، ولم أذهب في المرة الثانية).

كانت تقصد: في النهاية، كونتا كنتي انتصر بعد أن صار توبي.

قلت لها: من قال إني اخترت الرواية لأنها تتحدث عن العنصرية بهذا المعنى؟ العبودية لها أشكال مختلفة، وكذلك القيود، وكذلك الجذور.. لاعلاقة للون البشرة بالأمر.. الرواية فرصة للأولاد لكي يتعرفوا على هذه المعاني.

قالت ماغي: هذا عميق فعلاً. الأولاد سيستفيدون فعلاً من هذه المعاني..

ثم أكملت: لو تمكنت من توصيلها.

وغمزت بعينها.

بدت لي ماغي متشككة.

كنت أنا متشككة أيضاً.

❑ ❑ ❑

لا أزال أذكر خيبتي يوم فتحت هديتي يوم الميلاد، كانت علبة كبيرة مغلفة علقت عليها آمالاً كبيرة، فتحتها فوجدت سبعة أشرطة فيديو لمسلسل جذور مع نسخة من الكتاب، كلها مستعملة، حصل عليها والدي بتخفيض كبير.

كنت في العاشرة من عمري، وكان والدي مفلساً كأغلب أيامه، ورغم أنه بالكاد كان يقرأ ويكتب، إلا أنه كان يتأمل فيّ خيراً. كان يقول إنه يمكنني أن أصبح كاتبة كبيرة أكتب كتباً رائجة تبيع ملايين النسخ مثل جذور..

نمت يومها وأنا أبكي، كنت أحلم بدمى لفريق السبايزغيرلز، لم يكن يمكنك أن تكون معجباً بالفريق وقتها ما لم تملك تلك الدمى.. أو على الأقل واحدة منها.

لم أحاول قراءة الكتاب أو مشاهدة المسلسل، لم أقترب من الكتاب أصلاً لسنين. بقي أمامي شاهداً على ليلة ميلاد حزينة، وفقر والدي، وأحلامه المبالغ بها التي لن أتمكن يوماً من تحقيقها.

وفي اليوم الذي حكم فيه على والدي بالسجن، وكنت في السابعة عشرة، بدأت بقراءة الرواية.

وأدركت أن والدي أهداني شيئاً أعمق بكثير من دمى فريق السبايس غيرلز، الذي كان قد خبا نجمه في هذه الفترة.

أثرت فيّ الرواية بعمق، كنت أشعر أني مثل كونتا كنتي، وجدت نفسي عالقة في حي فقير، في الغيتو في سانت لويس، وبينما تتابع الرواية أحفاد كونتا كنتي وتطورهم ثم وصولهم إلى مراتب عليا، مثل الكاتب نفسه، فإني كنت أتمنى لو أتمكن من أن أختصر الطريق كله، طريق الجد والأحفاد، أن أكون أنا كونتا كنتي وأنا من أصل إلى حريتي وإلى مكان أفضل مما أنا فيه.

رأيت في (جذور) حبالاً يمكن أن تخرجني من كالارا أفينيو.

أحببت الرواية، وشاهدت المسلسل بعدها..

لكني لم أتوقع أني سأدرسها يوماً لطلابي..

وبالتأكيد لم أتوقع أن يكون ذلك بسبب بلال!

❑ ❑ ❑

دخلت الصف وأنا أفكر: هل كان الإيمان هو الذي جعل بلالاً الحبشي، أقوى من كونتا كنتي؟ لكن كونتا كنتي كان مؤمناً أيضاً.

ما السر في انتصار بلال الحبشي؟ هل هي الظروف المحيطة به والتي جعلت مقاومته مجدية، بينما كان الأمر أكبر من كونتا كنتي بكثير؟

إلى أي منهما كان بلالي أقرب؟

إلى الحبشي - الذي سماه أبوه تيمناً به؟

أم إلى كونتا كنتي؟

❑ ❑ ❑

From: bilal2001ny@hotmail.com

To: Amjadhelwani@bilalmovie.org

subject: لماذا آمن؟

عزيزي السيد أمجد..

هل كان بلال يعرف أنه سينال حريته عندما آمن بالإله الواحد؟

أعني: هل كانت هناك تعليمات أو ما شابه تقول إن على العبيد أن يحرروا، وكان هذا سبباً في إيمانه؟

أحاول تخيل الربط بين عبوديته وإيمانه..

لماذا آمن؟

□ □ □

أمجد

هذا الفتى ذكي. سيورطني فيما لا أريد الخوض فيه.

كيف سأعرف لِمَ آمن بلال.. لِمَ يؤمن أي إنسان أصلاً؟! هذا ما لم أفهمه تماماً. فكيف سأعرف لِمَ آمن بلال في القرن السادس الميلادي. قرن الخرافات والدجل، وأنا لا أفهم لِمَ لا يزال البشر يؤمنون حتى اليوم، بعد خمسة عشر قرناً، في عصر العلم والحقائق.

أفهم أنه ربما كانت هناك بعض الحلقات المفقودة في هذا الكون، الأشياء الغامضة، التي يزعج بقاؤها هكذا بعض الناس، فيميلون إلى الاعتقاد بوجود قوى خارقة، في مكان ما فيما وراء الطبيعة، مكان غير موجود إلا في أذهانهم، ولكن هذا الافتراض يشعر الناس بالراحة، لذلك يركنون إليه.

أفهم أن الأمر بدأ هكذا، كل الأديان بدأت من هذه الحاجة، حاجة لتفسير ما يحدث من حول الإنسان من ظواهر كان عاجزاً عن فهمها.. الطوفان والزلزال والرعد والصاعقة كلها كانت أموراً غامضة، لذا كان لا بد أن يظهر لكل منها إله يمثلها ويحل لغزها..

ثم، بالتدريج، تناقصت الآلهة واحداً واحداً، فكلما تقدم تفكير الإنسان قام بالاستغناء عن بعض الآلهة التي لم يعد وجودها ضرورياً، بالتدريج وصلنا إلى إله واحد فقط، آخر واحد بقي في الملعب.. وكان يفترض أن تكون هناك حركة واحدة أخيرة، لقد بقي الملك وحده على الرقعة، لا مفر، كش ملك.

كان من المفترض أن يذهب هذا الإله أيضاً..

لكنه لا يزال صامداً، وعلى نحو صادم.. لا يزال هناك الملايين ممن يعتقدون بوجوده.

لم يكن والداي مؤمنين أبداً. على الأقل ليس على نحو تقليدي.

لم يعلنا إلحادهما أمامي لكن لم يتحدثا عن الإيمان أيضاً، كان والدي أكاديمياً يؤمن بالعلم، وقضى عمره في المختبرات. ومن الواضح أنه لم يجد الله في أنبوب مخبري، ولا أعرف إن كان قد بحث عنه أصلاً هناك. كانت والدتي قد درست القانون في بلدها، وأتت لتأخذ الماجستير فيه من الولايات المتحدة ثم تعود إلى بلدها، لكنها تعرفت على والدي هنا وأحبته وتزوجته ولم ترجع أبداً، أكملت الماجستير في الجامعة الأمريكية في واشنطن دي سي، لكنها لم تحصل على إجازة ممارسة المحاماة في نيويورك، عملت بدلاً عن ذلك في المحاكم طيلة حياتها، وأعتقد أنها كانت تعرف الكثير عن الظلم الموجود في العالم على نحو لا يمكنها أن تؤمن بإله يدعي المؤمنون به، أنه عادل.

لم تقل هذا قط، لكن هذا ما حدسته فقط.

لم تكن هناك أي ممارسة لأي دين في بيتنا، وكان والداي يأكلان لحم الخنزير ويشربان الخمر بشكل اعتيادي، كنت في الثامنة من عمري عندما عرفت أن المسلمين لا يشربون الخمر ولا يأكلون الخنزير، وحتى اللحم الذي يأكلونه يجب أن يكون مذبوحاً بطريقة معينة مثل الكوشير بالضبط. عرفت ذلك عندما استضاف والدي بعض أصدقائه من العرب والمسلمين في مناسبة ما، بدا لي ذلك غير منطقي.. وقالت لي والدتي إن الأمر (ثقافي فحسب)، وإنه يشبه (عدم أكل الهندوس للحم البقر). وانتهى الأمر عند هذه النقطة.

كنا نحتفل بعيد الميلاد دون ذهاب إلى الكنيسة، فقط احتفال كجزء من ثقافة ولدت ضمنها ونشأت عليها، كذلك كنا نحتفل بعيد الشكر، أمريكيين كنا تماماً. لا أعرف عن أعياد المسلمين غير أن والدي ووالدتي كانا يتصلان بالكثير من الأقارب ويتلقيان بعض بطاقات المعايدة. لا أذكر أن أياً منهما قد أخذ إجازة من عمله أو قام باحتفال معين في البيت. كان ذلك جزءاً من ماضٍ يتبادلان معه بعض المجاملات فحسب، لا أكثر ولا أقل.

كان هناك رمز ديني واحد في بيتنا. ولم أعتبره رمزاً دينياً قط لسنوات.

كان هناك الكتاب المقدس للمسلمين، القرآن، وكان في النهاية مجرد كتاب، مثل أصل الأنواع لداروين الموجود معه في نفس المكتبة.

لكنه كان موضوعاً بطريقة مختلفة.

كان في الوسط بالضبط، وموضوعاً بطريقة تجعل غلافه المزخرف في الواجهة، على العكس من بقية الكتب التي لا نرى غير الجزء الجانبي من غلافها.

(شيء ثقافي فحسب). هكذا فكرت، وهكذا فسرت. لا أعرف إن كانت والدتي قد قالت هذا فعلاً أم أني قست الأمر على اللحم الذي لا يأكله بقية المسلمين. فكرت أن وضع الكتاب المقدس على هذا النحو (المختلف) هو الجزء المتبقي من الثقافة التي تجعل بقية المسلمين لا يشربون الخمر أو لا يأكلون الخنزير.

في نفس المكتبة التي وضع فيها الكتاب المقدس على هذا النحو، كان هناك أيضاً، في الرف الأول منها بعض أواني النبيذ التي يفترض أنها محرمة حسب هذا الكتاب في الأعلى.

علق أحد الزوار ممن لا يأكلون إلا اللحم المذبوح بطريقة معينة على وجود القرآن وأواني الخمر في نفس المكان.

ابتسم والداي محرجين.

(أمر ثقافي فحسب).

لذلك كان من الغريب جداً أن أكتشف بعد ذلك بسنوات طويلة أن والدي أخذ يذهب لصلاة الجمعة في المسجد.

اكتشفت ذلك بالصدفة. كنت أمر في شارع فولتون في بروكلين وشاهدته يخرج مع الجموع من مسجد التقوى، لا يمكن أن يكون ذلك صدفة، كان يعبر الشارع وقد وضع طاقية بيضاء على رأسه.

لم أكن مصدوماً فقط بذهابه إلى المسجد.

كنت مصدوماً أيضاً بحقيقة أنه كان يشبه تلك الجموع الخارجة مـ

المسجد. بسحنته، بلون بشرته، بملامح وجهه.

لم أكن قد انتبهت إلى ذلك من قبل.

تأكدت من أنه كان هو وليس أحداً يشبهه، كما حاولت أن أقنع نفسي.

سألت أمي فقالت لي بحدة: نعم، يذهب لصلاة الجمعة، ماذا تريد منه؟

لم يكن هذا أمراً ثقافياً فحسب. فكرت.. لا بد أنها أزمة منتصف عمر متأخرة..

أو أزمة آخر العمر، ربما.

▢ ▢ ▢

كنا في الفراش، أنا وكريستين وكوبر، الذي تصر على أن ينام معنا غير آبهة باعتراضاتي.

أشعلت كريستين سيجارتها المعتادة، عندما سألتها وأنا أنظر إلى السقف: لماذا لا يزال الناس يؤمنون بالله؟

أخذت كريستين نفساً عميقاً من سيجارتها، سمعت صوته فقط، إذ لم أحول عيني عن السقف.

قالت: لا يزال الناس يؤمنون بالله لأنهم لا يزالون يحتاجون إلى ذلك.

قالت ذلك ونفخت دخان السيجارة. رأيت كرات الدخان المتداخلة تغطي رؤيتي أمام السقف.

ماذا تقصدين بحاجتهم إلى ذلك؟ لماذا تكون هناك حاجة إلى ذلك؟ لم نعد نسكن في الكهوف يا كريستين، قلت لها.

نفخت كرات أخرى، سبحت الكرات أمامي وتداخلت مرة أخرى قبل أن تتلاشى، وقالت: الأمر أعقد من هذا بكثير..

بدا تداخل كرات الدخان معبراً عن التداخل الذي تقصده.

بالنسبة لي كان الموضوع كله، موضوع الإيمان بالله، مثل كرات دخان كريستين، سرعان ما تزول.. لسبب ما لم يكن الإيمان يزول.

قلت لها: أعقد لأي درجة؟ الحاجة إلى عكاز نفسي؟ هذا ليس معقداً جداً..

نهضت من السرير وهي تقول: لا.. يبدو الأمر أعقد من هذا، نعم العكاز النفسي الذي يوفر الأمان واضح، ولكنه يبدو أنه مثل قمة جبل الجليد، الأمر أعقد مما تتصورونه أنتم (الملاحدة الجدد). قالتها بتهكم.

(ماذا تقصدين؟) قلت لها باستغراب من لهجتها.

قالت: أنت تعرف أني لست متدينة أو مؤمنة حتى، لكن يبدو أن العقل البشري مبرمج على الإيمان بشيء خارق للطبيعة، أو لنقل إن ثمة (تحيزات) واضحة داخل العمليات الإدراكية تسهل الاتجاه إلى الإيمان بالله عموماً.. كثير من الدراسات الآن تؤكد هذا.

قلت لها: ألا يمكن أن يكون ذلك ناتجاً من نتائج عملية التطور؟ أي أن البشر احتاجوا إلى هذا الشعور أثناء عملية تطورهم من الأسلاف، وبينما كانوا يعيشون في الغابات والكهوف، احتاجوا إلى العكاز النفسي؟

ردت بسرعة: نعم ربما، ولعلهم لا يزالون بحاجة إلى هذا ما دام هذا الشعور قائماً.. ثم، يا مستر داوكنز، ألا ترى أن نظرية التطور متورطة في الإيمان بالله؟ أين يجعلها هذا بالضبط؟ ألا يكون الإيمان هنا في هذه الحالة حتمياً مثل أيدينا وأرجلنا.. ما دام قد نتج عن عملية التطور كما نتجت أعضاؤنا عنها.

كانت تشير إلى ريتشارد داوكنز، المفكر الملحد الشهير الذي يتخذ من نظرية التطور ديناً يؤمن به، وكنت قد وضعت كتبه كما لو كانت كتابي المقدس الشخصي. كان ملحداً شرساً، وكنت أعلن دوماً أني أتبنى آراءه.. كان مثل النبي بالنسبة للكثير من الملحدين. كنت أعتبر نفسي منهم.

دخلت كريستين الحمام. سمعت صوت رشاش الماء ينساب. سمعتها تقول لي بعد قليل بصوت مرتفع: أنت تعرف طبعاً أنكم لا تقدمون أجوبة حقاً، وأن أجوبة الدين قد تكون غير مقنعة لي ولك، لكنه على الأقل، يقدم أجوبة.. وهذا يمثل نقطة له.

سألتها: أجوبة لأي شيء بالضبط؟

مدت رأسها من الحمام وهي لا تزال تجفف شعرها: بربك! لا تقل لي إنك لا تعرف ماذا أقصد.. سؤال من أين جئنا نحن؟ من أين بدأ كل شيء؟ من أين جاء البشر؟!

قلت لها كمن تعود على السؤال: بدأنا من الانفجار العظيم في اللحظة التي بدأ فيها الزمن، انبثقت المادة من هذا الانفجار، حدثت تفاعلات كثيرة، ثم تكفل التطور والارتقاء الطبيعي بالباقي.

سمعت صوت حوض التواليت وهو يفرغ.

ثم قالت: تعرف أنك لم تقل شيئاً بتاتاً. جوابك لا يرد على شيء.

- لماذا لا يرد على شيء؟ بدأنا من الانفجار العظيم.

- حسناً، وماذا كان قبل هذا؟ هذه نقطة، ماذا كان قبلها؟.. مَنْ فعل الانفجار.. الانفجارات لا تحدث تلقائياً!.. ربما كانت أجوبة الدين تبدو ساذجة، لكنه يقدم جواباً، أنتم لا تقدمون شيئاً.. الدين ربما يقدم حكاية ساذجة، مثل فيلم رسوم متحركة لوالت ديزني، لكن الحكاية في النهاية مترابطة، أنتم لا تقدمون شيئاً مترابطاً، تقدمون مجموعة مشاهد صامتة لا مترابطة.. ترفضون حتى رؤية السؤال الحقيقي: من بدأ الأمر؟

نبح كوبر كما لو كان يؤيدها.

ثم أطفأت الضوء بجانبها.

ويبدو أنها نامت.

أما أنا فقد بقيت اتقلب.

من بدأ الأمر؟

❑ ❑ ❑

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: بلال يؤمن

لا توجد هناك قصة لإيمان بلال.

الكثير ممن دخلوا الإيمان لأول مرة في ذلك العهد كانت لكل منهم قصة في إيمانهم..

لا توجد قصة كهذه لبلال.

ليس لأن إيمانه لم يكن مهماً.

بل لأنه كان خالياً من الدراما إن صح التعبير..

كان إيماناً فورياً.. بلا صراع داخلي، كذلك الصراع الذي جعل الآخرين يمتلكون قصصهم، قصص خروجهم من معتقداتهم القديمة، ودخولهم في الإيمان الجديد..

أما الأمر مع بلال فقد كان أبسط بكثير..

كما لو أن بلالاً كان ينتظر هذه اللحظة.

على الأقل هذا ما تنقله لنا وثيقة تاريخية عن هذا..

"قال الوضين بن عطاء إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبا بكر اعتزلا في غار، فبينما هما كذلك أن مر بهما بلال وهو في غنم عبد الله بن جدعان، وبلال مولد من مولدي مكة. قال: وكان لعبد الله بن جدعان بمكة مائة مملوك مولد، فلما بعث الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أمر بهم فأخرجوا من مكة إلا بلالاً يرعى عليه غنمه تلك، فأطلع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأسه من ذلك الغار، فقال: يا راعي هل من لبن؟ فقال بلال: ما لي إلا شاة منها قوتي، فإن شئتما آثرتكما بلبنها اليوم، ثم قال: يا غلام هل لك في الإسلام، فأتى رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) فأسلم وقال: اكتم إسلامك ففعل وانصرف بغنمه..."

حدث الأمر بهذه البساطة.

لكن لا يوجد شيء يحدث بهذه البساطة.

ربما يبدو الأمر بهذه البساطة، مجرد أن يعرض عليه الإيمان فيقبل، لكنه ربما يكون أعمق من ذلك بكثير..

هناك أولاً شيء لا يمكن تجاوز احتماليته هنا، وهو أن أم بلال (حمامة) كانت من الحبشة، والحبشة كان أغلب سكانها يدينون بالمسيحية، لا نعرف متى استعبدت حمامة ولا ظروف استعبادها، والعبيد يجبرون على تغيير دينهم عندما يتم استعبادهم، لكن من الممكن أن قلب حمامة بقي معلقاً بعقيدة يؤمن فيها المؤمنون بإله واحد، وليس بأصنام وتماثيل بعدد أيام السنة كما كان العرب يفعلون وقتها.. وربما كانت قد نقلت شيئاً من هذا إلى بلال.. ربما كانت قد دست في ذهنه شيئاً عن إله واحد حقيقي مقابل آلهة كثيرة مزيفة..

ربما كان قد اكتشف بفطرته، ببديهته، سخافة الأوثان..

ربما كونه عبداً جعله يتحسس للظلم الموجود في هذا النظام الذي يقدس الأوثان.. لو كانت آلهتهم حقيقة لما كانوا هم بهذا السوء..

لو كانت الأوثان جيدة لما رضيت بوجود عبيد..

شيء ما في بلال، جعله متقبلاً بسرعة لفكرة التخلص من كل تلك الأوثان، والإيمان بإله واحد فقط..

❑ ❑ ❑

هل كان الإيمان الجديد يتضمن التخلص من نظام العبودية؟

لا.

كانت تلك مرحلة مبكرة جداً من هذا الدين الجديد ومن تعليماته، كل ما كان موجوداً من الكتاب المقدس للمسلمين في تلك الفترة كان لا يتعدى الآيات فحسب، ولم يكن هناك ما يشير إلى إلغاء الرق.

لماذا يقبل بلال بنظام جديد، بدين جديد، لا يزال يبقي عليه كعبد؟

لكن هل كان سيؤمن حقاً بالدين الجديد لو أن هذا الدين قد عرض عليه الحرية؟

وقتها، سيكون إيمانه من أجل الحرية فحسب.. من أجل هذه المساحة الشخصية فحسب..

وقتها كان كل العبيد سيؤمنون بالدين الجديد، حتى لو لم يكونوا قد فهموا فكرة الدين الجديد، التوحيد.. كانوا سيتخلصون من الأوثان والأصنام فقط من أجل الحصول على حريتهم.. وربما ستعود الوثنية من جديد بعد مدة بسيطة بشكل جديد..

ووقتها كان الأسياد سيتخذون موقفاً من الدين الجديد فقط بسبب دفاعهم عن ممتلكاتهم من العبيد.. وليس بسبب موقفهم من فكرة التوحيد..

وكان جوهر الدين الجديد هو الإيمان بإله واحد.. وبالنسبة للعرب كان ذلك تحدياً كبيراً، لقد كانوا قبائل متفرقة، لكل قبيلة وثنها المفضل وبعض الأوثان المفضلة الأخرى المساعدة، بالإضافة إلى أوثان مشتركة بين بعض هذه القبائل، وكانت كلها تصطف في الكعبة، البيت المقدس الذي كانت كل قبائل العرب تحج إليه، وكان عدد هذه الأوثان يصل إلى الثلاثمائة وستين صنماً، متفاوتة في الأهمية..

التخلص من تعدد الأوثان في ذهنية العرب لم يكن أمراً يسيراً، وكان إدخال موضوع تحرير العبيد مبكراً في الموضوع أمراً معقداً للوضع وربما معرقلاً له..

لذا، لم يكن الدين الجديد، على الأقل في تلك البدايات المبكرة، قد تعرض لأمر العبيد..

رغم ذلك آمن بلال..

□ □ □

لكن شيئاً ما، في الدين الجديد، كان واضحاً منذ البداية..

ولا بد أنه لفت انتباه بلال.

كان الدين الجديد قد جعل من الجميع عبيداً..

الكل!.. كل أشراف مكة، كل السادة والأغنياء والتجار الكبار.. الكل.

الكل، حتى نبي هذا الدين الجديد، لقد صار عبداً هو أيضاً حسب التعليمات التي جاء بها..

كيف؟

إنها العبودية بمعنى جديد، هذه المرة ستكون هي طبيعة العلاقة مع الإله الواحد..

الكل سيتساوون في علاقتهم مع الإله الواحد، سيكونون عبيداً له..

وعندما يتساوى السيد والعبد في علاقتهم مع الإله الذي يعبدون، ويكونون له كعبيد..

فإن العلاقة بينهما، ستتغير لا بد.

لا بد أن شيئاً كهذا قد مر في بال بلال.

❑ ❑ ❑

قرار الإيمان جاء إذن على نحو بدا أنه تلقائي..

ولكنه كان أعمق مما يبدو للوهلة الأولى.

رغم ذلك، فإنه من المستبعد جداً أن بلالاً، في لحظة قبوله الإيمان، والتي تعني- بالنسبة للمسلمين- لحظة تلفظه بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله)، كان يعرف في أي منعطف وضع نفسه.

من المستبعد أن بلالاً قد عرف في تلك اللحظة، أن التاريخ سيتغير بهذا الدين الجديد..

ومن المستبعد أيضاً أنه فهم، في هذه اللحظة المبكرة، أنه سيساهم في هذا التغيير..

وأنه سيدخل التاريخ، من باب موهبته..

❐ ❐ ❐

كان بلال يمتلك صوتاً جميلاً.

وكان هذا حتماً يجعل سيده أمية، يطلب منه أن يغني له، ويغني لمن معه من السادة، بالإضافة إلى وظائف العبد الأخرى من الرعي وأعمال المنزل العادية.

لا نعرف شيئا عن الأغاني التي كان بلال يغنيها.. للأسف لم يبق لنا أرشيف لها..

لكننا نعرف أنه كان يمتلك صوتاً جميلاً يتحسس الكلمات وأداءها..

كانت تلك موهبة امتلكها بلال في حنجرته وإحساسه، ولكنه على الأغلب لم يكن يدرك أنه يوم آمن، يوم قال شهادته التي تلغي الأوثان، أن موهبته تلك سرعان ما ستجعله من الأوائل في شيء ما مهم..

ومن ثم ستدخله التاريخ..

❐ ❐ ❐

عن عبد الله قال: أول مَن أظهر إسلامَه سبعةٌ: رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأبو بكر، وعَمّار، وأمه سُمَيَّة، وصُهَيْب، وبلال، والمقداد.

أن تؤمن شيء.. ولكن أن تظهر هذا الإيمان شيء آخر.. خاصة عندما يكون هذا الإيمان مهدداً محارباً.. وخاصة عندما تكون عبداً مملوكاً عند سيد يؤمن بالأوثان يعتقد أنك لست مملوكاً له فحسب، بل يعتقد أنك قد ولدت بناء على رغبته في الحصول على المزيد من الربح..

كان يمكن لهذا الإيمان أن يبقى في قلب بلال تجنباً لكل ما يمكن أن يحدث له..

لكن شيئين، دفعا بلالاً، إلى أن يكون من هؤلاء السبعة الأوائل الذين أظهروا إيمانهم.. وأعلنوه جهاراً في وقت مبكر صعب..

كانت موهبة بلال في صوته، في أن يقول بصوت جميل ما يشعر به، في أن يظهر ذلك.

ثم جاء الإيمان، وكان عليه أن يكتمه في قلبه.

ربما كان ذلك أثقل عليه من الحجر الذي وضعوه على صدره لاحقاً في التعذيب. حنجرته المغلقة كانت تعذبه كما فعل الحجر.

كانت حباله الصوتية، تضربه كالسياط: قل! أظهر إيمانك! اخرج ما في قلبك عبر حنجرتك! قل لهم عن هذا الإيمان الذي سكن قلبك..

كان عليه أن يظهر إيمانه.. من يمتلك موهبة سيتحايل عليها قليلاً كي يمنعها من التعبير عما يؤمن به إذا كان هذا يتصادم مع المجتمع من حوله.. لكن هذا سيكون تعذيباً حقيقياً.. سيكون صعباً جداً أن يستمر في قمع موهبته، في إسكاتها..

الأمر مع أي موهبة: الرسم، الكتابة، الغناء..

من يمتلك موهبة، دون أن يملك إيماناً ما بقضية معينة، يسهل عليه أن يعبر عن أي شيء مما تريده الجماهير من حوله.. أن لا يخالف معتقداتها..

لكن من يمتلك موهبة ويمتلك معها قضية، سيكون من الصعب عليه أن لا يعبر عن تلك القضية بموهبته.. سيكون صراعاً داخلياً هائلاً لو أنه حاول إسكات موهبته، وسيكون الأمر أصعب بكثير لو أنه حاول تزييفها.. لو حاول إرغامها على القول بعكس ما يؤمن به..

وكان كتمان الإيمان تجربة صعبة بالنسبة لبلال، كما سيكون الأمر بالنسبة لأي صاحب قضية لو أنه حاول منع موهبته من التعبير.. من القول..

تخيل أنه كان أثناء فترة الكتمان، يضطر إلى تلبية أوامر سيده بالغنــاء،

فيغني عن وثن ما، أو عن أي أمر تافه مما يطرب له السكارى.. كانت حنجرته تتمرد عليه، تريد أن تسكته.. لعلها كانت تؤلمه، تخنقه.. لعله كان يحاول التعذر لسيده.. يقول صادقاً إن حنجرته ليست على ما يرام.. إنه عاجزعن الغناء.. لعل سيده صدقه مرات، وتوهم الكسل في مرات أخرى..

لكنه لم يتوقع ما تخبئه تلك الحنجرة..

لم يتوقع الصراع في داخلها..

كان إظهاره الإيمان، وهو سابع سبعة، في مكة، هو النتيجة النهائية لهذا الصراع..

□ □ □

لا نعرف كيف أظهر الإيمان.. هل ترنم بآيات من القرآن؟ هل قال الشهادة بصوت عال جميل؟ هل لحنها وهو يقولها؟ هل كان متحمساً؟ هل كان حزيناً؟ هل كان يقولها بفرح؟

لا نعرف شيئاً..

لا نعرف غير أنه أظهر الإيمان، سابع سبعة!

شيء آخر ربما يكون دفع بلالاً إلى هذا الإظهار المبكر..

كان العرب يحتقرون المغنين من الرجال.. يعتبرونهم رجالاً (مؤنثين).. قليلي الرجولة.. ضعفاء.. فالغناء كان للإناث فقط.. وكانت المرأة عند العرب في مرتبة أعلى قليلا من العبيد، لكنهن في وضع مهين أيضاً..

كان العرب يستمتعون بغناء الرجال من العبيد حسني الصوت، ولكن يحتقرونهم.. يعتبرونهم أداة تسلية لا أكثر.. أداة تسلية قليلة الرجولة..

لم يكن بلال محتقراً لأنه عبد فحسب إذن.. ولا كان محتقراً لأنهم يعيرونه بأنه (ابن أمه) فقط..

كان محتقراً أيضاً بسبب موهبته..

وكان في قرارة نفسه، ككل صاحب موهبة، يعرف أن موهبته لا يجب أن تكون سبباً في احتقاره.. على العكس، كان يجب أن تكون سبباً في احترامه وتقديره..

كان ثمة تحد في داخله؟ يظنونه ضعيفاً، لأنه يغني؟ لأنه عبد يغني؟

حسناً.. سيثبت لهم هذا العبد المغني أنه أقوى منهم..

لن يخاف منهم..

سيتحداهم بإيمانه.. سيثبت لهم ذلك المغني الضعيف، أن موهبته عندما تتحد بإيمانه بقضية، تنتج إنساناً أصلب من كل الرجال..

لذلك أظهر إيمانه..

سابع سبعة، في مكة..

❐ ❐ ❐

سمعتهم يتحدثون عن دين جديد.

كنت أقضي بعض أعمال سيدي أمية، دخلت لأقول له إن قافلة الشام ستتأخر لأيام، حسب ما قال أحد القادمين في قافلة وصلت مكة قبل قليل، كان سيدي أمية قلقاً لتأخر القافلة عن موعد وصولها المتوقع، وأخبرني أن أبلغه فوراً لو عرفت أي شيء، وعندما وصلت قافلة أخرى، قادمة من الشام أيضاً، سألتهم فأخبرني أحدهم أنه رآهم في بصرى الشام، وأن دليل القافلة قد أصيب بالحمى وهم ينتظرون دليلاً جديداً أو ينتظرون تعافيه منها.

كان سيدي في دار الندوة، حيث يجتمع سادات مكة كل يوم تقريباً، يتحدثون في شؤون مكة وتجارتها وما يدور فيها، ويقضون أحياناً في نزاع بين رجل من هذه العشيرة مع رجل من عشيرة أخرى.

اليوم كان الجو متوتراً، أبو الحكم عمرو بن هشام صوته مرتفع، وعتبة بن ربيعة يحاول تهدئته، وأبو لهب يبدو محرجاً، أبو سفيان كان يجلس في الركن يراقب ما يدور، سيدي أمية كان صامتاً.

كان عمرو بن هشام يوجه حديثه إلى أبي لهب بلوم: ابن أخيك هذا سيسبب لنا مشاكل نحن في غنى عنها.. موسم الحج على الأبواب، كل قبائل العرب ستأتي إلى مكة، لو تسرب ما يقوله ابن أخيك إليهم وعلموا أننا لم نتمكن من إسكاته لبدونا أضحوكة أمامهم.

رد عليه أبو لهب: هذا كل ما يهمك. هيبتك أمام العرب، لا يهمك أنه يهين آلهتنا وآلهة آبائنا..

قال عمرو بسرعة: إنما نستمد هيبتنا هنا في مكة من هيبة الآلهة. وكل ما يمسها يمسنا حتماً.

قال أبو سفيان: أرى أنكم لم تنتبهوا إلى خطورة الأمر بعد.. لا يتعلق الأمر بهيبتنا أو بالآلهة فحسب.

رد عمرو: هل هناك ما هو أكثر؟ ما هو؟

قال أبو سفيان: لو أن ما يقوله محمد انتشر، لما بقيت مكة أصلاً..

هز سيدي أمية رأسه موافقاً وقال: صدقت، هذا ما كنت أفكر فيه أيضاً.

قال عتبة: ماذا تقصد يا أبا سفيان؟

قام أبو سفيان وهو صامت كما لو كان يريد أن يستجمع كلماته وكل الأنظار متجهة إليه.

وصل النافذة ونظر منها إلى الكعبة: تعيش مكة على التقاء القوافل فيها، هذه هي حياتنا، التجارة، لماذا تلتقي القوافل في مكة؟ لأن فيها الكعبة، وفي الكعبة يوجد كل أصنام العرب، العرب تأتي إلى مكة من أجل أصنامها، وهنا تتبادل البضائع ونربح نحن، تربح مكة.

ثم التفت وقال: الأمر بسيط، لا أصنام في مكة، إذن لا عرب سيأتون إليها، لا تجارة، لا ربح، لا مكة.

لا مكة..

ساد الوجوم على وجوه القوم.

أطرق أبو لهب برأسه محرجاً. الحديث عن ابن أخيه.

قال عتبة: لا يزالون قلة، لا زلنا غير متأكدين من شيء.. لا داعي لكل هذه المخاوف يا أبا سفيان.

قال سيدي أمية: قلة نعم، لكن سمعة محمد طيبة، وهو من بني هاشم، واحدة من أهم عشائر مكة، والناس تصفه بالصادق الأمين، وزوجته خديجة ثرية، وستدعمه بلا شك.. كذلك صديقه أبو بكر معه،

بلال الحبشي

سمعتهم يتحدثون عن دين جديد.

كنت أقضي بعض أعمال سيدي أمية، دخلت لأقول له إن قافلة الشام ستتأخر لأيام، حسب ما قال أحد القادمين في قافلة وصلت مكة قبل قليل، كان سيدي أمية قلقاً لتأخر القافلة عن موعد وصولها المتوقع، وأخبرني أن أبلغه فوراً لو عرفت أي شيء، وعندما وصلت قافلة أخرى، قادمة من الشام أيضاً، سألتهم فأخبرني أحدهم أنه رآهم في بصرى الشام، وأن دليل القافلة قد أصيب بالحمى وهم ينتظرون دليلاً جديداً أو ينتظرون تعافيه منها.

كان سيدي في دار الندوة، حيث يجتمع سادات مكة كل يوم تقريباً، يتحدثون في شؤون مكة وتجارتها وما يدور فيها، ويقضون أحياناً في نزاع بين رجل من هذه العشيرة مع رجل من عشيرة أخرى.

اليوم كان الجو متوتراً، أبو الحكم عمرو بن هشام صوته مرتفع، وعتبة بن ربيعة يحاول تهدئته، وأبو لهب يبدو محرجاً، أبو سفيان كان يجلس في الركن يراقب ما يدور، سيدي أمية كان صامتاً.

كان عمرو بن هشام يوجه حديثه إلى أبي لهب بلوم: ابن أخيك هذا سيسبب لنا مشاكل نحن في غنى عنها.. موسم الحج على الأبواب، كل قبائل العرب ستأتي إلى مكة، لو تسرب ما يقوله ابن أخيك إليهم وعلموا أننا لم نتمكن من إسكاته لبدونا أضحوكة أمامهم.

رد عليه أبو لهب: هذا كل ما يهمك. هيبتك أمام العرب، لا يهمك أنه يهين آلهتنا وآلهة آبائنا..

قال عمرو بسرعة: إنما نستمد هيبتنا هنا في مكة من هيبة الآلهة. وكل ما يمسها يمسنا حتماً.

قال أبو سفيان: أرى أنكم لم تنتبهوا إلى خطورة الأمر بعد.. لا يتعلق الأمر بهيبتنا أو بالآلهة فحسب.

رد عمرو: هل هناك ما هو أكثر؟ ما هو؟

قال أبو سفيان: لو أن ما يقوله محمد انتشر، لما بقيت مكة أصلاً..

هز سيدي أمية رأسه موافقاً وقال: صدقت، هذا ما كنت أفكر فيه أيضاً.

قال عتبة: ماذا تقصد يا أبا سفيان؟

قام أبو سفيان وهو صامت كما لو كان يريد أن يستجمع كلماته وكل الأنظار متجهة إليه.

وصل النافذة ونظر منها إلى الكعبة: تعيش مكة على التقاء القوافل فيها، هذه هي حياتنا، التجارة، لماذا تلتقي القوافل في مكة؟ لأن فيها الكعبة، وفي الكعبة يوجد كل أصنام العرب، العرب تأتي إلى مكة من أجل أصنامها، وهنا تتبادل البضائع ونربح نحن، تربح مكة.

ثم التفت وقال: الأمر بسيط، لا أصنام في مكة، إذن لا عرب سيأتون إليها، لا تجارة، لا ربح، لا مكة.

لا مكة..

ساد الوجوم على وجوه القوم.

أطرق أبو لهب برأسه محرجاً. الحديث عن ابن أخيه.

قال عتبة: لا يزالون قلة، لا زلنا غير متأكدين من شيء.. لا داعي لكل هذه المخاوف يا أبا سفيان.

قال سيدي أمية: قلة نعم، لكن سمعة محمد طيبة، وهو من بني هاشم، واحدة من أهم عشائر مكة، والناس تصفه بالصادق الأمين، وزوجته خديجة ثرية، وستدعمه بلا شك.. كذلك صديقه أبو بكر معه،

وسمعته أيضاً طيبة، وصهره ورقة بن نوفل أيضا يؤيده.. ومكانته في مكة لا شك فيها.. كل هذا سيجعل ما يدعو له محمد له صدى عند البعض.

الأمر خطير فعلاً كما يقول أبو سفيان.. الأمر ليس هيبتنا فحسب أو هيبة الآلهة.. الأمر هو وجودنا من الأساس.

التفت لي فجأة وكأنه انتبه إلى وجودي الآن: ماذا تريد يا بلال؟

اقتربت وهمست له في أذنه بتأخر القافلة.

بدا على وجهه الانزعاج وقال: تباً لمحمد.. مجرد ذكره للآلهة بسوء جعل القافلة تتأخر.

❑ ❑ ❑

إذن هناك من يتحدث عن إله واحد في مكة.

عن ترك الأصنام.

لم أؤمن بها يوماً. ربما لأن أمي كانت قالت لي شيئاً عن إله واحد فقط، لا يمكن أن يُرى أو يُلمس.. شيء بقي لها من طفولتها.. كما لو كان هذا الإله الواحد إلهاً لا يستحق عبادته إلا الأطفال قبل أن يتلوثوا..

من يومها وأنا أنظر إلى الأصنام نظرة غير المصدق بها. أسجد لها أمام سيدي فقط لأنه يفعل ذلك.. لم يحدث أبداً أن صليت لها وأنا وحدي.

وهو محمد إذن، الذي يتحدث عن إله واحد.

لم أتعامل معه، لكنه معروف بأمانته، كل مسافر يريد أن يترك شيئاً في مكة ويرجع ليجده في مأمن يتركه عنده..

كان له عبد واحد، اسمه زيد، أهدته له زوجته خديجة، أعتقه وتبناه.

كم تمنيت أن يفعل ذلك أمية، كم حاولت أن أرضيه كي يعتبرني ابناً له، كنت أتقن كل شيء يرغب فيه، أنفذه بسرعة، لعل ذلك يرضيه..

جعل ذلك من معاملته حسنة معي، بلا شكّ، وصار يعتمد عليّ أكثر فأكثر.. يأتمنني على حساباته.. كنت بالتأكيد عبده المفضل.. وكنت مقرباً إليه، لم يضربني من قبل.. لا أذكر أنه فعل ذلك على الأقل.. كان ينهرني أحياناً وبشدة.. هذا كل شيء.. لم يكن سيئاً على الإطلاق.

لكن.. لا أظنه فكر لحظة واحدة أن يكون أباً لي.. أنا العبد الأسود.. لست سوى عامل يجيد عمله.. ولديه صوت جميل يطلب منه في لحظات سكره ونشوته أن يغني له ولأصحابه في سهراتهم..

لكن، من ناحيتي، كنت أحاول أن أجد في أمية الأب الذي لم أعرف.

كانت عموماً علاقة أبوة متخيلة من طرف واحد فقط.

كنت مجرد عبد بالنسبة لأمية.

❐ ❐ ❐

كنت أعرف أبا بكروعرفت من بعض الخدم عنده أنه يخرج مع محمد إلى الجبال خارج مكة.

صرت أتحين الفرصة لأرعى الغنم وأذهب بها إلى هناك، حيث يحتمل أن أجدهما معاً.. محمداً وأبا بكر..

كان سيدي أمية يعتبر أن رعي الغنم عمل أقل من إمكاناتي، كان يفضل أن أكون معه في حساباته وتجارته.. لكني كنت أقول له إن موسم الحج على الأبواب وإن الأغنام يجب أن تسمن.. وإني أعرف أماكن كثيرة العشب بين الجبال..

فاقتنع وتركني أرعى الغنم..

صرت أخرج كل يوم إلى جبال مكة، لعلني أجد فيها محمداً وأبا بكر..

وكنت أرفع صوتي بالغناء، لعل صوتي ينبههما إلى وجود شخص في الجوار..

في اليوم السادس انتبها فعلاً..

جاءا وطلبا مني اللبن.

أعطيتهما وأنا أنتظر منهما أن يقولا شيئاً أريد سماعه.

شربا اللبن، وقالا لي بالفعل..

عرضا عليَّ الإيمان بإله واحد وترك كل الأصنام وأن أقول الشهادة.. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله..

قبل أن أقولها، سألته: أشهد أن محمداً عبده ورسوله؟ محمد عبد؟ هو سيد وحر.. كيف يكون عبداً؟

قال أبو بكر: كلنا عبيد لله.. كلنا متساوون في ذلك.. لا فضل لأبيض على أسود في ذلك.

كلنا عبيد ومتساوون في ذلك.

فهمت.

حريتي هي أن أخرج من عبوديتي لأمية، إلى أن أكون عبداً لله..

قلت الشهادة بتصميم أكبر..

إله واحد.. ولا أوثان..

وكلنا عبيد لله فقط.

❏ ❏ ❏

From: bilal2001ny@hotmail.com

To: Amjadhelwani@bilalmovie.org

subject: مقترح

اتفقنا أن نقوم بعمل سيناريو ما للفيلم.

هذا مقترحي.

في نفس المشهد الذي فيه يؤمن بلال، بينما هو يرعى الغنم، يكون يغني..

يغني وحيداً في الصحراء.. لا أحد يسمعه.. يغني أغنية حزينة، يكلم فيها والده الذي لا يعرفه.. يخبره عن سوء معاملة الآخرين له.. يقول له ربما لو كنت موجوداً لتغير الأمر..

أغنية حزينة، يشتاق فيها للحرية التي لم يعرفها أيضاً مثل والده.. يقول إن الأمور ستكون أفضل لو كانت موجودة..

بعدها، يمكن أن تضع مشهد إيمانه..

ما رأيك؟

❑ ❑ ❑

قتلني بلال برسالته.

كنت متأثرة أصلاً بما كتبه أمجد.. يكتب جيداً هذا الرجل، كلامه وتحليله عن دخول بلال (الأصلي) إلى الإيمان كان مقنعاً، وبعيداً عن الستيريو تايب الجاهز.

وبلال يبدو شخصية خصبة دراميا، لو كان في رواية لكان أيقونة للتحرر من العبودية.

بلا أب، ومغني بصوت عذب، ويعذب بشدة من أجل إيمانه.. ثمة عمل كثير يمكن أن يخرج من هذه الشخصية..

كنت أقرأ ما يكتبه أمجد بعين المدرس الذي تعود على تصحيح ما يكتبه طلابه. وكان أمجد سيحصل على +A بالتأكيد، لكني كنت في الوقت نفسه أقرأ بعين الأم، أحاول أن أتوقع أثر ما يكتبه أمجد على ابني.. وكانت الأمور إيجابية غالباً، لم أكن أرغب أن تتحول المراسلات إلى تبشير أو دعاية للإسلام، ليس لأني ضد الإسلام أو شيء، بالعكس كنت أرغب أن يعرف بلال شيئاً عن دين والده (الذي لم يكن يعرف شيئاً تقريبا عن دينه) ولكني فقط لم أكن أرغب في استغلال مرض بلال بأي اتجاه.

كان ما كتبه عن الموهبة أمراً مهماً، وربما جعلني أفكر كيف يمكن أن أحاول تشجيع بلال على العودة إلى الكتابة في مواجهة السرطان.

قرأت الرسالة صباحاً، كانت قد وصلت في الليل، كانت مقروءة من قبل، مما يعني أن بلالاً فتحها، وكانت هناك إشارة إلى أنه تم الرد عليها.

دخلت في ملف الرسائل المرسلة، صدمتني رسالة بلال. قتلتني.

بلال ترك كل شيء، ليفكر أن بلالاً الأصلي سيغني (بحزن) عن والده

الذي لم يعرفه. بلال يريد والده، كل ما فعلته من لعب لدور الأم والأب في آن واحد لم ينفع.

يريد أن يجعل هذه الأغنية مقدمة، لكل ما سيحدث لاحقاً..

جزء مني كان متألماً من الإحساس بالفشل.

بعد كل شيء، بلال يريد أباه. بعد كل شيء حاولت فعله، بقي يشعر بتلك الحاجة إلى الأب.

وجزء كان متألماً من أجله، من أجل بلال..

بلال يريد أن يغني أغنية ويهديها لأبيه، ويقول له فيها ما يجول بخاطره.

تراه ماذا سيقول، هل سيتحدث عن السرطان؟ عن مدرسته؟ عن انتقالنا إلى بروكلين؟ ماذا سيقول عني؟ هل سيقول عني إني حاولت بشكل جيد؟ هل سيقدم لي الأعذار؟

هل سيسأله لِمَ رحل وتركه؟

لِمَ لم يحاول ولو مرة واحدة أن يراه؟ ولا حتى ببطاقة معايدة بعيد الميلاد.. أو بعيد ميلاده؟

لا بد أنها ستكون أغنية حزينة فعلاً.

طفل مصاب بالسرطان، يكتب لوالده الذي لم يره قط.

ملآنة كنت بالألم والغضب والإحباط.

الحياة ليست عادلة إطلاقاً.

□ □ □

طلبني المستر ويد إلى غرفته.

أمر لا يبشر بخير عادة.

لم يستلطفني المستر ويد منذ أن جئت إلى المدرسة. لم يحاول مرة أن يوجه لي أي كلمة لطيفة أو مجاملة. وكان دوماً يحاول أن يدقق فيما أفعل،

بطريقة مبالغ بها. أدنى مشكلة كانت تعني أن أسمع منه محاضرة عن المهنية الأكاديمية وسمعة المدرسة.

لم أكن قد قصرت في شيء؛ وكل ما يحدث معي يحدث للجميع، كان يمكن أن أرتاح لاتهامه بالعنصرية، لكن هذا لم يكن الأمر، كانت علاقته بووبي ممتازة، وكذلك علاقته بأكثر من مدرس أسود ومدرسة سوداء.

لم يكن للون بشرتي علاقة بالأمر. ببساطة لم يكن مقتنعاً بي، ربما كان يرى أني أصغر عمراً من أن أكون مُدرِّسة في مدرسته. ربما كان يرى أن لاتيشا القادمة من سانت لويس لا يمكنها أن تكون مُدرِّسة جيدة في مدرسة في بروكلين نيويورك.

ذهبت لغرفته، كان قد وضع على وجهه ابتسامة فكرت معها أن الأمر قد يكون حتى أخطر من المعتاد.

قال المسترويد: مس لاتيشا، تعرفين أني أقدر ظرفك الحالي تماماً، ولا أعتقد أن ثمة تعاوناً أكبر ممكن أن يبديه أي أحد..

كان محقاً، لقد استهلكت كل إجازاتي السنوية في مرض بلال، ولولا أن ووبي وماغي وديان كن متعاونات لما كان يمكن للأمور أن تسير.

هززت رأسي موافقة، بلا تردد، قلت: نعم وأنا ممتنة جداً للجميع .

كانت هذه مقدمة من المسترويد، لا بد أنه يرغب في فتح موضوع آخر.

اختفت ابتسامته تقريباً وهو يقول: سمعت أنك تريدين أن يكون كتاب (جذور) هو الكتاب المختار لطلابك؟

قلت: لا، الحقيقة لست فقط (أريد)، لقد بدأنا فعلاً بـ (جذور) مع الطلبة.

قال: آنسة لاتيشا، كتاب (جذور) لم يدرس في المدرسة من قبل، وهو ليس من الكتب المعتاد تدريسها لطلاب الصف العاشر على الإطلاق.

رددت: هل هناك شيء محدد يمنعنا من تدريس كتاب لم يدرس من قبل؟

قال: لا، بالتأكيد ليس هذا هو الأمر.. لكن الكتاب صعب، ربما كان أعلى من طلبة الصف العاشر.

أجبته: لكني سأقدمه مع المسلسل المقتبس من الكتاب، ولن نغطي كل الأجيال التي يغطيها الكتاب، بل حياة كونتا كنتي فقط.

أجاب: ولسنا نشجع هذه (القراءة من الأفلام)، القراءة من الكتب هي ما نريد، رغم أن خيار القراءة بمساعدة الأفلام يبقى موجوداً عند آخرين.

قلت بهدوء: لكن ماجي ستجعل طلابها يشاهدون جاتسبي العظيم، بنسختيه على ما أعتقد. ما الفرق؟

قال: الفرق أن جاتسبي العظيم من أهم روايات الأدب الأمريكي.. (جذور) أمرها مختلف تماماً.

كنت مصدومة: ما بال (جذور)؟ لقد فازت بجائزة بوليتزر والجائزة الوطنية.

بدا المستر ويد يائساً، قال وهو يحرك قلمه بين يديه بعصبية: آنسة لاتيشا، أقدر (جذور) وأثرها كثيراً، كنت لا أزال طالباً جامعياً عندما صدرت وعندما عرض المسلسل، وأذكر تماماً الأثر الذي أحدثته على الجميع، لكنها كانت مرحلة مختلفة تماماً، لم تكوني أنتِ قد ولدتِ أصلاً، ولذلك من الصعب عليك فهمها، كان هناك شعور أبيض بالذنب آنذاك، وكانت (جذور) محطة بارزة في هذا الشعور، لكننا في مرحلة مختلفة تماماً الآن، لدينا رئيس من أصول أفريقية.. بحق الإله، لِمَ (جذور) الآن؟

أعجبتني فكرة الشعور الأبيض بالذنب وتخيلت المستر ويد شاباً في السبعينات بشعر طويل وسوالف طويلة مع شعور بالذنب. أردت أن أقول له إنه سيكون لديَّ شعور أسود بالذنب إن لم أقدم (جذور) لطلابي.. لكني رأيت أن الوضع لا يحتمل.

قلت بهدوء: نعم نحن في مرحلة مختلفة، لذا سأحاول أن أقدم (جذور) لطلابي على نحو مختلف، ليس من شعور بالذنب حالياً لكي أستثمره إذا

كان هذا ما تقصد، لكن هناك الكثير في (جذور) مما يستحق أن يعرفه الطلاب..

قاطعني: لكن طلابك ليسوا سوداً فقط، هناك نسبة من البيض ومن الإسبان.

أكملت مؤكدة: وهذا بالضبط ما أريد قوله، يمكننا أن نجعل (جذور) جذوراً للجميع وليست للسود فقط، عبر محاولة إيجاد صيغ معاصرة للعبودية وأشكالها في حياتنا.. ربما يكون شعور الأسود أنه مظلوم هو قيد عليه أن يتخلص منه، وربما شعور الأبيض بالذنب (قلتها وأنا أريد أن أضحك) قيد عليه أن يتخلص منه.. سأترك للطلبة مساحة البحث عن القيود في الحياة المعاصرة، وبالتالي البحث عن فرصة للتخلص منها..

نظر إليّ نظرة مختلفة كما لو أنه لم يتوقع هذا الكلام مني، ثم قال: الفكرة جميلة ولكن، هل يحتاج طلابك إلى التخلص من قيودهم؟ أعتقد أنهم يحتاجون إلى الانضباط، ومن السهل جداً عليهم أن يخلطوا بين القيد وبين الانضباط..

قلت بسرعة: ربما فكرتهم عن التمرد أيضاً قيد.. وهذه فرصة للتخلص من هذه الفكرة.

بدا كما لو كان يستخدم ورقة أخرى: ماذا عن السرقة الأدبية؟ تعلمين أنه قد ثبت أن أليكس هيلي لم يكن صادقاً تماماً في الادعاء بأن هذه هي القصة الحقيقية لأسرته، وأنه قد نقل بعض المقاطع حرفياً من رواية أخرى؟

سيكون هذا درسا آخر للطلاب، لن تفلت من العقاب حتى لو فزت بجائزة بوليترز، وستدفع قرابة المليون دولار أيضاً! أي درس أكبر من هذا؟

بدا يائساً وهو يقول: ماذا سيحدث عندما تضطرين للتغيب؟ كيف يمكن لزميلاتك أن يكملوا كل هذا مع الطلبة، وهم قد لا يحملون نفس ما تفكرين به تجاه الرواية؟

كنت على شفا حفرة من جعله يقتنع، قلت بثقة: سنتعاون جميعاً

سكت وهو ينظر لي مطولاً، بدا كما لو أنه كان مصمماً على تغيير (جذور) قبل أن أدخل عليه، الآن يبدو متردداً كما لو أنه اقتنع بكلامي.

فكرت أن أستخدم البقية الباقية من الشعور الأبيض بالذنب في حالة وجوده عند مستر ويد: كذلك فإن تغيير الكتاب بعد تحديده ومعرفة الطلبة به سيترك انطباعاً بوجود تدخل من الإدارة، وسيكون تفسير ذلك محرجاً للجميع بسبب موضوع الكتاب، ولون الإدارة!

تغير لون الإدارة من الأبيض إلى الأحمر فوراً. ثم قال بسرعة: لا بأس من (جذور)، عمل مثير للجدل ولكنه عمل عظيم، فقط التزمي بما قلت من معاني أعمق للعبودية والقيود.. سيكون هذا عملاً رائعاً.

غادرت المكتب وأنا أفكر: بإمكان كونتا كنتي أن ينتصر دوماً، حتى لو صار اسمه توبي.

ولا أعرف لماذا تذكرت بلالاً، أقصد بلالاً الحبشي.

□ □ □

أمجد

أحاول أن لا أكذب قدر الإمكان.

أتحدث عن الإيمان بالله بوصفه قوة ممكن أن تكون إيجابية في حياة البشر، وقد كانت إيجابية حتماً في حياة الكثيرين، كما كانت سلبية أيضاً في أحيان كثيرة خاصة في عصرنا.

أتحدث عن الإيمان بالله، وليس عن الله.

أدرك أن كل من يقرأ ما أكتبه لبلال لن يعتقد أني ملحد، خاصة إذا كان في سن بلال.. لكن لا توجد جملة واحدة كتبتها يمكن أن أتناقض فيها مع نفسي، أقول نصف الحقائق التي أؤمن بها نعم، لكني لا أكذب. الإيمان يمكن أن يكون أي إيمان.. أي إيمان بأي قضية، الإيمان بالله هنا هو مثل الإيمان بالعدالة الاجتماعية أو بمساعدة المحتاجين أو حقوق المثليين جنسياً..

هكذا قلت لنفسي، كي أقنعها، كي أقول إني لا أنافق أو أتنازل عن قناعاتي عبر ما أكتبه لبلال..

إنه مجرد إيمان بقضية ما..

لا أتحدث عن الله..

لكن شيئاً ما، كان يقول لي، إني أكذب.. وإني أعرف أني أكذب.. وإني أعرف أن إيمان بلال بالله، بالتوحيد، لم يكن مثل أي قضية أخرى..

كنت أعرف أن الدين ربما لا يقدم الجواب المقنع..

لكن كريستين كانت على حق، لا جواب في الإلحاد..

□ □ □

حاولت أن أقول لعبدول.

كان ثملاً، وقدرت أنه ربما يكون في أشد حالاته وعياً عندما يكون ثملاً.

قلت له: عبدول، أنا ملحد.

حملق فيَّ كما لو أنه لم يفهم. أو كما لو أنه يراني لأول مرة.

ثم انفجر ضاحكاً.

انفجر في هستيريا ضحك كما لو كنت أخبرته بنكتة.

كان ضحكه مزعجاً وشعرت بالإهانة، هممت بالمغادرة، فوجئت به وقد شعر أن ما فعله كان مفتقداً للذوق، قال بسرعة: آسف آسف لم أقصد سوءاً، لكني تذكرت نكتة عن الإلحاد.

قلت له: نكتة؟ ما هي؟

قال: ليست نكتة بالضبط، بل هي حادثة حقيقية حدثت لصديق لي.. كانت لديه شكوكه عن وجود الله، وذهب لإمام المسجد ليخبره بمشكلته، كان الإمام مستعجلاً على ما يبدو، سمع نصف الكلام تقريباً وقال له بسرعة: ابني، إن كنت تريد أن تزني أو تشرب الخمر، لا مشكلة، ازن واشرب الخمر، لكن عليك أن تبقى مؤمناً بالله. حاول أن تصلي على الوقت وتكثر من الاستغفار.

رجع إلى هستيريا الضحك..

ثم قال: وصديقي أصلاً كان يزني ويشرب الخمر بكل الأحوال!

استمر يضحك. لم أعرف ما هو المضحك في الأمر لهذه الدرجة. إمام غبي وأمر متوقع ممن هو على شاكلته.

انتبه عبدول إلى أني لم أضحك. خف ضحكه بالتدريج ثم سكت تماماً.

قال: هل أنت جاد؟

أجبته: طبعاً جاد. أنا ملحد.. لا تقل لي إنك لم تمر بأي شكوك.. لقد خرجت يا عبدول من مجتمعك وتعيش في مجتمع حر منذ زمن طويل..

نظر لي باستغراب: في مجتمعي ربما هناك ملحدون أكثر مما هنا.. هل تعتقد أن مجتمعي مؤمن بالكامل؟ هناك ملحدون كثر، ليس بين الشباب فقط من سني، بل حتى من الجيل الأكبر.. لكن في الأغلب إلحادهم رد فعل من الكبت والقمع الذي يمارسه رجال الدين عليهم.. الإلحاد في تلك الحالة، هو فقط رد فعل للهروب ممن يدعون أنهم يمثلون الله.. لكن ما دخل الله بهم؟

كنت سمعت هذه المحاضرات كثيراً.

قلت له: ولماذا لا يكون الإيمان هناك هو نتيجة غسل دماغ يقوم به رجال الدين هؤلاء؟

بدا لي يقظاً تماماً وهو يقول: هذا ممكن بالنسبة للتعاليم الدينية والتفاصيل، لكن فكرة وجود الله موجودة في كل حضارات العالم، لا يوجد مجتمع بشري لا يوجد فيه معبود ما.. لا يحدث ذلك عبرغسيل دماغ قط.. من الصعب جداً تخيل وجود مؤامرة كونية لغسيل أدمغة البشر منذ فجر التاريخ..

استغربت جداً أن يخرج هذا الكلام من عبدول بالذات، ومنه وهو ثمل بالذات أيضاً.

- كيف تؤمن بوجود شيء لم تره يا عبدول؟.. لا تكن سخيفاً.

- ليس كل ما تؤمن بوجوده تراه يا أمجد.. هناك أشياء لا يساورك شك فيها أو في وجودها، لكنها لا تُرى..

- هل ستقول الجاذبية والكهرباء؟ قلت ساخراً.

- لا ليس بالضرورة، لم أقصد هذا، لكنهما أيضا يمكن أن ينطبقا على ما أقول..

- كفى يا عبدول، لا نرى الكهرباء ولا الجاذبية، ولكننا نعيش آثارهما.. ضحك عبدول وهو يقول: كفى يا أمجد، هذا بالضبط ما يقوله المؤمنون.. يقولون إن كل العالم هو أثر لله..

ثم سكت، وامتقع وجهه فقط. قال: قصدت شيئاً آخر..

قصدت حب أمي لي، لا أراه ولا أعرف له شكلاً، لا يمكن أن يُرى، لكني أعرف أنها تحبني، لا يمكنني أن أشك بهذا أبداً.. أعرف أنها تفكر بي ألف مرة في اليوم وتدعو الله في كل صلاة لها، وهي تصلي كثيراً..

ثم انفجر باكياً ينشج: أمي.. أمي..

هؤلاء الشرقيون! حالات ميؤوس منها. تشتاق لأمك جداً؟ حسناً، اتصل بها أو خذ طائرة وارحل لها. لكن من الضروري جداً بالنسبة لهم الدخول في مبالغات درامية لكل شيء.. فكرت إن كان قد وضع في شرابه شيئاً من الحبوب التي تجعله ينتقل من أقصى الضحك إلى أقصى البكاء هكذا..

قلت له: لكن الحب عاطفة. لا يمكن أن تضعه في خانة واحدة مع الخالق الذي تزعمون، لا يمكن أن ترى العاطفة.. لكن هذا الإله!

رد فوراً: بالتأكيد لا تضع الإله في خانة واحدة مع أي شيء.. الإله هو الذي خلق كل الخانات، لذا لا توجد خانة له.

بدت لي الجملة أكثر ما سمعته قوة وإقناعا.. لكني فضلت السكوت.

قال لي وهو يمسح دموعه: تعرف؟ السينما هي التي جعلتني أؤمن بالله.. وأحب ديني.. وهذا جزء من ولعي بها..

دراما أخرى. الآن مع السينما.

كان من الواضح على وجهي أني لم أصدقه.

قال: أنت لا تصدق ها؟.. اسمع هذه.. كنت في السابعة.. جاء خالي بشاشة سينما، وآلة عرض منزلية، وقرر أن يجمعنا، كل الأحفاد، في غرفة الضيوف الكبيرة، يسمونها عندنا (الديوان) ويكون لها باب مستقل إلى الخارج عن مدخل البيت، جمعنا لنشاهد فيلم (الرسالة) لمصطفى العقاد

كما لو كنا في صالة عرض.. قالت له أمي إن الفيلم متوفر على أشرطة الفيديو وإنه عرض مائة مرة على التلفزيون. قال لها: لا.. السينما غير شكل.

نظر عبدول إلى كأسه، كان لا يزال فيه القليل من الويسكي الذي طلبه.. رفع الكأس إلى فمه ليشرب الجرعة الأخيرة.. ثم توقف فجأة. أرجع الكأس كما لو أن يداً منعته..

أكمل: أقسم بالله يا أمجد.. الرعشة التي شعرت بها أثناء الفيلم، القشعريرة التي مرت في جسدي، لم أشعر بها لاحقاً في أي تجربة جسدية.. أقسم بالله.. لا أزال أذكر التجربة.. من يومها وأنا متعلق بالسينما، كل مرة أدخل فيلماً آمل أن تكرر التجربة، أن أشعر بنفس الرعشة، أن أشعر مجدداً بما شعرت به تلك الليلة، ومن يومها وأنا بطريقة ما، مؤمن جداً.. رغم أن رجال الدين في بلدي منعوا الفيلم أصلاً.

أردت أن أسأله إن كان تحت تأثير شيء ما عندما شاهد الفيلم وهو في السابعة. ثم قدرت أن ذلك كان خشونة لا داعي لها.. كان يبدو صادقاً جداً على نحو لا يمكن إلا أن أتعاطف معه.

أطرق برأسه ونظر إلى الكأس مجدداً، هذه المرة رفعه إلى شفتيه وشرب الباقي دفعة واحدة.. .

ثم قال: وهل تعرف أنهم قتلوا مصطفى العقاد أيضاً؟ أولئك الذين يتحدثون باسم الدين؟

خيل لي أني أرى ظل دمعة في عينيه.

نظر لي وقال بتصميم وعيناه تلتمعان: لكن الله موجود..

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: أحد أحد

عن هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَمُرُّ بِبِلَالٍ وَهُوَ يُعَذَّبُ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ، فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ اللَّهُ يَا بِلَالُ، ثُمَّ يُقْبِلُ وَرَقَةُ عَلَى أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَمَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِبِلَالٍ مِنْ بَنِي جُمَحَ، فَيَقُولُ: أَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا.

من هو ورقة بن نوفل؟ ورقة كان من الأقلية المؤمنة بالتوحيد في مكة، كان من أهل الكتاب، وأهل الكتاب هم المصطلح الإسلامي الذي يقابل ما نقصده اليوم (باليهود والمسيحيين) معاً، حيث إن هاتين الديانتين كانتا تملكان كتاباً (سماوياً) خاصاً بكل منها، التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للمسيحيين.. ولأن جوهر الديانتين كان هو نفس جوهر الإسلام، وهو توحيد الله في وجه تعدد الأوثان وعدم الإيمان بالله، وهذه الديانات الثلاث تنسب نفسها لنبي واحد هو إبراهيم، لذا فالمشترك بينها، على الأقل في الجوهر وفي البداية، كان أكثر بكثير مما يبدو حالياً..

كان ورقة رجلاً كبيراً في السن، وقد توفي في هذه المرحلة المبكرة، وكان قد اعتنق المسيحية، كما كان يترجم من الإنجيل إلى العربية، ولم يُعادِه أهل مكة عندما ترك ديانة الآباء وأوثانهم إلى المسيحية، لأنه ببساطة لم يكن داعياً إلى ذلك، لقد اكتفى بترك دينه واعتزل قومه ولكنه لم يدع إلى التغيير ولم يواجه أوثان قومه ومعتقداتهم..

لكن ورقة لا يمكنه إلا أن يساند دعوة التوحيد التي يرى أنها صادرة من نفس المنبع الذي صدرت منه المسيحية، لذلك نراه هنا وهو يسند بلال، ويقول له وهو يراه يُعذب ويقول أحد أحد، (أحد أحد الله يا بلال)، ثم يهدد أهل مكة بتحويل بلال إلى قديس فيما لو قتلوه، (أَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا)..

كان يريد أن يجعل منه سانت بلال فيما لو مات تحت التعذيب.

كان يعتبره على نفس الدين..

لكن اللقب الذي سيحصل عليه بلال لاحقاً، سيكون متفرداً، لن يحصل عليه أحد..

وسيكون أكثر تفرداً من لقب القديس الذي حصل عليه آلاف عبر التاريخ.

□ □ □

أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ وَخَبَّابٌ وَصُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَسُمَيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنَعَهُ عَمُّهُ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ قَوْمُهُ، وَأَخَذَ الآخَرُونَ فَأُلْبِسُوا أَدْرَاعَ الحَدِيدِ ثُمَّ صَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى بَلَغَ الجَهْدُ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَأَعْطَوْهُمْ مَا سَأَلُوا، فَجَاءَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَوْمُهُ بِأَنْطَاعِ الأُدْمِ فِيهَا المَاءُ فَأَلْقَوْهُمْ فِيهَا ثُمَّ حُمِلُوا بِجَوَانِبِهِ إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ حَتَّى مَلُّوا فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا ، ثُمَّ أَمَرُوا صِبْيَانَهُمْ فَاشْتَدُّوا بِهِ بَيْنَ أَخْشَبَيْ مَكَّةَ وَجَعَلَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

لم يكن لديه أحد يدافع عنه.. مجرد عبد من الحبشة.. بلا أب، وربما كانت أمه حمامة قد ماتت آنذاك، إذ لا تذكر عنها المصادر شيئاً، وكان قصيراً شديد القصر، يسهل على الصبيان أن يجروه بالحبل في شوارع مكة..

بينما هو يقول، كما لو كانت هذه الكلمة هي كل ما يعرف.. كما لو أن هذه هي لغته الجديدة وكل ما فيها هذه الأحرف الثلاثة، يعيدها مراراً وتكراراً، بينما هو يسحل على التراب في شوارع مكة..

نعم، كانت هذه بطريقة ما هي لغته الجديدة، أبجديته الجديدة التي يرى العالم من خلالها، صار يراه من خلال عدسة إله واحد، عالم تعدد الأوثان الذي غادره صار يبدو بالنسبة له فوضى غير محتملة، كما لو أنك وضعت عدسات مختلفة، متراكبة فوق بعضها، مقعرة ومحدبة، بحيث لا

يمكن أن ترى شيئاً حقاً..

كان بلال يسحل في الشوارع، ويهاجمه الصبيان والرعاع، يضحكون منه، عبد أسود، قصير، بلا أب، و(مغني)، ويجرؤ على تحدي أسياده؟

يتجمع المزيد من الناس في هذه المشاهد، ينفسون عن ظلم تعرضوا له، يعوضون ما تعرضوا له، بعضهم تكون لديه ميول إجرامية، وبعضهم صارت لديه ميول من أجل هذا التعويض..

أما بلال فلم يكن يقول سوى أحد، أحد.. لعله كان يقولها بأعلى صوته، بكل ما بقي له من قوة.. كل ما في جسده كان قد ملأته الكدمات والجروح، لكن حنجرته كانت لا تزال تعمل: تقول أحد أحد..

لعلهم كانوا يضحكون، ما هو هذا الأحد أحد؟

قليلون كانوا يعلمون، وحتى بلال ربما لم يكن يعلم، أن الملايين، عشرات الملايين، ستأتي مكة لاحقاً، لنفس الشوارع التي سحل فيها، وستردد، كجزء من طقوس الحج، نفس ما كان يقوله بلال..

هذه الملايين، وبعد أن تطوف بالكعبة، ستقف لتصلي ركعتين، ومن بين كل سور القرآن الـ ١١٤ ستكون هذه السورة، التي يسمونها أحياناً سورة الإخلاص، وأحياناً سورة التوحيد، والتي كان بلال يقتبس جزءاً من مطلعها فيما يقول..

تقول السورة، القصيرة جداً، والمهمة جداً "**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**".

فقط. نقطة انتهى.

وكان هذا ما يفعله بلال.

يقول أحد.. أحد..

كما لو أن بلالاً قد تعلق بمعاني هذه السورة، حيث الإله المطلق الواحد الذي لا يشبه البشر في شيء، لا يلد ولا يولد كما يفعل البشر، خارج الزمان والمكان وكل المقارنات..

كما لو أنه كان يبحث عن هذه المعاني منذ أن ولد..

وعندما وجدها، لم يعد يكترث لشيء..

أحد أحد، ذات يوم حار، في مكة.

□ □ □

... حَتَّى مَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَوْمًا وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَقَالَ لِأُمَيَّةَ: أَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذَا الْمِسْكِينِ، حَتَّى مَتَى؟ قَالَ: أَنتَ أَفْسَدْتَهُ، فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَفْعَلُ، عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى عَلَى دِينِكَ أُعْطِيكَهُ بِهِ، قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ، قَالَ: هُوَ لَكَ، فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ غُلَامَ ذَلِكَ وَأَخَذَ بِلَالًا فَأَعْتَقَهُ.

فجأة جاءت الحرية.

في أقصى حالات الألم والعذاب، جاءت الحرية فجأة.

هل كان بلال يسمع الحوار بين أمية وأبي بكر؟

لا نعرف، ربما نعم وربما لا.. لكنه بقي يقول "أحد، أحد".

وفجأة: الصخرة تزال.. الأغلال تفك.. وأبو بكر يساعده، ثم يقول له: بلال، أنت حر!

كان عبداً يعذب، توقف العذاب.. لكن ليس هذا كل شيء..

لقد صار حراً أيضاً..

أحد، أحد.

□ □ □

لكن من هو أبو بكر؟

هو أقرب الناس للنبي محمد، وأول من آمن به من الرجال. بينما كانت زوجة النبي، خديجة، أول من آمن به من النساء.

هل تصرف أبو بكر بدافع شخصي، أم أن ذلك كان بالاتفاق مع النبي محمد؟ لا نعرف، ولا يستبعد حدوث الأمرين معاً.. لقد تشبع أبو بكر بما يدعو له محمد على نحو لم يعد يجعل للدافع الشخصي استقلالية واضحة عن دوافع المبدأ والمعتقد.. ولعل شراء بلال لغرض عتقه كان جزءاً من الخطة التي قرر النبي محمد أن يدافع بها عن المستضعفين من أتباعه، هناك من ستحميهم عوائلهم القوية، ومن لا يملك عائلة قوية يمكنه أن يقول ما يريده أتباع الأوثان ويكفرون بمحمد وإله محمد تخلصاً من العذاب..

ومع حالة مستعصية مثل بلال، تمردت حنجرته على أي وسيلة للتخفي، وبقي يصرخ "أحد، أحد" كان لا بد من تدخل كتدخل أبي بكر.

فلننتبه هنا إلى أن أبا بكر قام بمبادلة بلال بعبد آخر وقال لأمية (هو على دينك)..

إذن، في هذا الدين الجديد، العبيد لا يتبعون دين أسيادهم تلقائياً..

إذن، في هذا الدين الجديد، يمكن للعبد أن يقرر ما يريد.. أن يقرر ما يؤمن به، ولو كان عكس ما يؤمن به سيده..

إنها الحرية تطرق الأبواب..

❑ ❑ ❑

ها أنت حر يا بلال..

ها هي الأغلال قد فكت..

ها هي الصخرة تزاح يا بلال..

ها أنت حر..

يمكنك أن تحلق عالياً، يا ابن حمامة، كما كانت أمك تريد أن تفعل..

يمكنك أن تترك مكة التي عذبتك وأهانتك وسخرت منك وسحلتك في شوارعها..

يمكنك أن تخلف ذلك كله وراء ظهرك.. وتبدأ حياة جديدة في مكان آخر..

أليس هذا ما سيخطر في بال أي أحد قد خرج من سجن العبودية للتو؟

نعم..

لكن ليس بلال..

❒ ❒ ❒

بقي بلال في مكة، مع المؤمنين الجدد من أمثاله، ولم يكن وضعهم آمناً أبداً، كان كبار تجار مكة وساداتها لا يزالون يستهدفون المؤمنين ويتحينون الفرص لإيذائهم، ورغم أن بلالاً قد صار حراً الآن، إلا أنه كان مثل ضعفاء المسلمين وفقرائهم الذين لا ينتمون لقبائل قوية معرضاً أيضاً للخطر، رغم أنه كان عملياً في حماية (أبو بكر).. إلا أنه كان لا يزال على حافة الخطر.

بعد خمس سنوات من استمرار الاضطهاد للدعوة الجديدة، قرر النبي أن يرسل الضعفاء من المسلمين إلى الحبشة، التي كانت تحت حكم ملك مسيحي عادل، وكان – بحكم كونه منتمياً لواحدة من الديانات الإبراهيمية – قريباً ومتعاطفاً مع دين توحيدي جديد، فيه من التشابه الكثير مع دينه.. بل ويبجل رموزه مثل السيد المسيح والسيدة العذراء.

كانت تلك هي الهجرة إلى الحبشة..

ولكن بلالاً لم يذهب!

كان من المستضعفين الذين يمكن بسهولة أن يحققوا كل مواصفات من هاجر إلى الحبشة..

لكنه لم يذهب..

هل يمكننا أن نتخيل صراعاً في داخله؟

بل هل يمكننا أن لا نتخيل!

لم يذهب.

لم يفكر أن يذهب إلى موطن أجداده.. لم يفكر أن يبحث عن أقارب لأمه حمامة، لأخوال له، لخالات، أو أقارب لأبيه الذي لا يعرف له إلا اسمه، كان يمكنه أن يفعل.. أن يذهب إلى حيث ينظر له الجميع على أنه مثلهم، بنفس لون البشرة، لا شيء يصمه من مجرد النظرة الأولى إلى أنه (عبد).

لكنه لم يفعل.

لعله خشي إن ذهب إلى هناك أن يترك ما وجده في مكة..

خشي على نفسه..

وآثر أن يبقى..

لقد وجد نفسه فيما آمن به..

لقد وجد الانتماء للفكرة، الانتماء للإيمان.. الأكثر قوة من الانتماء للون البشرة..

□ □ □

بلال الحبشي

لم أتعمد إعلان شيء. ولم أتعمد أيضاً أن أخفيه.

لقد صرت مؤمناً. لم يكن ذلك من شأن أحد. أو هكذا فكرت في البداية.

وضعت إيماني في قلبي، سعيداً به، كطفل وجد عصفوراً وأخذه معه مبتهجاً فرحاً إلى البيت.

بعد قليل لم يكن من الممكن إلا أن أحاول أن أشرك الآخرين به.

كنت سعيداً به، وكنت أحاول إسعاد الآخرين أيضاً.

تحدثت مع بعض العبيد والخدم من حولي، بدا لهم الأمر غريباً ومخيفاً.

واحد منهم، عروة، كان يرغب دوماً في التقرب من أمية، كان يرى أن لي حظوة ومكانة خاصة عند أمية، ويحاول أن يسبقني في كل شيء.

وجد عروة فيما تحدثت عنه فرصته، فذهب على ما يبدو إلى أمية ليوغر صدره.

لم يكترث أمية في البداية، قال لي فجأة بعد أيام ونحن معاً في السوق: صحيح، يقول عروة إنك تتحدث بالهراء الذي يتحدث عنه محمد. هل صحيح ما يقول؟

بقيت ساكتاً.

سكوتي استفزه. كرر: هل صحيح ما يقول عروة؟

بقيت ساكتاً. كان صمتي جواباً واضحاً. لعله كان يريدني أن أنكر حتى لو كان إنكاري كاذباً. لكن مجرد أن أضطر لكذب، فإن هذا يعني انتصاراً له.

صفعني. كدت أقع أرضاً. بقيت ساكتاً.

ضربني وقال: ستدفع الثمن يا أحمق. ظننتك أذكى من ذلك.

❑ ❑ ❑

حبسني أولاً في إسطبل خيله.

وكان يسمح بدخول الماء والطعام لي.

ثم جاء ليسألني: هل لا زلت على ما أنت عليه من حماقة؟

لم أجبه.

ركلني.

هل لا تزال تتبع محمداً؟

لم أجبه.

ركلني مرة أخرى وقال: سترى يا أحمق.

❑ ❑ ❑

منع عني الماء والطعام ليومين.

ثم جاء مرة أخرى، وسألني: ألا زلت تتبع محمداً وربه؟

بقي الصمت جوابي.

جن جنونه، كان يشعر أني هزمته بقوة إرادتي. مجرد صمودي كان انتصاراً لي.

فهمت الأمر. فصممت على أن أصمد.

جلدني بالسوط عدداً لا أذكره من المرات، جلدني حتى تعب وصار وجهه أحمر يتفصد من العرق.

ثم قرب وجهه من وجهي وهو يقول: أنت أحمق. لدينا آلهة كثيرة. هبل واللات ومناة والعزى.. كيف تتركها كلها لتؤمن بإله واحد لا تراه.

وجدت كلمة واحدة على لساني، أظنني ما كنت استطيع أصلاً أن أقول سواها.

قلت: أحد أحد.

لو أني بصقت في وجهه لما كان جن جنونه كما فعل عندما سمع الكلمة.

أدركت أثر وقعها عليه.

صفعني صفعة قوية.

نظرت إليه بعينين ثابتتين وقلت: أحد أحد.

أخذ يجلدني كالمجنون، كما لو كانت الكلمة مسبة شخصية له ولأهله.

اكتشفت نقطة ضعفه.

واكتشفت أيضاً نقطة قوتي.

أحد أحد.

❒ ❒ ❒

ظهيرة اليوم التالي كان أمية يعد لشيء ما، كان يريد أن يُري الجميع ما سيفعله بي. أوكل لعروة تحديداً مهمة تأديبي العلني.

كنت مقيداً بالسلاسل من يدي ورجلي، ثم ربطني عروة بحبل من ساقي، وسحلني في شوارع مكة وهو يصيح بأعلى صوت: انظروا إلى هذا العبد الذي تمرد على سيده، انظروا إلى هذا الرجل المؤنث الذي كان يغني في سمركم، والآن صار يتبع محمداً الصابئ، انظروا له وهو يُؤدب حتى يكون عبرة لمن يعتبر.

كان أمية قد جعل الأمر بمثابة احتفال علني دعا له ملأ مكة وساداتها.

كان يتحدث عن هيبة مكة التي يجب أن تُسترد حتى لا يتمادى العبيد في اتباعهم للصابئ محمد.

لا بد أن أحدهم قد أوغر صدره وأوصل الأمر إلى هذا معه، ربما كان عروة، لا أدري، لكن أمية لم يكن يكرهني لهذا الحد، وأنا شبه متأكد أنه لم يكن يحب الآلهة لهذا الحد أيضاً. أعرفه جيداً. لكن ربما كرامته قد جرحت في أن يخرج عبد من عبيده، من أقرب عبيده له عن طوعه وعن إيمانه، وأن يتسرب ذلك فيعرف عنه ذلك في مكة.

أراد أن أرجع علناً أمام الجميع.. كي أرد له هيبته، وليس هيبة الآلهة كما يقول.

لكني كنت قد حسمت أمري.. أحد أحد.

حذفت كل ما أعرفه من كلمات، كل ما أعرفه من أحرف، لا شيء عندي من الأبجدية سوى هذه الأحرف الثلاثة التي تكون كلمة أحد أحد..

لساني لا يقول شيئاً آخر.

تعبت يدا عروة وهو يجلدني، بدا عليه ذلك، وأنا أقول أحد أحد..

أمر أمية آخرين أن يساعدوا عروة، صاروا يضربونني معاً، لم أعد أميز عددهم، ربما ثلاثة أو أربعة..

وأمية يجن جنونه، أراد أن يسترد هيبته علناً، لكن صمودي يهينه علناً.

لعله في لحظة ما شعر بالندم لأنه سألني أصلاً عن إيماني..

أما أنا فلم أكن أشعر بالندم لأني قلت: أحد أحد.

كل ما كان في بالي هو: أحد أحد..

نعم كاد الألم يقتلني، لكني كنت أعرف أن كرامة أمية وآلهته تؤلمه أكثر..

كان هناك شيء آخر يؤلمني، غير السياط والضرب..

كان شعوري بأني كنت يوماً ما أريده أن يعتبرني ابناً له.

كان ذلك مؤلماً أكثر من السياط..

ثم لا أدري من أين خطرت على بال أمية فكرة أن يضع صخرة على صدري.

كان التعذيب العادي، بالضرب والجلد والسياط والشد من أطرافي قد فشل في أن يرد له هيبته.

فكر بشيء أكبر. شيء أكثر قسوة.

هل كانت فكرته، أم فكرة عروة..

لا أدري.. لكن فجأة، ها هم يدفعون الصخرة، القاسية كقلوبهم، ويضعونها على صدري..

لعله كان يريدني أن أموت، لكن ليس طعناً كما قتلوا (سمية) و(ياسر)، كان يريدني أن أموت ببطء، لأن ذلك سيجعله دوماً يعتقد أنه كان لديَّ خيار أن أعود إلى أصنامه وأنقذ نفسي، وأنا الذي رفضت..

الصخرة على صدري، أنا منسحق تحتها، ولكن صوتي لا يزال يقول: أحد أحد..

لم أعد مسيطراً على حنجرتي. حنجرتي خرجت عن سيطرتي الآن. أسمعها تقول (أحد أحد)، بينما أنا غير قادر على أن أقول أو أفعل أي شيء.

(أحد أحد) هو كل ما أسمعه.. وهي خارجة مني.. لكني أغيب.. أبدأ بالذهاب إلى حيث لا أشعر شيئاً..

فجأة أسمع صوتاً مألوفاً.. يتحدث مع أمية..

هل هو صوت محمد؟ هل هو صوت أبي بكر؟ هل هو صوت ورقة؟ تداخلت الأصوات في رأسي الذي لم يبق فيه شيء سوى (أحد أحد).

لا أعرف. لكن أمية يحسم الأمر عندما يذكر أبا بكر وهو يحدثه.

هو أبو بكر إذن.

أسمع الحوار بينهما ولكني أضعف من أن أفهمه. لا تزال حنجرتي تردد (أحد أحد).

فجأة.. الصخرة تزاح من فوق صدري.

ما الذي يحدث؟ لا أدري. أستمر بقول (أحد أحد).

الأغلال تفك عني. ما الذي يحدث بالضبط؟ لا أدري. لكني أقول (أحد أحد). لم أعد أعرف شيئاً غير هذه الكلمات.

أحدهم يساعدني على الوقوف.

أحد أحد.

ثم لم أعد أذكر شيئاً.

❒ ❒ ❒

في منتصف الليل استيقظت.

كانت هناك ضمادات على جروحي في كل مكان، وأكثر من شخص يقفون أمامي.

كان من بينهم عبد الرحمن بن أبي بكر، أخبرني عن الذي حدث.

لقد بادلني أبو بكر بعبد آخر. وقبل أمية الصفقة.

ثم قال: ولقد أعتقك أيضاً..

ماذا؟

كرر عبد الرحمن: أنت حر يا بلال. أنت حر..

تصورت أني أحلم، وأنها الصخرة قد سحقت صدري وجعلتني أهذي.

أغمضت عيني.. لا أريد أن أرى ما لن يحدث..

❒ ❒ ❒

وعندما استيقظت صباحاً على ألمي.. وجدت الضمادات في مكانها.. ولا أغلال.. ولا صخرة.

وكانت هناك طفلة صغيرة جاءت لي بالماء وهي تبتسم.

قلت لها: ما اسمك؟

قالت: أسماء. أنا بنت أبي بكر.

قلت لها: تعرفين من أنا؟

قالت: ومن لا يعرفك؟ أنت (بلال)، أحد أحد.. الكل يسميك بهذا الآن.

حاولت أن أتذكر ما قاله لي عبد الرحمن وخفت أن يكون هذا الجزء بالذات حلماً.

سألتها: أنا عبد لأبيك؟

قالت لي فوراً: لا طبعاً، أنت عبد لله.

ثم نظرت لي مستغربة: ألم تعلم؟! أنت حرا لقد أعتقك أبي.

❑ ❑ ❑

From: bilal2001ny@hotmail.com

To: Amjadhelwani@bilalmovie.org

subject: واوا

أشعر بأكثر من (واو) هنا.

لا يمكنني أن أخفي ذلك.

(واو) لأني لم أكن أعلم أن اليهودية والمسيحية والإسلام تنتمي كلها لإبراهيم.

بالنسبة لي كان إبراهيم شخصية توراتية. لن أدعي أني بحثت في الأمر كثيراً أو قليلاً. لكن هذا ما علق في ذهني. لا أدري من أين.

(واو) لأن هذا يجعل هذه الأديان، في جهة واحدة، في خندق واحد، بينما هي تبدو اليوم كما لو كانت في حالة عداء (ليس لأن هذا يهمني بأي شكل من الأشكال، لكن واو أيضاً).

(واو) لأن بلالاً انتقل من حالة التعذيب وهو يقول تلك الكلمة (أحد، أحد) إلى أن يقولها الملايين في هذا الحج الذي تحدثت عنه، (واو) فعلاً (إن كان صحيحاً) ، هل ستستطيعون أن تظهروا هذا في الفيلم؟

(واو) أيضاً لأني تصورت أن إبراهام لينكولن هو أول من حرر العبيد.

كنت أعتقد أن تحرير العبيد كان أمراً (صنع في أمريكا).

الآن يبدو أنه أقدم من أمريكا.

(واو) من أجل هذا.

❒ ❒ ❒

سانت بلال.. (واو) أيضاً. فكرة جميلة جداً.

هل أصبح سانت بلال فعلاً؟

❒ ❒ ❒

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: رد

سعيد بأن هناك أكثر من (واو) في رأيك في قصة بلال.

جواباً عن سؤالك: هل أصبح (بلال) سانت بلال؟

لا. لم يصبح بهذا المعنى الذي قصده ورقة بن نوفل.

لم يصبح له قبر يزار. وقبره موجود في مدينة دمشق عاصمة سوريا الحالية، لا يزال موجوداً، لكنه قبر عادي تقريباً.

المسألة هي أن فئة كبيرة من المسلمين، لا تضع مكانة كبيرة للقبور.. وتعتبر تقديسها نوعاً

من الوثنية التي حاربها الإسلام أصلاً، بمعنى أنها تعتبر الأوثان ليست تماثيل تعبد فحسب، بل يمكن أن تكون قبوراً لأشخاص صالحين، لكن الناس بعد وفاتهم صارت تعظم قبورهم، وتعاملها كما لو كانت أصناماً حتى لو لم تسمها أصناماً ولم تقل إنها تتوجه بالعبادة لها..

لكن بلالاً ذكره استمر بطريقة أقوى بكثير مما لو تحول إلى سانت بلال.

كان يمكن أن يكون له قبر ويأتي له الناس ويقدمون له النذور أو يشعلون الشموع مثلاً، لكن بلالاً ترك أثراً أكبر من هذا بكثير..

الأثر الذي تركه بلال، كعبد كان إيمانه سبباً في تحرره، ومن ثم المكانة التي حازها رغم أنه عبد سابق وببشرة سوداء، ورغم أن المجتمع العربي كان عنصرياً، وكان يعاير السود ببشرتهم..

هذا الأثر، كان أكبر بكثير من مجرد قبر يزار.. أو تمثال ينصب.

قلت شيئاً عن لينكولن وتحرير العبيد باعتباره (صنع في أمريكا)؟

حسناً، لا داعي للمبالغة، الإسلام لم يلغ العبودية تماماً، ليس على الأقل بالشكل الحاسم القانوني الذي حدث في أمريكا، الأمر مختلف تماماً، تحرير العبيد في أمريكا كان مرتبطاً بظروف اقتصادية وله أسبابه المعقدة وحدث في فترة مختلفة تماماً من التاريخ.

لا، الإسلام لم يلغ العبودية تماماً، لكنه (جفف منابعها)، إن جاز لنا التعبير.

بمعنى أنه قلل من الظروف التي كان فيها الناس يتحولون إلى عبيد، وجعل هناك عقوبات معينة تفرض على شخص ما، تحتم عليه أن يحرر عبداً من العبيد الموجودين، بمعنى أنه إذا قام شخص ما من المسلمين بمخالفة شرعية في الشعائر أو الطقوس مثلاً، فإنه كان من ضمن العقوبات الواردة عليه أن يقوم بشراء عبد وإطلاقه حراً. بالضبط كما تحكم المحكمة في أمريكا اليوم بعقوبة الخدمة المجتمعية، أن يشارك المذنب بقيادة السيارة بتهور مثلاً في تنظيف الشوارع.

ليس هذا فقط، بل كان هناك مال خاص، من خزينة الدولة، يخصص سنوياً لتحرير العبيد.

كما كانت هناك وصايا وتعليمات بحسن معاملتهم، وكانوا عند تحريرهم يصبحون تماماً كالآخرين، والكثير منهم تولى مناصب إدارية مهمة، كما أن الكثير من علماء الحضارة الإسلامية كانوا منهم.

لم يكن الأمر إلغاء للرق كما حصل في أمريكا بقيادة لينكولن!

المقارنة أصلاً خاطئة..

المقارنة بين المراحل التاريخية على هذا النحو فيها ظلم للمرحلتين.

❒ ❒ ❒

لاتيشا

قالت لي الممرضة بيتي، المبتسمة دائماً، إن الدكتور تشونغ سيحدثني في مكتبه.

لكن هذه المرة بيتي لم تكن تبتسم.

حركة جسدها كانت متخشبة.

أعتقد أن عضلات وجهها كانت قد تعودت الابتسام لدرجة أن مجرد عدم الابتسام كان يبدو كما لو أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام.

كنت متفائلة. وكان صباحاً رائعاً. بدا لي بلال حيوياً وأكثر نشاطاً. وكان الطلاب في الصف رائعين أيضاً.

كنت بلهاء. سألت بيتي: بيتي.. هل أنتِ بخير؟

نظرت بيتي إليّ باستغراب. ثم زاد وجهها امتقاعاً.

قالت وشبح ابتسامة على وجهها: هذا لطف منك، شكراً على السؤال.

لم ترد على سؤالي.

في الطريق إلى الدكتور تشونغ فهمت!

لا بد أنها نتيجة المفراس والرنين المغناطيسي الذي كُرر لبلال في الأسبوع الماضي.

لا بد أن بيتي تعرف شيئاً عما سيقوله لي تشونغ، لذا تعمدت أن تزيح الابتسامة عن وجهها.

بينما كنت أسألها ببلاهة عنها هي.

كان تشونغ من أصول آسيوية. بدا لي دوماً أنه قليل الكلام، لكن كنت أشعر أنه يملك الكثير من المشاعر.

كان وجهه أيضاً يحمل هماً، كما لو أنه كلف بمهمة صعبة.

حسناً. ماذا هناك أسوأ من السرطان؟

"سيدة لاتيشا، كنت أتمنى لو أنك لست وحدك اليوم".

أوه يا إلهي. أي بداية. نعم أنا أيضاً، كنت أتمنى لو لم أكن وحدي. منذ البداية. تباً لك يا سعيد أينما كنت. تباً لك ألف مرة. لعلك لا تذكر أن لك ابناً أصلاً، فضلاً عن أن تعرف أنه أصيب بالسرطان.

دخل الدكتور تشونغ في مقدمة عن تاريخ الحالة المرضية لبلال منذ أن اكتشف فيه السرطان، ثم دخل في أنواع سرطان الدماغ وتصنيفها.. تحدث حتى عن (كيف تبدو تحت المجهر).

ثم تحدث عن اختلاف نسب النجاة في كل منها.

ثم قال إن التشخيص الأولي لبلال، كان يضعه في خانة بنسبة نجاة (أفضل).

كان الدكتور تشونغ يهرب مما يريد قوله. كان هذا واضحاً.

قلت له: هل تغير التشخيص الآن؟

هز رأسه. قال اسماً طويلاً لم أستطع حفظه أول مرة.

سألته: هل هذا التشخيص يضعه في نسبة نجاة أسوأ؟

هز رأسه مرة أخرى. هرب بعينيه مني. ثم قال: آسف جداً.. آسف جداً سيدة لاتيشا.

قاطعته: "لا تقل لي إنه سيموت سريعاً يا دكتور".. لا أعرف كيف قلت الكلمة. لم أعرف صوتي.

بدا عليه أني قد سهلت الأمر. بدا على وجهه أني أزحت عنه عبء التمهيد.

قال لي "سيدة لاتيشا، للأسف، ليس هناك الكثير مما يمكن عمله في حالة بلال. الحالة اسمها Diffused Brainstem Glioma، وهي حالة متقدمة جداً، للأسف.. لم يصل الطب إلى المرحلة التي تمكنه من مساعدة هذه الحالة".

قلت له بصوت مخنوق: كم نسبة النجاة يا دكتور؟

نظر لي بصمت لبرهة. ثم كرر: ليس هناك الكثير مما يمكن فعله يا سيدة لاتيشا.

كررت: ماذا تقصد؟ ألا توجد أي نسبة نجاة؟

قال: الأمر ليس بهذه السهولة، لكن إذا قسنا نسبة النجاة على مدى خمس سنوات، نعم، ليست هناك أي نسبة نجاة.

احتجت إلى لحظات لأفهم ما قال. نعم كنت قرأت أن نسبة النجاة تقاس على خمس سنوات. لكن لم يمر عليَّ أبداً أن لا تكون هناك نسبة نجاة على الإطلاق (*لعله مرولكني فضلت أن لا انتبه*).

قلت له: ماذا تعني يا دكتور؟ صفر بالمائة؟

نظر لي بحزن أحسبه حقيقياً، ثم هز رأسه وقال: لا نقول أرقاماً كهذه، لكن لا توجد نسبة للنجاة على مدى خمس سنوات.

سكت قليلاً ريثما ابتلعت ما قال.

لم أشعر بشيء. لا شيء. فعلاً لا شيء. كنت قد خرجت من جسدي أتأمل في الحوار بين الدكتور تشونغ والسيدة لاتيشا.

ربما لأني كنت أتمنى لو أن هذا لا يحدث لي. تبلدت مشاعري فجأة.

سمعت صوت السيدة لاتيشا يخرج من جسدي وهو يقول للطبيب كما لو كانت تحدث نفسها: ماذا سأفعل الآن؟

نظر مشفقاً.

(سيستمر العلاج، سيساهم في تقليل الأعراض.. لكنه لن يخلو من اعراض جانبية أيضاً).

هكذا قال.

أخذت نفساً عميقاً من جسد السيدة لاتيشا، ودهشت أن لا يزال بإمكاني ذلك، ثم سألت: كم يملك بلال من الوقت؟

قال الدكتور تشونغ وهو ينظر في عيني مباشرة: أشهر. قد لا تتجاوز الستة أشهر.

قال ذلك وترك لي وقتاً كي أهضم ما قال. دون أي شعور وجدت نفسي أحسب إن كان بلال سيعيش لغاية ميلاده الرابع عشر.

أكمل: المعدل العام هو ٩ أشهر.. وهناك نسبة أقل من ٣٠ % تعيش لمدة سنتين.

لم أشعر بشيء. لا غضب ولا حزن ولا صدمة ولا ألم.

لا شيء. لا شيء.

كنت أشعر كما لو أني مت.

شاهدتني وأنا أقوم من مقعدي، أمد يدي لأصافح الدكتور تشونغ وسمعت صوتي يقول له: شكراً جزيلاً على تعاونك دكتور.

قال الدكتور تشونغ: سيدة لاتيشا. أعتقد أنك بحاجة إلى الجلوس. هل لك بكوب من الماء؟

قلت له: لا، شكراً. أنا بخير. عليَّ أن أذهب.

قال لي: سيدة لاتيشا. عليك أن تجلسي قليلاً. أنتِ في حالة صدمة.

سمعت صوتي مرتفعاً وبحدة: أنا بخير.

ثم بصوت أقل ارتفاعاً: شكراً لك.

استدرت إلى الباب وخرجت إلى الممر. كنت أسير بخطوات هادئة متزنة كما لو أني سمعت خبراً سعيداً. لا أعرف لماذا.

مررت ببيتي. وضعت نفس الوجه عندما شاهدتني.

شاهدت نفسي وأنا أبتسم وأقول لها: شكراً لك بيتي، شكراً على كل شيء.

شاهدت أثر ما قلت على وجهها وسمعتها تقول شيئاً لي، لكني لم أقف..

خرجت إلى الشارع، كانت تمطر بهدوء وصمت. لم يكن المطر قد بدأ عندما دخلت المستشفى. شعرت أن ذلك يمثل طريقة الطبيعة في مشاركتي ما سمعت. كما لو أنها تقول لي: لِمَ تبكين؟ لا بأس.. سأبكي بدلاً عنك.. لم تكن لدي مظلة. لم أكترث.

سرت في سانت نيكولا أفينيو ولم آخذ المترو القريب في واشنطن هايتس، مشيت دون أن أنتبه إلى الطريق. على الناصية في أمستردام أفينيو، كان هناك بائع أشجار عيد الميلاد الذي بقي له أسابيع.

فكرت أن هذا سيكون عيد الميلاد الأخير لبلال.

فكرت في أن أحاول جعله مميزاً له.

وفكرت في عيد الميلاد القادم، سيكون بلال قد رحل. سأكون وحدي. لن أشتري شجرة ميلاد غالباً. لمن سأزينها؟

رأيت الناس يسيرون. تأملتهم كما لو أني أرى الناس لأول مرة. هذا الشاب الذي يمارس الرياضة. بلال لن يصل إلى هذ العمر. رأيت شاباً وشابة يسيرون متعانقين تحت مظلة. بلال لن يكون مع فتاة تحت مظلة.

سيموت في الرابعة عشرة. قبل أن يقبل أي فتاة. قبل أن يمارس الحب. قبل أن يختار أي خيار حقيقي في حياته. قبل أن يعرف ماذا يريد أن يكون حقاً.

أدركت الآن لماذا قال لي الدكتور تشونغ إني في حالة صدمة.

نعم. أنا كذلك. لكن هل يدرك من هم في صدمة أنهم كذلك فعلاً؟

هل إذا انهرت باكية الآن أكون تجاوزت الصدمة.

كنت في عالم آخر تماماً.

بلال سيموت. نقطة انتهى. وهذا العالم سيستمر كما لو أن بلالاً لم يمر فيه. كما لو أني لم ألده.

كنت كمن أخذ إبرة بنج من رأسه إلى قدمه، ولكنه لا يزال واعياً بما يدور.. بلا شعور حقيقي. بلا أي إحساس..

كنت أعرف أن البنج سيتلاشى.

لكن العالم كان يبدو غريباً جداً خلال ذلك.

وصلت إلى مقبرة Trinity . مشيت بمحاذاة سياجها. فكرت بالله. للمرة الأولى منذ زمن طويل أفكر به. هل هو موجود؟ هل يشعر بما يحدث؟ هل يحس بآلامي؟ هل هو من قرر أن يصاب بلال من دون الملايين بهذا النوع من السرطان في دماغه؟ أما كان من الممكن أن يصاب بسرطان بنسبة نجاة أفضل قليلاً.. على الأقل لكي يكون لديَّ أمل. على الأقل كي أحارب. لا أن أدخل معركة أعرف سلفاً أن نتائجها محسومة.

لماذا خلق الله السرطان أصلاً؟! لماذا كان عليه أن يخلق السرطان؟ لماذا خلق كل هذه الآلام؟

من خلال السياج كانت القبور تبدو لي واضحة. كنت أعرف أن المقبرة انتهت لتضم رفات الأشخاص المهمين في نيوريوك، لكنها بدأت تضم رفات الأطفال والفقراء والمجهولين.

فكرت: الأطفال.. الفقراء.. المجهولون..

مثل بلال.. مثل بلالي..

كان يمكن أن ينتقل إلى الخانة الأخرى، خانة الأشخاص المهمين.. المشهورين.. لكنه ببساطة لم يملك الفرصة لذلك. أي ظلم. أيِ ظلم.

لا أدري لماذا تذكرت ما كتبه أمجد، عن هذا الرجل المسن الذي قال إنه سيجعل من بلال الحبشي قديساً له قبر يزار، ثم تذكرت ما كتبه أمجد عن الأثر الذي هو أهم من القبر..

بدا الأمران غير مهمين.. أي أثر وأي قبر؟.. بلال سيموت.

لم أبك. مررت بالقبور ولم أبك. كنت لا أزال مخدرة. كنت مبللة تماماً. كان المطر لا يزال ينهمر بهدوء. ولم أكن قد انتبهت إلى أني أصبحت مبتلة تماماً.

دخلت محطة المترو. لم أكن أرغب حقاً في العودة للبيت، لكن قدمي ساقتني بالاتجاه الذي سيجعلني أذهب إلى البيت.

مخدرة ومبللة وبلا مشاعر كنت.

ثم تسلل إليّ لحن مألوف.

في زاوية من زوايا محطة المترو، كان يجلس واحد من أولئك الذين يعزفون ويغنون في الشارع، فينقدهم المارة بعض العملات المعدنية.

ميزت صوته، كنت أراه دوماً في محطات مختلفة. صوته حزين ودافئ. وأسنانه مهدمة. وجهه كله مهدم. موهبته لم تشفع له أمام كونه ليس وسيماً. فانتهى إلى الغناء في الشارع. لا بد أنه طرق أبواب الشركات الكبرى في صناعة الموسيقى مراراً. تراه وصل إلى أكثر من الأبواب.

كان اللحن مألوفاً جداً.. وبدأ يتسلل إلى أعصابي، رغم أني كنت لا أزال مخدرة.

ثم اقتربت.. فتوضحت الكلمات..

ابتسم.

رغم الألم في قلبك.

ابتسم..

رغم أن قلبك يتحطم.

حتى لو كانت هناك غيوم في السماء..

ستجتازها..

إذا ابتسمت خلال ألمك وخوفك.

ابتسم..

وربما غداً ترى الشمس مشرقة من أجلك.

دع وجهك ينير بالامتنان

اخفِ أي أثر للحزن

ربما كانت الدمعة قريبة جداً منك..

لكن هذا هو الوقت الذي يجب أن تحاول فيه..

ابتسم.. ما نفع البكاء؟

ستجد أن الحياة تستحق المحاولة، لو ابتسمت..

ابتسم..

رغم الألم في قلبك..

ابتسم..

حتى لو كان قلبك يتحطم.

Smile though your heart is aching
Smile even though it's breaking
When there are clouds in the sky, you'll get by
If you smile through your fear and sorrow
Smile and maybe tomorrow
You'll see the sun come shining through for you

Light up your face with gladness
Hide every trace of sadness

Although a tear may be ever so near
That's the time you must keep on trying
Smile, what's the use of crying?
You'll find that life is still worthwhile, if you just smile

That's the time you must keep on trying
Smile, what's the use of crying?
You'll find that life is still worthwhile, if you just smile

وجدت نفسي أحاول أن أبتسم.

في تلك اللحظة بالذات، سقطت أول دمعة من عيني.

دمعة واحدة.

ثم انهرت بالبكاء.

كنت سمعت الأغنية بأصوات أغلب من غناها، وهم كثر.. لكني اليوم سمعت الصوت الأقرب إلى قلبي. كان صوته مجروحاً وهو يغني. كان صوته الحزين يقول لي إنه يفهم ما أعانيه. زال الخدر عني. الآن أفهم ماذا سيحدث لي. الآن أفهم ماذا يعني أن تسمع أم (أخبروها أن ابنها سيموت) هذه الأغنية: ابتسم.

ركبت القطار الأول الذي جاء. لم أنتبه لرقمه. وكنت لا أزال أبكي. كانت الأغنية لا تزال ترن في أذني. كما لو أني ركبت سماعات أذن في دماغي.

ابتسم حتى لو كان قلبك يتألم، ابتسم حتى لو كان قلبك يتحطم.. هل يدرك كاتب الكلمات ألم قلب أم سيموت وحيدها؟ هل "ابتسم" تطبق هنا أيضاً.

كان القطار مزدحماً، وأغلب من ركب معي لم يجد مكاناً للوقوف.

أحد الرجال وقف وأشار لي بالجلوس مكانه. لا أعرف إن كنت شكرته أو لا. لكن دموعي بقيت تنهمر بصمت.

مدَّ لي مجموعة مناديل. أخذتها. وهذه المرة سمعت صوتي يشكره.

بقيت كلمات الأغنية أعلى من صوتي ومن صوت القطار.

ابتسم.. ابتسم حتى لو كانت هناك غيوم في السماء..

ابتسم..

لكن بلالاً سيموت، وحيدي سيموت.. قلت في نفسي.

أكملت الأغنية (*ستجد أن الحياة تستحق المحاولة لو أنك فقط ابتسمت*).

حاولت أن أبتسم..

وفشلت.

قبل أن أهبط من القطار في محطته الأخيرة، بدت لي الأغنية كما لو كانت رسالة موجهة لي: عليّ أن أجعل بلالاً يبتسم.

□ □ □

أمجد

كريستين هجرتني قبل ثلاثة أيام.

بالضبط قبل ست وستين ساعة.

كانت تفتعل المشاكل على نحو مريب في الأيام التي سبقت ذلك.

لا تترك فرصة تفلت منها دون أن تفتعل مشكلة، وفي كل مرة كانت تزيد من حدة كلامها ونبرة صوتها، كما لو أنها كانت تختبر صبري.

فكرت أنا أنها ربما كانت لديها مشاكل في العمل.

حاولت أن أكون لطيفاً قدر الإمكان. كان هذا يستفزها أكثر على ما يبدو.

أخيراً، قالت لي فجأة، ودون مقدمات، وبعدما كدت آوي إلى السرير بعد يوم مرهق، إنها تريد أن تخرج لملاقاة الأصحاب في مانهاتن.

قلت لها أني متعب ولا أرغب بذلك، ويمكنها أن تذهب هي إن أرادت.

انفجرت كما لو أن الفرصة السانحة قد وقعت في يدها.

"أنت لا ترغب في الحضور ليس لأنك متعب، بل لأنك ببساطة لا تريد ملاقاة من تعلم أنهم أكثر نجاحاً ورجولة منك".

"اخرسي" قلت على الفور.

بدت عليها الصدمة لما قلت أو اصطنعت ذلك على الأقل، قالت بذهول مفتعل: ماذا قلت؟

كررت بصوت أكثر ارتفاعاً: اخرسي يا كريستين.

لم تعتد كريستين أبداً أن أخرسها، كنت دوماً الطرف الذي يحاول أن

يحل أي خلاف بألطف الكلمات. كانت تتوقع مني أن أجادل فيما قالت. لِمَ هم أكثر نجاحاً ورجولة مني. لكني فوتُّ فرصة الجدال هذه المرة.. قلت لها: اخرسي! ولم أكن بصدد التراجع.

جلست بهدوء وأنا أراقبها تفرغ كل ما في داخلها، وكان كثيراً.

كنت أعرف أنها لا تحبني، ليس فقط (تحبني أقل مما أحبها)، لا.. كنت اعرف أنها لا تحبني أصلاً، وكنت أعرف أنها لئيمة أحياناً في تعاملها معي. ولكني لم أكن أعتقد أنها تكرهني.

الآن عرفت.

لم يكن الأمر يخص عدم رغبتي في الخروج بالتأكيد. كانت تريد حجة لكي تهجرني. سبباً يجعلها لا تبدو أنها تركتني من أجل براندون.. بل يجعلها تخرج كبطلة فضلت عدم الاستمرار في العلاقة عندما رأت أني (ضعيف الشخصية) وأني (أغار) من أصدقائها الذكور.

كنت متأكداً من وجود شيء بينها وبين براندون. وكنت ببساطة أنظر إلى الجهة الأخرى.

نعم، كنت مريضاً نفسياً بالفعل، ولكن ليس بالانحراف الذي أشارت له. بل بها. كنت أحبها كمريض. كمدمن. وكنت أسكت على سوء معاملتها واستغلالها وحتى على الشيء الذي بينها وبين براندون.

كنت مستعداً لأي شيء كي تبقى.

لكن هذه المرة شعرت أن كفى.

كنت واثقاً أنها على ثقة من أن الأمر ليس هكذا. فقط تريد التخلص مني أو التمتع بسيطرتها عليَّ أو ربما كانت لديها مشكلة في عملها أو في رسالة الدكتوراه وكانت تنفس عنها.

خرجت كريستين من البيت. أغلقت الباب وراءها بقوة.

ذهبت إلى الحمام ونظرت في المرآة، قلت لنفسي بصوت مرتفع: إياك أن تتصل بها وتعتذر إليها.. إياك.

كنت أخشى أني سأفعل. أن أضعف.

قلت لنفسي إنها ستهجرني عاجلاً أو آجلاً، وإني أعرف ذلك جيداً، ليكن ذلك على الأقل بقدر من الكرامة لي، ليكن على الأقل لأني أخذت موقفاً لصالح نفسي، وليس فقط لأنها شاءت أن تهجرني.

كنت أخشى أن لا أبقى على موقفي. كنت أخشى أن أتصل بها وأتوسل إليها أن تعود. لذا قمت بحذف رقم هاتفها من هاتفي، حذفته من أي مكان يمكن أن أصل إليه.

كنت أريدها أن تتصل هي.

خرجت وسكرت مع عبدول، ومع آخرين. المهم أن لا أفكر بها. لكني كنت أفكر. وودت لو أني وجدتها في البيت عندما عدت فجراً. أو على الأقل أن تتصل.

لم يحدث.

صباحاً قضيت اليوم في إعطاء المحاضرات وأنا شارد وعيني على هاتفي كي يومض بإشارة وصول لرسالة أو أي شيء.

لا شيء.

تسكعت بعد الظهيرة أمام المطعم الذي تذهب إليه عادة في فترة الغداء من عملها، لعلي ألمحها وتبدو الأمور طبيعية. لم أجدها.

مر المساء بطيئاً، وعقلي يوسوس لي أني قد أجد هاتفها على صفحة الفيس بوك أو My Space.

أدخل كل عشر دقائق على صفحتها في الفيس بوك لعلي أجد ما يقول إنها تمر باكتئاب مثلاً أو ندم، فأجدها "مستمتعة بالحياة مع الأصدقاء في شكسبير بار".

هل هي مستمتعة فعلاً أم تريد أن تغيظني.

اليوم الثاني كان أسوأ بكثير. الطلاب انتبهوا إلى شرودي، واعتذرت عن

المحاضرة الأخيرة، ذهبت مجدداً إلى المنطقة التي تقضي فيها فترة الغداء. لا شيء.

في المساء ذهبت وسكرت مجدداً. كل وعيي كان على هاتف لم يأت. وكل خمس دقائق كنت أتأكد من أن هاتفي يعمل وأن بطاريته لم تنفد وأن الشبكة موجودة.

في اليوم الثالث وصلت رسالة منها.

فتحتها بلهفة. كنت أرغب ليس في أن تعتذر. فقط في أن تلمح إلى أنها سترجع أو أي شيء تمنح فيه مجالاً للعودة.

لكن الرسالة كانت مختلفة تماماً. قالت فيها إنها ذهبت إلى المنزل وأخذت ملابسها وأغلب احتياجاتها، وإنها ستأخذ الباقي لاحقاً. وقالت لي أن أعتني بكوبر ريثما تتمكن من أخذه.

كوبر!

عليَّ الآن أن أعتني بكلبها! وأنزهه وأجمع فضلاته! كوبر الكريه الذي تعرف كم أكرهه.

انتهيت لأكون مجرد جليس لكلبها.

لم تترك أي فرصة لحوار. لم تترك المجال لأي شيء.

سرت في الشوارع لا على التعيين. كانت تمطر وكنت بلا مظلة. وقفت وابتعت واحدة من CVS. بقيت أسير وأنا أشعر بالرثاء لنفسي. كنت مثيراً للشفقة. بقيت لسنوات أحب امرأة لا تحبني، صرت مستعبداً لها، لا أتخيل نفسي من دونها، لا أكون راضياً عن نفسي إلا برضاها، ارتبط تقييمي لنفسي بها على نحو مروع، استخدمت هي كل ما تعلمته في علم النفس لتكرس تبعيتي وذلي لها.

سرت وأنا أحاول أن أقوي نفسي بتذكر كل إساءاتها لي. أحاول أن أقنع نفسي بأن هجرها لي أفضل لي على المدى البعيد، أيام مؤلمة ثم يخف الألم، وأتعود بالتدريج..

أشفقت على نفسي، كان شعوري تجاه نفسي بين الكره والإشفاق.

كنت أشفق على نفسي لأني فشلت في أن أجعل كريستين تحبني أو حتى تتمسك بي.

وكنت أكره نفسي لأني أحب كريستين.

أي شخص سويّ وناضج لم يكن ليحبها.

لكني كنت مثل مراهق غير ناضج في السادسة والثلاثين متعلق بحب امرأة لا تحبه، يرى العالم من خلالها، لا بل يرى نفسه من خلالها. وبالتالي يرى العالم كله من خلالها.

لا بد أن ذلك كان له علاقة بعلاقتي بوالدتي. لا بد أن شيئاً ما قد حصل هناك في طفولتي وجعلني معرضاً لأن أكون في فخ علاقة كعلاقتي مع كريستين.

كانت أمي شديدة الانضباط والجدية، تعطيني حنانها بقدر ما تحصل على انضباط مني، وكان رضاها على ما أفعل صعب، وبالتالي كان حنانها صعب المنال. وبالتدريج صار مستحيلاً.

كريستين – كأخصائية نفسية - ميزت هذا مبكراً، تحدثت عنه مرة أو مرتين في تفسير ما يحدث بيننا، ثم سكتت تماماً. لقد استخدمته كسلاح في سيطرتها عليّ.

كان الألم في داخلي كبيراً. كنت أشعر أنه كألم في جسدي. لكنه ألم يغمر كل جسدي ويتجاوزه إلى روحي نفسها. شيء لم أكن أؤمن به عادة. لكن الآن، وهذا الألم: نعم، ثمة روح.. وهي تتمزق.

تمنيت لو أني كنت أؤمن بآله. كان ذلك سيفيدني جداً بلا شك. لا بد أن المؤمنين بإله ما يجدون العزاء عندما يصلون له ويطلبون العون منه. لا بد أنهم عندما يفقدون حبيباً لهم، يتماسكون أفضل مما أنا الآن.

الجزء الملحد مني قال بصوت مرتفع غير آبه بآلامي: لهذا وجدت الأديان. كمخدر.

قال الجزء المتشكك مني بصوت يائس: مسكن الآلام حقيقة. ليس خيالاً.

نظرت إلى السماء، كانت ملبدة بالغيوم ولا تزال تمطر.

قلت كما لو كنت أحدث إلهاً لا أؤمن بوجوده: لو كنت هناك، أعطني علامة.. اترك لي دليلاً على أنك موجود.. أي شيء..

بقيت السماء صامتة. تمطر بهدوء.

كنت أسير وأنا أرثي لنفسي، سرت في شوارع نيويورك تحت المطر لساعات، ابتعدت عن سيارتي حتى صار من الصعب العودة إليها. وجدت نفسي أفكر بلوعة بكوبر. عليّ أن أعود للبيت كي أطعمه أو أخرجه لكي يقضي حاجته. امتلأت بالغثيان. كنت أريد أن أرضيها عبر رعايتي لكوبر. كنت أريد أن أرضيها حتى الآن.

توجهت إلى محطة المترو كي أعود إلى سيارتي. فكرت بألم إن كانت مكترثة الآن بأي شيء. فكرت أنها ربما كانت مع براندون أو أي من مجموعتها، ربما في أي حانة في وسط المدينة، وربما في أي مكان آخر.

فكرت بحزن: هل يا ترى هي مكترثة لأي شي؟

دخلت محطة المترو وأنا مثل جنازة متحركة.

بينما أنفض مظلتي، جاءني صوت حزين يغني بلحن مألوف.

دخلت المحطة وغمرني الصوت، كان صوتاً حزيناً لواحد من أولئك الذين يغنون داخل محطات المترو ويلقي لهم المارة بعض النقود.

كان صوته رائعاً.. صادراً من أعماق حنجرته وهو يغني، كما لو كان يعزف على حباله الصوتية بالإضافة إلى غيتاره..

ابتسم.

رغم الألم في قلبك.

ابتسم..

رغم أن قلبك يتحطم.

حتى لو كانت هناك غيوم في السماء..

ستجتازها إذا ابتسمت خلال ألمك وخوفك.

ابتسم وربما غداً ترى الشمس مشرقة من أجلك.

دع وجهك ينير بالامتنان، اخف أي أثر للحزن

ربما كانت الدمعة قريبة جداً منك..

لكن هذا هو الوقت الذي يجب أن تحاول فيه..

ابتسم.. ما نفع البكاء؟

ستجد أن الحياة تستحق المحاولة، لو ابتسمت..

ابتسم..

رغم الألم في قلبك..

ابتسم..

حتى لو كان قلبك يتحطم..)

ابتسم!

كنت أعشق هذه الأغنية.

أعشقها منذ مراهقتي. بصوت كل من غناها. كنت قد وضعت كل نسخ هذه الأغنية في الآي بود. وكنت أعشقها بصوت سترايساند خصوصاً.

لكن الآن.. أن تأتي هذه الأغنية وهذه الكلمات الآن.

وقفت جامداً.

هل كان هذا هورد الإله الذي لا أؤمن بوجوده؟!

هل هذا هو جوابه، عندما تحديته قبل قليل تحت المطر، عندما طلبت منه أن يقول لي إنه موجود؟

قال الجزء الملحد مني: لا تكن أحمق. إنها صدفة. لعله لا يغني سواها. لعله يعيد نفس القائمة من الأغاني كل يوم.

قال الجزء المتشكك مني: اذهب واسأله!

وقفت أمام المغني. كان يشبه المتشردين إلا قليلاً. أكمل الأغنية، ثم ابتسم مغمضاً عينيه كما لو كان يحلق.

أخرجت ورقة من فئة العشرة دولارات ووضعتها أمامه مع القطع المعدنية المتناثرة.

ابتسم لي ممتناً ورفع قبعته محنياً رأسه محيياً وبانت أسنانه المهدمة. بالتأكيد ليس لديه تأمين صحي.

سألته: هل يمكن أن أسألك سؤالاً؟

قال: بالتأكيد، اسأل.

قلت له: هذه الأغنية، ابتسم، هل تغنيها باستمرار؟ هل هي من جدولك اليومي أو ضمن مجموعة أغاني تكررها باستمرار؟

قال لي: أبداً، لعلي لم أغنها منذ سنوات طويلة، منذ أن كنت أغني في الحانات وآخذ أجراً على غنائي.

ثم ابتسم بحزن وقال بصوت منخفض: كنت أغني في فيغاس ذات يوم. كان ذلك قبل ثلاثين عاماً.

هززت رأسي شاكراً وكنت على وشك الانصراف.

لكنه استمر: وجدت شيئاً في قلبي يقول لي أن أغنيها. كما لو أن الله قال لي أن أفعل ذلك. لم أكن متأكداً أني سأتذكر كل كلماتها.. لكنه ساعدني بطريقة ما.

جمدت. بقيت واقفاً بصمت.

هل يعقل ما سمعته؟

قبل قليل تحديته وطلبت منه دليلاً. ثم يقـــول لي هذا الرجـــل إن الله يقول له أن يغني هذه الأغنية بالذات.

ابتسمت.

ثم مضيت وكلمات الأغنية لا تزال ترن في أذني.

قال الجزء الملحد مني: مجرد صدفة. ما كان يجب أن تطلب دليلاً في المقام الأول.

قال الجزء المتشكك: ربما.. لكنك طلبت.

ابتسمت.

تذكرت كيف كانت الأغنية دوما تعني لي الكثير في كل أزماتي، وكيف أن توقيتها اليوم جاء غير متوقع.

نعم، سمائي ملبدة بالغيوم جداً، ولكن الشمس ستشرق، أعرف أن ألمي سيتوقف يوماً ما. أني سأكف عن حب كريستين.

جاء القطار، دفعني الزحام ووجدت نفسي أمام مقعد فرغ للتو. فكرت. دليل آخر؟ وابتسمت مجدداً.

فكرت ببلال. بالبلالين. فكرت أن بلالاً الأول كان مستعبداً عند أمية، وأن الثاني مستعبد عند السرطان، وأن الأول تحرر من أمية بإيمانه.

فكرت أني مثلهما. عبد لعلاقتي بكريستين.

فكرت أن كريستين تشبة أمية أكثر مما تشبه أمي!

تمنيت لو أقول لها ذلك واشرح لها من هو أمية فقط لكي أغيظها.

انتبهت لامرأة تقف أمامي. مبللة كقطة تركت تحت المطر، كانت تبدو مرهقة وحزينة وأظنها كانت تبكي.

كنت مرهقاً أيضاً بسبب السير لساعات، لكني وقفت وأشرت لها بمقعدي. همهمت شيئاً وهي تجلس. ربما قالت شكراً. لاحظت أنها تبكي فعلاً. كانت دموعها تهبط بصمت، مثل المطر.

فكرت أن أغني لها (ابتسم)، لكن صوتي على الأغلب سيجعلها تبكي أكثر.

اكتفيت بأن أعطيها منديلاً. الحقيقة أعطيتها مجموعة مناديل. توقعت أن منديلاً واحداً لن يكفيها.

هذه المرة سمعتها قالت: شكراً.

أما أنا فقد ابتسمت.

❒ ❒ ❒

سأقترح على أمجد أن يكون الفيلم بالأسود والأبيض إلى أن يصبح بلال حراً.

أو أن تكون الألوان قاتمة على الأقل إلى أن يصبح حراً، فتشع وتصبح مضيئة.

أعتقد أن العالم كان بالأسود والأبيض بالنسبة لكل العبيد.. أجدادي من ضمنهم. كانوا يعيشون في عالم بلونين إلى أن تحرروا.

ولا بد أن بلالاً كان كذلك.

إلى أن أصبح حراً.

حتى تنفسه لا بد أنه أصبح مختلفاً.

ربما لو جعلوا ذلك واضحاً في الفيلم سيكون أجمل.

❑ ❑ ❑

بالنسبة لي الألوان كانت قاتمة دوماً. دوماً بالأبيض والأسود.

ربما قبل الصف الخامس كان هناك بعض الألوان.

لكن منذ أن انتقلنا إلى هنا، والألوان تزداد قتامة، إلا بشكل متقطع وعابر..

ثم جاء السرطان..

وأنابيب الكانيولا التي توضع بصعوبة في وريدي، والأطباء يحاولون مرة تلو أخرى معي..

والعلاج الكيمياوي.. التقيؤ.. الدوار.. التعب.

دوماً كانت الألوان قاتمة.

إلى أن جاء الفيلم..

إلى أن جاء خبر هذا الفيلم الذي سيحمل اسمي.

اسمي هو كل ما احتفظت به من أبي. هو كل ما بقي لي من أبي الذي لم أره أصلاً.

شعرت بلون ما مع الخبر..

تخيلت الاسم كبيراً على الشاشة..

تخيلت الفيلم ينجح جداً، ويُذكر الجميع بي بعد أن أكون قد ذهبت..

تخيلته يرشح لجوائز الأوسكار، ويفوز. تخيلت الاسم وهو ينطق في القاعة الكبيرة، ويعلو التصفيق..

تخيلت ماذا سيفعل الاسم بكل من في المدرسة.. تخيلت جون ومايك..

تخيلت أيضاً ديانا.. تخيلتها تندم على عدم اهتمامها بي..

تخيلتهم جميعاً يتعذبون بالندم، بعد أن يكون الوقت قد فات.

❑ ❑ ❑

تخيلت أبي يتذكرني بعد أن يرى ملصق الفيلم.

ويبحث عني..

ولا يجدني..

❑ ❑ ❑

لكني بعد قليل، شعرت بسخف ما فكرت به.

ربما بعضهم سيشعر بالندم أو الخجل، لكن غالباً كل ما سيفعله الفيلم هو أن يجعلهم يتذكرون ذلك الصبي البدين الذي صار نحيفاً بعد أن أصيب بالسرطان.

وربما بعضهم سيذهب إلى الفيلم، ويأكل البوب كورن أثناء مشاهدته، ويخرج سعيداً مستمتعاً بالفيلم، لكنه لا يربط بيني وبينه..

حتى فيلم يأخذ الأوسكار لن يجعلهم يتذكرونني..

ما لا تعرفه أمي هو أني عرفت بالضبط مم أعاني، يوم نزل الفيلم الدعائي القصير عن الفيلم.

كنت أعرف أنني مصاب بالسرطان. لكن لم أعرف أي نوع.

وعندما لا تعرف أي نوع، فإن كل شيء محتمل، يمكن أن يكون من تلك السرطانات التي تصل نسبة النجاة منها إلى الـ ٩٠ % ويمكن أن تكون من الـ ١٠%.

ذلك اليوم، سمعت بيتي تتحدث مع أمي. قالتها عرضاً وهمساً، وكنت مغمضاً عيني.. لكن لم أكن نائماً. فقط كنت أشد تعباً من أن أفتحهما. كان ذلك بعد جلسة إشعاع.

سمعتها.. كانت هناك أحرف مختصرة تمكنت من حفظها..

DIGP

وكانت هناك كلمتان واضحتان.

Brainstem glioma

ابتعدا. مددت يدي إلى هاتف أمي. كانت تركته على الطاولة المجاورة. ذهبت إلى غوغل.

لم أبحث كثيراً.

سرعان ما وجدت الإحصائية.

صفر بالمائة.

صفر بالمائة.

سأموت. وقريباً.. في الغالب أشهر. ربما ٩ أشهر.

أغمضت عيني. أعتقد أني نمت. لا أذكر الكثير من مشاعري. ربما كنت بلا مشاعر أصلاً. ربما هذا النوع من السرطان يقضي على المشاعر. ربما هو يأكل الجزء الخاص بالمشاعر في الدماغ. ربما كان هذا أفضل أصلاً.

كل ما أذكره هو أني شعرت أني على الأقل لن أستمر بالعذاب كثيراً.

نمت.

وعندما فتحت عيني كانت أمي تضع شاشة الآيباد أمامي.

قالت لي بفرح: انظر، دعاية فيلم بلال، لقد نزلت اليوم. سيكون فيلماً رائعاً.

فكرت: ربما. لكني لن أراه.

❑ ❑ ❑

تلك الليلة، حلمت فيها بأبي.

كنت أحلم به دائماً على فترات متباعدة. لا بد أنه هو، لأنه يشبه هذا الذي في الصور، حلمت به مرة وهو يعلمني السباحة، وحلمت به وقد أخذني إلى نهائي Super Bowel ، وحلمت به أكثر من مرة وهو معنا في البيت فقط متواجد.

هذه المرة حلمت به وهو يدخل إلى غرفتي، وهو يحمل ملصقاً كبيراً في يده، ويعلقه على الجدار المواجه لسريري، مغطياً على الملصقات الأخرى.. وضعه بالذات بحيث غطى تماماً ملصقي واي جي وويز خليفة ، بقي دريك ظاهراً في ملصق يحمل عنوان (اعتن بنفسك)، جزء من ملصق لاعب البيسبول أليكس رودريغز كان ظاهراً أيضاً.

كان الملصق يحمل عنوان الفيلم. بلال. بأحرف كبيرة.

بدت لي الأحرف مضيئة في الظلمة.

وضع أبي الملصق وخرج.

استيقظت فزعاً والعرق يغطيني. لم يكن هناك بلال، وكانت هناك كل الملصقات كما هي.

لكني شعرت أن عليَّ أن أعرف المزيد عن (بلال).

هذا كل ما تركه لي أبي.

❏ ❏ ❏

أحاول أن أفهم قصة بلال.

ما الذي يريد أبي أن يقوله لي.

إذا كان يريد أن يقول لي شيئاً ما.

ما الذي في اسمه، في قصته، يمكن أن يكون رسالة لي.. لا بد أن يكون هناك شيء ما.

لا بد أن يكون هناك شيء ما.

❏ ❏ ❏

اسمه مثل اسمي.

أسود. مثلي.

ولم يكن يعرف أباه. مثلي.

كان يتعرض للسخرية. مثلي.

لكن.. ماذا بعد؟

هل عبوديته مماثلة للسرطان؟

لكنه انتصر..

وأنا ليست لديَّ فرصة.

ولا فرصة واحدة.

صفر بالمائة..

❏ ❏ ❏

ليلتها، كنت أتمنى لو كان لديَّ ترف أن آخذ حبة منوم، بل حبتين، أو ثلاثاً، وأنام لمدة عشر ساعات كاملة.

لكن كان عليَّ أن أواجه ذلك السؤال الذي وجهته إلى الدكتور تشونغ: ماذا سأفعل الآن؟

حاولت أن أتصرف مع بلال على نحو طبيعي. أعددت له العشاء، وكنت أحبس دمعتي أثناء ذلك، أحاول أن أتذكر (ابتسم).. وجلسنا نتناول العشاء معاً. أجبرت نفسي على الأكل وكنت أشعر برغبة في التقيؤ.

أجبرت نفسي أيضاً على أن أقول نكتاً وأتصرف كما لو أن لا شيء هناك، كنت أتصرف على نحو طبيعي أكثر من الطبيعي! ، ولا بد أن بلالاً انتبه لذلك.

كنت أجد نفسي أتهرب من النظر في عينيه مباشرة، كي لا يكشفني، كي لا يعرف ماذا أخفي.

ثم ضربني ذلك كصاعقة: وقتي من الآن صار محدوداً جداً، لديَّ أشهر فقط كي أنظر إليه، كي أملأ عيني منه. وأنا أضيع الفرصة بتحاشي النظر إليه!

هممت أن أحتضنه، وأقبله، لكني لم أفعل، لا لكي لا يحدس بوجود شيء ما، ولكن لأنه، ومنذ أن كان في العاشرة، قد كف عن تقبل أي نوع من أنواع هذه العواطف، القبلات أو الأحضان، كعادة الصبيان عندما يرغبون في الانفصال عن طفولتهم وكل ما يتعلق بها.

منعني بلال متذمراً من أن أقبله أو أحتضنه، خاصة أمام أي أحد، وبالتدريج في أي مكان.. إلا في المناسبات!

كنت أفكر آنذاك مواسية نفسي: طفلي يكبر، إنه يصبح رجّلاً.

الآن أعرف: لن يكبر، لن يجد الوقت ليكبر.

ومع ذلك لا يمكنني أن أحتضنه.

عليّ أن أراه وهو يتسرب من يدي، ولا أحتضنه!

عندما ذهبت إلى السرير، صدمني سؤال كنت أتحاشاه دون وعي مني.

هل سأخبر بلالاً؟

كيف سأفعل؟

تباً لك يا سعيد. تباً لك يا سعيد ألف مرة.

ماذا سأفعل الآن؟

فكرت أن أكلم أمي. بل فكرت أن أسافر لها في سانت لويس. لكن ذلك كان أمراً خارج الإمكان. لم أكن قريبة من أمي، لم نكن صديقتين مقربتين، لكنها كانت أمي، كانت ترغب دوماً في المساعدة، وقد جاءت فعلاً لأيام وساعدتني مع بلال في أول مرضه، ولكن الأمور كانت تنتهي دوماً بأن أساعدها أنا. ولم تكن تحب نيويورك بكل الأحوال وكانت تعبر عن ذلك في كل فرصة على نحو يجعلني أشعر بالذنب.

اتصلت فعلاً بها، ثم أغلقت الهاتف قبل أن يرن. فكرت أن الكلمات التي سأنطقها ستكون صعبة جداً عليّ. تخيلت صوتي وأنا أقول لها إن بلالاً سيموت. لم أرغب بسماع نفسي أقولها. ليس الآن. كانت غالباً ستأتي لتساعد، ولكني كنت أرغب في أن أعرف الجواب عن سؤال (ماذا سأفعل الآن) قبل أن تأتي.

كنت أريد أن أقرر ما سأفعل، وكيف سأفعل، قبل أن أتلقى المساعدة من أحد.

لكني كنت أرغب في حضنها. كنت أرغب في أن تحتضنني أمي، دون شرح، دون تفسير. كنت أرغب في حضن دافئ يحتويني. حضن أهرب إليه من هذا الكابوس.

تباً لك يا سعيد. تباً لك ألف مرة. تباً لك.

❑ ❑ ❑

كنت اتصلت بماغي، وأخبرتها أني لن أتمكن من الحضور في اليوم التالي. سكتت ثم قالت: لا أعتقد أن المستر ويد سيكون مسروراً بهذا.

قلت لها

Diffuse intrinsic pontine glioma

قالت: ماذا؟

قلت: صفر بالمائة. نسبة النجاة صفر بالمائة.

سمعت شهقة مكتومة على الطرف الآخر. ثم قالت بسرعة: سأتدبر الأمر.

لكني استيقظت وأنا أرغب في الذهاب.

كنت سأجد في المدرسة ما يلهيني عن مواجهة السؤال: ماذا سأفعل الآن؟

وهل سأخبر بلالاً؟!

❑ ❑ ❑

من بين كل أجزاء رواية (جذور)، فقد كان الجزء الذي عليَّ أن أناقشه اليوم مع الطلاب هو الأكثر إيلاماً.

كما لو أن هذا كان ما ينقصني.

كنت قد اخترت مقاطع معينة من الرواية، بالإضافة إلى مشاهدة الحلقتين الموازيتين في المسلسل.

كان هذا هو الجزء الذي يتم فيه وصف الرحلة التي نقل فيها كونتا كنتي ومن معه ممن استعبدوا من (غامبيا) إلى سواحل أمريكا، عبر المحيط الأطلسي.

كانت الرحلة مرعبة. ووصفها أليكس هيلي على نحو مُفصَّل ومؤلم جداً، بكل ما فيها.

١٤٠ من أولئك الذين تم خطفهم من قراهم الصغيرة وحياتهم السابقة، من الرجال والنساء والأطفال، الأصفاد في أيديهم وأرجلهم، وضعوا في خانات أفقية على نحو متراص، بحيث تسع السفينة أقصى حمولة، لا يمكنهم الحركة أو الجلوس، عليهم الاستلقاء فقط، الاستلقاء طيلة الوقت، وكل واحد ملتصق بالآخر، الفضلات كلها ستحدث في هذا الوضع، الفضلات والقيء تغطي الجميع، والقمل والبراغيث والجرذان ستأتي لتقتات على هذه الأجساد البشرية، التقرحات تملأ ظهور الجميع لدرجة أنها تتسلخ عندما يتم إنهاضهم من استلقائهم هذا..

كان البول والبراز والقيء تنسال من كل مكان وتصبح عجينة تغطي كل شيء.

لأربعة أشهر يستمر هذا العذاب.

الرائحة وحدها ستكون عذاباً لا تصفه الكلمات.

كابوس. كل ما يحدث كان كابوساً كان كونتا كنتي يتمنى لو أنه يستفيق منه.

وكل قارئ سيتمنى ذلك أيضاً.

الطعام يوزع على الجميع لمنع وفاتهم، لأن الموت سيكون خسارة لتاجر العبيد، أثناء توزيع الطعام كريه الطعم والرائحة يقوم رجال (الطوبوب، أي البيض بلغة كونتا كنتي) بضرب الجميع بالسياط بشكل مبرح، ويكون الضرب أكثر لو أن المستعبد لم يصرخ.. هناك من ضرب حتى الموت لأنه أصر على عدم الصراخ.

كل أسبوع أو عشرة أيام يخرج الجميع مربوطين بسلاسلهم وكل شخص مقيد بجاره الملتصق به، يخرج بهم إلى سطح السفينة ليتم تنظيفهم من عجينة البراز والقيء والبول.. ورغم أن مجرد تنفس الهواء كان أمراً جيداً، إلا أن كشط العجينة عن الجلد المليء بالتقرحات كان مؤلماً جداً وكان ينتهي بجروح أكثر إيلاماً..

على سطح السفينة، يرى الرجال الذين اتخذوا عبيداً، النساء وهن ينظفن أيضاً بنفس الطريقة، الطوبوب يطلبون من الجميع القفز والرقص، تقوم امرأة عجوز بتلبية الأمر وتتظاهر بالغناء أثناء الرقص، بينما هي تطلب من الجميع أن يفعلوا مثلها، الغناء على سطح السفينة سيكون هو الوسيلة لتبادل الأخبار بين الرجال والنساء، وسيعرف الرجال هنا أن النساء يتم اغتصابهن كل ليلة، وأن مشاجرات عنيفة تحدث بين الطوبوب على الدور في الاغتصاب.

الرحلة مريعة بكل تفاصيلها..

بطريقة ما، ورغم كل ما هو مروع في هذا الجزء، فإنه خفف عني.

شعرت أن ألمي وعذابي، مهما كان، لا يمكن أن يقاس بعذابهم.

كان هذا مواسياً بطريقة ما.

أغرب طريقة للتخفيف عن أم سيموت ابنها بالسرطان، أن تقرأ هذا الجزء من (جذور).

❑ ❑ ❑

كان من السهل أن تعرف من لم يقرأ الواجب المحدد من الكتاب.

الوجوه المسترخية الضاحكة للطلاب لم تكن قد اطلعت على شيء.

كان الكدر والغم يعلو وجه من قرأ. كان ذلك واضحاً جداً. كان ذلك ممزوجاً بلمحة من الغضب عند السود، ولمحة من شيء آخر قدرت أنه (الذنب الأبيض) عند البيض. الآسيويون كانت وجوههم محايدة بجدية. هذا درس آخر عليهم التفوق فيه.

حاولت أن أحتوي الأمر. ذكرت الجميع بأننا نتحدث عن أمرٍ تاريخي لم يعد هناك من هو مسؤول عنه مباشرة، وأن الحقائق التاريخية مهما كانت مؤلمة، يجب التعامل معها على أنها جزء من التراث الإنساني دون أن نسقط في الاتهامات واللوم.

وجهت سؤالاً للجميع: ماذا يمكننا أن نستفيد من هذا الجزء من الرواية؟

كنت أعرف ما استفدته أنا. لكني لم أكن بصدد الحديث عنه.

قالت ليزا فوراً: نستفيد بأن نعرف أن العالم مكان مريع.

آه يا ليزا، مريع جداً، لو تعلمين.

لكني كمدرسة كان يجب أن أكون أكثر إيجابية. قلت: نعم، العالم فيه أشياء مريعة فعلاً.. ولكن هذا يجب أن يجعلنا نوقفها.. العالم مريع أحياناً بسبب ما يفعله البشر فيه، وليس لأنه مريع بشكل طبيعي.

ردت ليزا: إذن البشر مريعون.

قلت مجدداً: أيضاً ليس لأنهم مريعون في طبيعتهم، ليس في الطبيعة البشرية كجزء طبيعي منها، لكن بعضهم مريع فعلاً بالتأكيد.

قال فريدي: كيف يمكن لأي إنسان أن يفعل كل هذا؟!

قلت: لا يزال يحدث يا فريدي، العالم فيه مآسٍ كثيرة، ولا يزال البشر يفعلون ببعضهم بعضاً هذا بطريقة أو بأخرى، وتحت شعارات مختلفة. أحياناً تحت أنبل الشعارات.

رد فريدي بذكاء: أفهم أن يحدث عنف عابر، أن يكون نتيجة غضب أو انتقام، لكن هذا التخطيط، الاستمرار في الأمر، لا بد أن ثمة شيئاً خاطئاً في تركيب الإنسان نفسه.

قلت: لو لاحظتم جميعاً، المسلسل يضيف بعض الشخصيات البيضاء، وبعضها كانت في السفينة أيضاً، ولكنها لم تكن مشاركة في كل هذا، وكان من الواضح أنهم يرون أن ما يحدث خطأ؟

ارتفع صوت بوبي من آخر الصف، وكان قليلاً ما يشارك بأي شيء: بالتأكيد! هل كان المسلسل سيعرض أو سينتج أصلاً لو لم يضف له محامي الشيطان بين شخصياته؟

رد جاك من الطرف الآخر في نهاية الصف: لعل لينكولن كان محامياً للشيطان أيضاً!

كان لا بد من أن أتدخل: لحظة من فضلكم.. الرواية لم تقدم الأحداث إلا من وجهة نظر كونتا كنتي وأحفاده، ولا حتى أي شخصية سوداء أخرى، وهذا طبيعي، الرواية كتبها حفيد كونتا كنتي عن سلالة جده، ومن غير المنطقي أن يقوم الكاتب أليكس هيلي بالحديث عن مشاعر قبطان السفينة، المشاعر التي لم يكن يعرف بوجودها أصلاً..

رد بوبي مجدداً: المشاعر التي لا نعرف أنها كانت موجودة أصلاً!

قلت: بوبي، نعم لا نعرف شيئاً عن مشاعر قبطان هذه السفينة تحديداً. لكن نعرف الكثير عن مشاعر بعض الأمريكيين البيض الذين كانوا ضد ما يجري، لم يكونوا أكثرية نعم.. لكن كانوا موجودين، كانت هناك شخصيات عامة ومؤثرة منذ أواخر القرن الثامن عشر، أي خلال فترة قريبة جداً من أحداث (جذور)، وكان لهذه الشخصيات مواقف ضد العبودية، ولا بد أن هناك فئة أخرى من البيض، من غير الشخصيات العامة كان لها الموقف ذاته.. أقلية نعم، في ذلك الوقت، لكنهم موجودون.

"لديَّ رأي مختلف". جاء صوت كيفن.

لا بد أن يكون لكيفن رأي مختلف، هو يرى العالم من وجهة نظر آسيوية، دوماً مختلفة وتغني أي حوار.

تفضل، كيفن، قلت.

قال: بكلمة واحدة، داروين، أو البقاء للأصلح.

علت همهمة غاضبة في الصف.

قلت: كيفن، هل يمكن أن توضح؟

قال كيفن وهو غير مكترث للأصوات الغاضبة: في نظرية داروين عن تطور الأنواع، الكائنات التي لا تتمكن من التكيف مع الظروف الطبيعية وتغيراتها، أو لا تتمكن من مواجهة الكائنات المفترسة أو الاختباء منها، ستنقرض. البقاء للأصلح، لمن يتمكن من الصمود.

نفس الشيء يحدث مع الأمم والحضارات، الشعوب التي لا تتقدم علمياً، لا تتمكن من الصمود أمام الشعوب التي تقدمت، تصبح فريسة لها، يمكن أن يحدث ذلك على نحو مباشر ومؤلم كما حدث مع كونتا كنتي والملايين سواه، ويمكن أن يحدث على شكل احتلال مباشر.. أو أي صيغة من صيغ الاستغلال.

لم يكترث أحد تقريباً لشرح كيفن، بل تعالت الهمهمات الغاضبة والنقاشات الجانبية. كانت كلمة (الأنواع) التي ذكرها كيفن مستفزة، وفهمت كما لو أنه يتحدث عن نوع أرقى من نوع.. لم يكن هذا ما قصده.

رفعت صوتي: كيفن لا يبرر، هو يفسر فقط. لا يقول إن هذا صواب أو خطأ.. لكن هذا ما حدث ويحدث فعلاً للأسف.. الدول القوية تستغل فعلاً الشعوب الضعيفة، ولا يمكن إنكار أن أفريقيا كانت متخلفة جداً بالمقارنة بالعالم الغربي.. وهذا سهّل أن تقع أفريقيا فريسة لتجار العبيد.. ربط كيفن هذه الحقيقة بداروين وأصل الأنواع، هو الأساس لنظرية في علم الاجتماع اسمها (الداروينية الاجتماعية).. ما تحدث عنه داروين في البقاء للأصلح، يحدث أيضاً على مستوى الشعوب والجماعات وحتى على مستوى الطبقات في مجتمع واحد أيضاً..

رفع إيدي يده، كان خجولاً قليل الكلام، بنظارة طبية سميكة وكان شديد الامتلاء، ويتعرض باستمرار للأذى من زملائه، كان موضع التنمر الذي ينفس فيه الآخرون عن مشاكلهم، قال بصوت منخفض: هذا ما يحدث مع الأفراد أيضاً.

قالها بمرارة وبصوت مرتجف، لقد رأى عذاباته في رحلة كونتا كنتي، وفيما نتحدث عنه من صراع من أجل البقاء.

علا صوت جاك ساخراً: نعم إيدي، إنه البقاء للأصلح يا غبي، تأقلم مع هذا.. أنت لا تصلح.

علا الضحك، بينما طلبت من الجميع السكوت ومن جاك عدم تكرار الكلام.

قلت لهم: نعم، يحدث أيضاً على مستـــوى الأفـراد، لكن ما يحـــدث في الطبيعة بين الكائنات الحية يجب أن لا يحدث بين البشر لأنهم أرقى، لأن هناك نظاماً أخلاقياً وقانوناً يجب أن ينظم العلاقة فيما بينهم.. لقد خرجنا من الغابة منذ زمن، وعلينا أن نلتزم بهذا.. عندما يحدث هذا بين البشر، البقاء للأصلح كما قال جاك، علينا أن نقف بوجهه، أن نخبر عنه..

قلت هذا وأنا أنظر عيناً بعين في وجه جاك، وأنا أتذكر كل ما قرأت وكيف أن التنمر يمكن أن ينتهي بلكمة واحدة توجهها الضحية لوجه من يحاول إيذاءها.

قالت ليزا: هل الأمر مماثل حتى مع مرضى السرطان؟

ارتجفت. ما الذي خطر ببال ليزا لتقول هذا؟ كنت أحاول قدر الإمكان أن لا أسرب التفاصيل عن مرض بلال، كانوا يعرفون بوجود شيء ما يتطلب غيابي، لكني لم أشأ أن يعرف الجميع، ربما كنت - بلا وعي - أعتقد أن الأمر سيصبح أكبر وأكثر لو تم تذكيري به كل حين.. كما لو أني كنت أنساه.. رغم ذلك، كان الصف (منطقة أمان) نسبية، أحاول أن أشغل فيه نفسي عن التفكير بمرض بلال.. ولم أشأ أن أفسد هذا.

قلت لليزا: ماذا تقصدين؟

قالت: في رواية (الخطأ في نجومنا) ، هناك جملة شديدة اللؤم، يوجهها الكاتب فان هوتن، إلى هيزل وأوغستوس، المصابين بالسرطان، يقول لهما: أنتما مجرد (عرض جانبي) لعملية التطور التي لا تهتم كثيراً بالأفراد، أنتما مجرد تجربة فاشلة في الطفرات الجينية.

"You are a side effect," Van Houten continued, "of an evolutionary process that cares little for individual lives. You are a failed experiment in mutation."

وقفت جامدة مكاني. كانت الرواية رائجة جداً خاصة بين المراهقين، والفيلم أيضاً. لم أقرأ الرواية لا لسبب معين، لم يكن بلال قد أصيب بالسرطان، أو أننا لم نكن قد اكتشفنا بعد إصابته به.. ولكني لم أقرؤها، وكانت مرشحة فورية عند بعض الزملاء والزميلات لكي تكون واحدة من الروايات التي يقرؤها الطلبة.

عندما اكتشفت مرض بلال، تجنبت الرواية والفيلم معاً. أستطيع الاستفادة من تجارب الآخرين في كتب المساعدة الذاتية، لكني لم أكن بحاجة للدراما لأني أعيشها. ببساطة لم أرغب بالتنفيس عبر البكاء في الفيلم.. لم يكن لدي كبت في ذلك أصلاً!

لكن هذه الجملة، شديدة اللؤم.

ابتلعت ريقي وقلت لليزا: قال هذه الجملة فعلاً؟

قالت ليزا: نعم، وكررت كما هي في الفيلم، بقيت في بالي لأني وجدتها غاية في الحقارة.

كانت كذلك فعلاً. تخيلت أحدهم يقولها لبلال، أو يقولها لي: ابنك مجرد غلطة في عملية التطور، عرض جانبي من تفاعل، وكل تفاعل ينتج أعراضاً جانبية لا أهمية لها.. تخيلت أحدهم يقول لي: ابنك مجرد تجربة فاشلة للطفرات الجينية.

شعرت بالغثيان. سكتُّ لثوان طويلة، ثم وجدت نفسي أغلق هذا الموضوع، أمرره، سأتظاهر أني لم-أسمع شيئاً الآن، لأن هذا سيخرب الدرس. سأتصارع مع هذه الجملة لاحقاً.

سمعت صوتي يقول: ما أكثر ما أثر بكم أو أثار انتباهكم في هذا الجزء يا أولاد؟

قال جاك بتحدٍ: أثار انتباهي أن* البيض ما كان يمكن لهم أن يفعلوا ذلك كله، لولا أن هناك من السود من كان يساعدهم في ذلك..

حسناً، الذنب الأبيض يجعل البعض يحاول البحث عن تبريرات، بالتأكيد ما كان يمكن للبيض أن يفعلوا ما فعلوه لولا وجود مرتزقة من السود، لكن كم نسبتهم؟ وهل هذا يستحق أن يكون مثار الانتباه أصلاً؟

قالت ليزا: الأم التي بقيت تهدهد طفلها الخيالي، مات أثناء الخطف، ولكنها بقيت تهدهده وتناغيه.

قالت إيميلي: الفتاة التي اغتصبها البحارة إلى أن ألقت بنفسها في البحر فالتهمتها أسماك القرش، كانت تعرف تماماً أنها ستموت حتماً، لكنها فضلت ذلك على الاستمرار في تعرضها للاغتصاب.

قال بوبي: انتبهت إلى أنهم كانوا متفرقين تماماً، لدرجة أن لا لغة واحدة تجمعهم، كل قبيلة أو مجموعة قبائل تتحدث بلغة واحدة ولا تعرف شيئاً عن اللغة الأخرى.. لم يكن هناك تفاهم بينهم رغم أنهم سكان مناطق متقاربة.. كلهم من غامبيا في النهاية، لا بد أن ذلك سهّل جعلهم فريسة.

قال إيدي: لم يكونوا يعرفون ماذا ينتظرهم. لم يكونوا يعرفون معنى العبودية.. لم يتخيلوها حتى، كانوا يعتقدون جازمين أن البيض سيأكلونهم وأنهم خطفوهم لأجل ذلك.. كانوا يتصورون أن البيض هم (أكلة لحوم البشر)!.. كل هذا مؤلم جداً.

قالت إيميلي: وكانوا يعتقدون أن البيض لا نساء لهم، لم يروا امرأة بيضاء مع البحارة، لذا تصوروا أن لا امرأة بيضاء، وأن هذا هو سبب اغتصاب النساء المستمر.

قال كيفن: وعيهم بالعالم كان محدوداً جداً، لم يركبوا البحر من قبل رغم أنهم لم يكونوا بعيدين عنه، تصوروا أنه نهر أولاً واستغربوا لأنهم لا يرون ضفة النهر من الجانبين.. تصوروا أولاً أن الأرض هي التي تتحرك عندما أبحرت السفينة.. كان ذلك مؤلماً جداً.

قال رايان: وضع العلامات بالحديد المحمي على ظهورهم، علامات الـ (LL)، لقد وضعوا عليهم علامة تجارية، براند، ربما بدأ تسليع الإنسان هناك، صار أولاً سلعة تباع وتشترى، ثم بالتدريج صارت قيمته بكمية السلع التي يستطيع شراءها. كل منا الآن يحمل علامة مماثلة لكن ليس بالحديد المحمي، أولئك الذين يتباهون بشرائهم أغلى العلامات التجارية ويحرصون على إظهارها، لا يختلفون في الجوهر عن كونهم (سلع) أيضاً..

هكذا هو رايان دوماً، يسكت طويلاً ثم يفجر قنبلة. لم أتمكن إلا من أن أسجل إعجابي بذكائه.

قال فريدي: كانوا في عرض البحر، ولا يزالون يأملون أن مقاتلي قبائلهم سيأتون لنجدتهم!

قال حكيم (المسلم الوحيد في الصف): كونتا كنتي وهو يطلب من الله أن ينقذه، ويعده بأنه سيصلي خمس مرات في اليوم إن فعل ذلك.. بدا لي ذلك يائساً وبائساً جداً.

قالت ليزا: إيمان كونتا كنتي أيضاً ملفت، لقد قاطع رفيقه المجاور له لأنه قال إنه لم يعد يؤمن بالله، ربما كان إيمانه بالله هو الذي جعله يصمد، حتى لو لم يحرره من العبودية..

قلت في نفسي : واو.. ربما، ربما ليس من واجب الإيمان أن يجعلنا ننتصر أو نتحرر أو حتى ننهي مشاكلنا.. لكنه يمكن أن يجعلنا نصمد خلالها.. لا ننهار..

تذكرت بلالاً الحبشي، إيمانه جعله يصمد خلال التعذيب، ثم توفرت له فرصة الحرية.. لكن إيمانه هو ما جعله يصمد..

فكرت ببلالي: ربما لا فرصة للنجاة، لكن ربما الإيمان سيجعل هذه الفترة أفضل على الأقل.

أنهى فريدي الدرس بضحكة: هذا الجزء من الرواية يجعل امتحان الرياضيات يبدو كقطعة كعك مس لاتيشا.

❑ ❑ ❑

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: رؤية جديدة للعالم

في السنوات التالية، ولمدة ١٣ سنة، بقي بلال مع المسلمين الجدد في مكة.

حدثت في السنة الخامسة، هجرة إلى الحبشة للمسلمين الذين كانوا يتعرضون للأذى، بلال لم يكن منهم، وهذا يعني أنه قد تجاوز مرحلة الاستضعاف التي كان بعض المسلمين لا يزالون يعانون منها رغم أنهم لم يكونوا عبيداً، كانوا أحراراً لكنهم كانوا ضعفاء، الحرية ليست كل شيء، فهناك مستويات مختلفة من العبودية، وبطريقة ما فإن الضعف كان مستوى من مستويات العبودية.

كان ذهاب الضعفاء من المسلمين إلى الحبشة يمثل سابقة خطيرة وتحدياً كبيراً لسادة قريش، كان للحبشة ملك قوي، وكانت لمكة أيضاً تجارة مهمة مع الحبشة، وذهاب المسلمين إلى الحبشة يمكن أن يؤثر على ذلك، خاصة أنهم ذهبوا إلى ملك مسيحي، والإسلام أقرب إلى المسيحية من وثنية سادة مكة. وقد حاول سادة قريش التوسط لدى ملك الحبشة لتسليمه هؤلاء، لكنه رفض بحزم..

عدا ذلك، فقد بقي المسلمون في مكة يدعون أقاربهم ومعارفهم وأصدقاءهم إلى الدين الجديد، لم تكن هناك استجابة كبيرة على أي حال.

وخلال ذلك كان المسلمون يتداولون آيات القرآن التي تنزل على النبي، وكانوا يتدارسونها ويحفظونها، كانت هذه الآيات تتحدث في هذه الفترة عن الكون والعالم، تعيد تصويره لهم من جديد، بعين إله واحد..

كان ذلك يشبه عملية مسح لبرنامج قديم، وتنزيل برنامج - سوفت وير جديد.

البرنامج القديم كان مليئاً بآلهة متعددة، كل منها مختص بشيء، إله

للمطر وإله للبرد وإله للحر وإله للحساب وإله للشعر وإله للصحة.. وكل قبيلة كان لها إلهها (الوطني) الذي يعبر عنها، بالضبط كما للدول اليوم نشيدها الوطني أو فريق الكرة الذي يمثلها، كانت القبائل تتمايز بآلهتها..

كانت للآلهة أحياناً رغبات متناقضة، كما سيحدث التناقض بين أي مجموعة أشخاص برغبات واهتمامات متنوعة، وكان العالم يبدو مكاناً غريباً، محكوماً بالحظ والقرعة والعبث. وهكذا كان أهل مكة يتعرفون على ما تقرره الآلهة عبر القرعة.. يقررون مثلاً أن هذا الولد هو ابن فلان.. أو أن فلانة امرأة صالحة، أو غير صالحة.. بالقرعة..

كان عالماً مشتتاً، متناقضاً، يشبه مجموعة عدسات، مختلفة الدرجات، موضوعة بلا ترتيب على عين واحدة، فلا تنتج هذه العدسات إلا رؤية مشوهة..

السوفت وير الجديد كان مختلفاً، عدسة يركبها إله واحد، هو خالق كل شيء، وبالتالي فالعلاقات بين الأشياء تمر من خلاله، العالم يبدو أوضح، ويبدو فيه منطق أكثر.. نعم ثمة شر كثير في هذا العالم، ثمة ظلم فيه، لكن هذا هو الامتحان، أن تحاول إزالة الشر.. تقليل الآلام، محو الظلم.

لا نعرف الكثير عن بلال في هذه الفترة، لا نعرف الكثير أصلاً عن أي أحد، لم يكن هناك الكثير من الأحداث التي تربط أسماء الشخصيات بحدث معين..

كانت فترة بناء مهمة، لكنه كان بناءً نفسياً، في الخارج لا يبدو شيء، لكن هؤلاء الأشخاص كان يعاد تركيبهم من جديد.. العمل كان في الداخل، وكان ممهداً لما سيأتي..

لا نعرف عن بلال إلا أنه كان من هؤلاء..

ربما، ربما فقط، في هذه الفترة، وبينما بلال يقرأ القرآن، انتبه النبي إلى موهبته..

موهبته التي سيدخل بها التاريخ..

❑ ❑ ❑

أمجد

كوبر لم يبد مكترثاً لغياب كرستين.

بل يخيل لي أنه أصبح أكثر نشاطاً عما قبل.

أنا الوحيد الذي لا أزال مكترثاً لغيابها.

لا أزال أنام على جانبي من السرير، كما لو أنها تزال تنام في جانبها.

لا أزال أتلصص على حسابها في الفيس بوك، أتابع أين ذهبت ومع من.

لم أزلها من قائمتي، كنت أدخل كل يوم وأنا وجل من أن تكون حذفتني هي

لكن لا، كريستين لا تحذفني، تريد أن تستمتع بعذابي، تكتب أنها (تستمتع بوقتها مع الأصحاب)، تكتب في حالتها أنها ترمي الماضي بكل أغلاله وراءها، وتتجه لحياة أجمل.. يخيل لي أنها فقط تريد إيلامي.. أحاول أن أرى في ذلك شيئاً إيجابياً.. إنها لا تزال مهتمة بي. لا أزال مثيراً للشفقة. لكني لم أتصل بها أبداً.. حذفت رقمها مجدداً بعد الرسالة التي قالت لي فيها أنها أخذت حاجياتها وأن أبقي كوبر.

كوبر، ورقتي الأخيرة، أريد منها لو أن تطمئن عليه.. أقول لعلها تتخذه حجة لكي تعيد العلاقة، أي شيء..

مثير للشفقة. مثير للشفقة.

□ □ □

وذات ليلة، استيقظت في منتصف الليل وفتحت هاتفي على صفحتها في الفيس بوك.

وجدتها قد غيرت حالة علاقتها.

كتبت: في علاقة.

طيلة السنوات التي بقينا فيها معاً، كانت تترك ذلك الخيار فارغاً.

اليوم هي في علاقة.

مثيراً للشفقة كنت.. مثيراً للرثاء.

لم أجد أن السكر يمكن أن يقدم لي الحل لألمي. كنت ببساطة بحاجة لشيء آخر. لم أكن بحاجة لأنسى، لم أكن بحاجة لمسكن آخر.. كنت بحاجة إلى أن أواجه نفسي. أن أستأصل إدماني لكريستين.

كان ألمي هذه المرة في شيء أعمق من الجسد. كان في شيء ربما كان هو ما يسميه الآخرون: روح.

كنت أستشعر ذلك.

قلت، لو كان ثمة روح، فلا بد أن يكون ثمة إله..

ولو كان ثمة إله، فلا بد أن يسمعني.. أن يشعر بي..

لا أدري كيف قلتها، لكني قلتها..

قلت له، لهذا الإله الذي لا أؤمن بوجوده: ساعدني. ساعدني.

لا أعرف كيف قلتها. لكني قلتها. سمعت صوتي وأنا أقولها..

بقيت لفترة وأنا في حالة تشبه الإغماءة، لم أكن غائباً عن الوعي تماماً ولكني لم أكن في وعيي التام.

لا أعرف كم نمت، لكني استيقظت بصداع فظيع، دخلت الحمام وتقيأت مرتين. أخرجت كل ما في جوفي كما لو كنت قد أثخنت في الشرب.

صباحاً استيقظت وأنا أفضل بكثير كما لو أن كريستين خرجت مع القيء. على الأقل خرج جزء منها.

سألت نفسي: هل حقاً صليت إلى إله لا أؤمن بوجوده؟

وهل حقاً نفعني هذا؟!

❒ ❒ ❒

كنت قد خططت مسبقاً للبدء في الكتابة عن مرحلة الهجرة، في قصة بلال الحبشي وذلك عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، وبدأوا بتأسيس مجتمعهم هناك ، في بيئة كانت أكثر تقبلاً للتوحيد..

وجدت ذلك مثل إشارة لي. إشارة إلى البدء من جديد.

أخرجت كوبر، في مشواره اليومي، وقد صرت أكثر تقبلاً له. صار هو أيضاً أكثر تقبلاً لي. ووجدت في ذلك انتقاماً ولو رمزياً من كريستين. كوبر صار يحبني، ربما أكثر مما يحبها.

فكرت أن عليَّ أن أبدأ صفحة جديدة من حياتي، بعيداً عن كريستين. دون أن أفكر بها.

أعدت إلى نفسي كل النصائح التي وجدتها بعد البحث من خلال غوغل عن طرق تناسي وتجاوز (الحبيب السابق أو الحبيبة السابقة)، النصائح التي تساعد على نسيان الحبيب، كانت النصائح صعبة جداً: أولها.. لا تتصل لمدة شهر..

من يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة، ما حاجته إلى النصائح؟

اخرج مع الأصدقاء، لا تسمع أغاني سمعتموها معاً (يعني هذا عدم سماع كل الأغاني تقريباً)..

كنت قد أحرزت تقدماً في هذا كله بالفعل.

لكني كنت بحاجة إلى شيء مختلف. شيء أكثر جذرية. لم أكن بحاجة للتخلص من كريستين. كنت بحاجة للتخلص من أمجد حلواني الذي أحب كريستين هذا الحب المرضي.

أمجد الذي وقع في حب كريستين كان شخصاً يجب أن أتخلص منه أكثر مما عليَّ أن أتخلص من كريستين، لأنه ببساطة سيكون معرضاً لأن يقع مرة أخرى في علاقة مماثلة، أو يبقى ينوح مثل الأطفال على ذهابها.

أمجد الذي كان يبدو مؤمناً بلا شيء سوى المادة، الذي كان يدعي أن دينه هو التطور وأن نبيه هو داروين وحواريه هو داوكنز، هذا الأمجد المادي

الواقعي البراغماتي، كان يخفي خلف أقنعته الصلبة ضعفاً كبيراً، كان لديه نقص كبير في شيء ما، تمكنت كرستين من التسلل من خلاله، أو لعلها لم تتسلل، لعله هو من قادها إلى ذلك.. ولكن كان ثمة خلل كبير في الداخل، جعله يسقط ضحية لها.

نعم، كنت أعرف أنها لم تكن مجرد علاقة فاشلة، وأن كرستين قد لا تكون مجرمة جداً لهذا الحد. كنت أعرف أن هذه العلاقة التي استهلكتني واستعبدتني، كانت دليلاً على نقص ما، خلل ما، جوع ما أو حاجة ما في أعماقي..

وكان لا بد لي من مواجهة هذا.

عندما عدت إلى البيت، وفتحت الحاسوب لأبدأ البحث عن الفترة الجديدة من حياة بلال الحبشي، وجدت هذا العنوان: بداية جديدة.

كان هذا ما أحتاجه.

□□□

لاتيشا

يمكنك أن تتحدثي لاتيشا.. قال لي، ماثيو، قائد مجموعة الدعم التي أحضرها.

وقفت، ابتسمت. وقلت:

"مرحبا. اسمي لاتيشا. في الخمس عشرة سنة السابقة، مررت بعدة مجموعات دعم. استفدت منها جميعاً.

كنت أولاً في مجموعة دعم للزوجات المضطهدات، جسدياً وعاطفياً.

ثم أصبحت لاحقاً في مجموعة دعم للأمهات العازبات.

ثم أصبحت معكم هنا، في مجموعة دعم أمهات أطفال السرطان.

اليوم عليّ أن أبدأ بالبحث عن مجموعة دعم أخرى..

عن مجموعة دعم للأمهات اللواتي تأكد إقبال أولادهن على الموت.

بلال، يملك أشهراً فقط. نسبة النجاة: صفر بالمائة".

دمعت عيني، ولكني ابتسمت. لم أفتعل الابتسامة، كنت أحاول أن أبتسم للواقع الجديد الذي يقترب كل يوم. لكني لم أكن أستطيع منع عيني من أن تدمع مع كل ابتسامة.

كانت هناك كلمات تشجيع إيجابية كثيرة. كنت ألمح التعاطف والخوف في عيون الجميع، التعاطف معي، والخوف من أن يكون أي أحد منهم في مكاني ذات مرة قادمة. يبحث عن مجموعة دعم لأولياء أمور الأطفال المقبلين على الموت.

احتضنني الجميع بود وحنان، لمحت بعض الدموع، وبكى ماثيو بوضوح، لم أكن تلك العضوة النشطة دائمة الحضور، لكنها كانت سنتين بعد كل

شيء. سنتان ترك فيها المجموعة من تركها، أحياناً لوفاة الطفل، وأحياناً لشفائه.. وأحياناً اختفى البعض دون أن يقولوا شيئاً.

كنت دائماً أفكر بالمتغيبين، الذين كفوا عن الحضور، أحاول أن أتخيل أنهم إنما حصلوا على التأكيدات تلو التأكيدات أن السرطان قد غادر إلى غير رجعة. كنت أحاول أن أتخيل ذلك كي أتخيل نفسي بعدها في وضعهم. تركت المجموعة لأن السرطان ترك بلالاً.

أحببت أن أوضح لهم السبب، كي لا يبني أحدهم الآمال على غيابي. ويتخيل أن بلالاً هزم السرطان.

لا، لقد هزمنا.. كما يحدث مع الكثيرين..

كل ما في الأمر أن وجود نسب نجاة عند البعض تجعلهم يواصلون، يحاولون، يقولون إن لديهم فرصة أن يكونوا من ضمن الثلاثة من عشرة.

نحن عرفنا أن لا داعي للمواصلة.

صفر بالمائة.

❑ ❑ ❑

نظرت لي ماغي مطولاً، وقالت لي بود: ماذا قررتِ، لاتيشا؟

كنا في قاعة الطعام، نتناول الغداء. أخذتني ماغي إلى طاولة منعزلة قليلاً، ربما كي تسألني هذا السؤال.

كنت ساهمة فعلاً. سألتها: قررت بخصوص ماذا؟

"تعرفين، بخصوص بلال، هل ستخبرينه".

كنت أحاول تأجيل الأمر، منذ عشرة أيام وأنا أهرب من الأمر.

قلت لها "سأقرر في عطلة نهاية الأسبوع".

ابتسمت ماغي وقالت "هل أخذت موعداً مع نفسك في نهاية الأسبوع يا لاتيشا؟".

موعد مع نفسي؟ أشك أن نفسي لديها الوقت لأي موعد.

قلت: تقريباً، سأقوم بالركض work out وأفرغ كل توتري، وأفكر أثناء ذلك.

قالت ماغي: work out؟! عندما كنت صغيرة، كنت أقول لنفسي إن الورك آوت صرعة وستنتهي قريباً، كنت آمل ذلك كي أواصل حياتي بضمير مرتاح أكثر، للأسف بعض الصرعات تبقى أكثر من غيرها.. لكني تعودت على ضميري.

ثم قالت: "لا أعرف الكثير عن work out يا عزيزتي كما تعلمين، لكني أريد أن أقول لك شيئاً عن work in.. لو كنت مكانك – وأنا أعرف أن مكانك صعب جداً، كان الله في عونك - لو كنت في مكانك، لأخبرت بلالاً، لن يكون ذلك سهلاً أبداً، لكني كنت سأخبره.. كنت سأخبره، لديه أشهر فقط ليعيشها، ولذلك عليه أن يعيشها بكل ما فيها، بكل أبعادها، بأقصى ما فيها.. لديه أشهر فقط، لتكن إذن الأشهر التي يحقق فيها ما يتمناه لعشرين عاماً أو أكثر، دعيه يقول ماذا يريد، وابذلي كل ما في وسعك لتحقيق ما يريد.. البعض يموتون وهم يكافحون، دعيه يموت بسلام ما دامت المعركة خاسرة، ولكن دعيه أيضا يعيش ما دام لم يخسر بعد، دعيه يعيش حياة رائعة!"

كنت أبكي.

"تعرفين ما كتبه جون كيتس لحبيبته فاني براون؟ قال لها: أتمنى لو كنا فراشات لم تعش إلا ثلاثة أيام، ثلاثة أيام صيفية معك تحتوي من السعادة على أكثر ما يمكن لخمسين عاماً اعتيادية أن تحتويه".

جون كيتس مات في الخامسة والعشرين، في الخامسة والعشرين فقط، لكنه عاشها بمنطق الفراشة، مات قبل أن يموت أغلب شعراء عصره، لكن شعره عاش أكثر منهم جميعاً بمراحل، كانت لديهم الفرصة لينتجوا أكثر، لكنه أنتج ما هو أهم، من شعراء عصره اليوم هو الأهم، رغم أنه مات بنصف معدل أعمارهم..

الفراشة تعيش حياة قصيرة جداً يا لاتيشا، لكن رائعة جداً.. رائعة جداً".

دق الجرس. كان مثل جرس المنبه داخل رأسي. مثل صفارة إنذار.

احتضنتني ماغي وهي تقول: اعملي على ذلك في الداخل.. اعملي على ذلك في الداخل يا عزيزتي..

HONEY WORK IT IN , WORK IT in

عندما ركضت في نهاية الأسبوع، كنت أعمل على ذلك في الداخل.

وكان جرس المنبه لا يزال يدق في رأسي.

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: الهجرة إلى عالم جديد

أعترف لك يا بلال أني لست مسلماً (جيداً).

في الحقيقة، من الصعب جداً اعتباري مسلماً على الإطلاق.

لقد ولدت لأبوين مسلمين، ولكني قضيت أكثر عمري وأنا لا أعرف ذلك أو معنى ذلك، لم يكونا متدينين قط، بأي دين، باستثناء في أواخر حياتهم.

لست هنا بصدد شرح إيماني أو لا إيماني، لكني أريد أن أقول، أني رغم عدم (تديني) – هذا أقل ما يمكن ان أقوله الآن- إلا أني كأمريكي، كنت أجد شيئاً ما دوماً، في الهجرة، في هجرة المسلمين، من مكة إلى المدينة.

كأمريكي، يؤمن بأمريكا، لم أكن أستطيع الهرب من المقارنة، بين الهجرة التي صنعت أمريكا، بين تجمع أشخاص من مختلف الأعراق ومن كل بقاع العالم، وتوحدهم على ما نسميه اليوم (الحلم الأمريكي)، لم أستطع أبدا الهرب من المقارنة، بين هذا الحلم، وبين هجرة المسلمين إلى مكان جديد، يبدؤون فيه من جديد، كانوا أيضاً مختلفين، من أعراق مختلفة، كان فيهم الرومي، والفارسي، والأثيوبي، وكانوا من قبائل مختلفة يوم كانت القبيلة مثل الجنسية اليوم.. تجمعوا جميعاً على، لن أقول إنه حلم واحد، ولن أقول إنه كان شيئاً يشبه الحلم الأمريكي، لكنهم تجمعوا أيضاً على إيمان ما.

الحلم الأمريكي إيمان أيضاً بطريقة ما.

لا ألعب بالألفاظ هنا، نعم ربما كان الإيمانان متناقضين، أو مختلفين على الأقل، ربما كان الحلم الأمريكي إيماناً بالمادة، والهجرة التي هاجرها المسلمون كانت إيماناً بالغيب، بعكس المادة.. أفهم هذا طبعاً، هذا خلاف جوهري، لكن هناك ما هو مشترك..

في الهجرتين، في الحلمين، في الإيمانين، هناك شيء مشترك. إنه: أن تؤمن بنفسك..

في الحلم الأمريكي، الإيمان بالنفس أساسي، إنه الداينمو طبعاً.

في الهجرة إلى المدينة، التي بدأ بها تقويمهم لاحقاً، كان هناك أيضاً الإيمان بالنفس، إنه أن تؤمن أنه بإمكانك أن تتخلص من قيود انتمائك السابق، القبلي أو العرقي، وتبدأ من جديد.

في أمريكا، الجميع متساوون. كلمة (إنسان) أو (رجل) التي وردت في الدستور، فسرت لاحقاً بأنها كل إنسان، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو أي شيء آخر..

كان الأمر مشابهاً في المدينة، الكل متساوون. لا لون ولا قبيلة ولا عائلة غنية أو فقيرة.

بلال، ومكانته عند المسلمين، وهو الأثيوبي الأسود.. دليل تاريخي على ذلك.

كانت (البداية الجديدة) أيضاً مشتركاً واضحاً، بين الحلمين، أو الهجرتين.

وكما غيرت أمريكا العالم..

فقد كانت المدينة وقتها، تغييراً أثر على العالم، فقد كان للحضارة الإسلامية وقتها المزدهر الذي أسهمت فيه في جعل العالم أفضل، رغم ما انتهت له الأمور اليوم من نتائج سيئة جداً.

لا أقارن هنا بين الأمرين، السياقات مختلفة، وأنا لا أؤذن بدين أساساً..

لكني لا أستطيع الهروب من وجود بعض نقاط التشابه..

❑ ❑ ❑

المكان الذي هاجر له المسلمون، هو المدينة. كان اسمها أولاً (يثرب).. ثم تغير بالتدريج إلى المدينة، وكان ذلك يعني أنها أصبحت مثل (المدينة) الأهم،

المدينة مع أل التعريف، بالحروف الكبيرة.

تبعد المدينة ٤٠٠ كيلومتر عن مكة، المسافة لا تبدو بعيدة جداً اليوم، لكنها كانت بعيدة بما فيه الكفاية لتقدم الأمان والحماية في ذلك الوقت وحسب وسائل المواصلات في ذلك العصر..

لماذا المدينة بالذات؟

لأن سكان المدينة، وهم أصلا من قبيلتين متحاربتين متنازعتين، كانوا أكثر تقبلاً للإسلام، ولدعوة التوحيد، وترك الأصنام، من سكان مكة.

انتشر الدين الجديد في هذه المدينة حتى لم يكن هناك بيت فيها إلا وفيه من أسلم، وكان ذلك يتزايد بالتدريج خلال السنوات الأخيرة من بقاء المسلمين في مكة.

وهكذا فالدعوة التي لم تجد قبولاً واسعاً في مكة، وجدت نجاحاً في المدينة.. حتى صار (المسلمون) فيها غالبية، وعرضوا الحماية والإيواء على مسلمي مكة، ومن ضمنهم النبي محمد، ومن ضمنهم بلال الحبشي أيضاً بطبيعة الحال.

لكن لماذا؟ لماذا حدث هذا هنا ولم يحدث في مكة؟

الأمر الأول، هو وجود أحياء لليهود في المدينة، كان اليهود سكاناً أصليين للمدينة، وكانوا يختلطون بطبيعة الحال ببقية سكان المدينة، وكان هؤلاء بدورهم يعرفون الكثير عن معتقدات اليهود، عن الإله الواحد، عن نبذ الأوثان.

هذا جعلهم أكثر تقبلاً لفكرة التوحيد وترك الأوثان.

بل إنهم ربما كانوا يلاحظون تقدم اليهود عليهم في مجالات عديدة. فربما ربطوا هذا التقدم بالالتزام بدين وبكتاب..

هل كان أهل مكة لا يعرفون اليهود؟ لا نعرف عن وجود (سكان) يهود في مكة. لا نعرف عن وجود (حي) لليهود فيها، كانت مكة مركزاً تجارياً مهماً، وكان اليهود لا بد يمرون بها، لكن لا نسبة لهم مهمة بين سكانها، وهذا ما جعل أهل مكة أقل تقبلاً للتوحيد، لأنهم أقل معرفة بها..

أهم من هذا، على الأقل بالنسبة لسادات مكة، كان التوحيد يهدد مكانة مكة التجارية، لأن مكة كانت تضم الكعبة (بيت إبراهيم) التي وضع فيها سادات مكة كل أصنام العرب ليجذبوهم في مواسم التجارة.

كان التوحيد يلغي الأصنام، وبالتالي يلغي التجارة والأرباح.

لذا كان موقف أهل مكة سلبياً جداً من الدعوة الجديدة.

أما أهل المدينة، فقد كانوا أكثر تقبلاً.

وهكذا، بدأ المسلمون يتسللون سراً إلى المدينة، وبالتدريج، وكا آخر من بقي في مكة هو النبي نفسه، إلى أن أطمئن إلى خروج كل المسلمين إل المدينة.

وعندما وصل النبي إلى المدينة، كان ذلك إيذاناً بوضع جديد فيها.

ومن ثم وضع جديد في الجزيرة العربية.

❐ ❐ ❐

أول ما فعله المسلمون في المدينة كان بناء المسجد.

تقوم الصلاة بدور فاعل في حياة المسلمين، وهي بمثابة دورة انضباط وتهذيب خمس مرات في اليوم، وهو أمر كان غريباً جداً على العرب الذين كانت حياتهم فوضى كبيرة قبل ذلك.

وكان بناء المسجد، مكان الصلاة، هو الخطوة الأولى في التأسيس الجديد، ليس فقط لما للصلاة من أهمية بالنسبة للمسلمين، بل لأن هذا المسجد كان أيضاً مؤسسة اجتماعية، مركز اجتماعي، لنقل إنه كان مثل النادي الاجتماعي، يلتقي فيه المسلمون خمس مرات في اليوم، ربما أقل أو ربما أكثر.

كان هذا اللقاء سيساهم في جعل العلاقات أكثر متانة بين أعضاء المجتمع الجديد، سيجعلهم أقرب وأكثر تماسكاً.

خمس مرات كل يوم.

❐ ❐ ❐

لكن كيف كان سيعلن عن وقت الصلاة؟

هنا سيأتي دور بلال.. هنا ستأتي فرصته التاريخية.

عن عبد الله بن زيد قال:

لما أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناقوس يعْمَلُ ليُضْرَبَ به الناس لجمع الصلاة: طاف بي وأنا نائم رَجل يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله! أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟! فقلت له: بلى، قال: فقال:

تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: ثم استأخر عني غيرَ بعيد، ثم قال: ثم تقول إذا أقمتَ الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامتِ الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله الا الله. فلما أصبحت: أتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته بما رأيت: فقال:

إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال: فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به: فإنه أندى صوتاً منك". فقمت مع بلال، فجعلت أُلقيه عليه ويؤذن به، قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته: فخرج يجرُّ رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله! لقد رأيت مثل ما أُري! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"فلله الحمد".

كان اليهود يعلنون عن صلاتهم بالبوق.. وكان المسيحيون - ولا يزالون- يعلنون عن القداس عبر الناقوس.

وكان النبي يريد شيئاً متميزاً، شيئاً يميز التجربة الجديدة عن سابقاتها..

ثم جاء الاقتراح من أحد المقربين من النبي.. الصوت البشري.

أطلق الصوت البشري. اجعله هو الذي ينادي للصلاة.

استعمل صوتك..

راقت الفكرة للنبي، ربما كانت متلائمة مع جوهر دعوته، المشاركة الإنسانية في الفعل والتغيير.

ولكن عندما جاء فكرة الصوت..

التفت إلى بلال..

كانت حنجرة بلال، قد شدته، ربما من قبل أن يسلم، ربما منذ صوته يقول وهو يسحل (أحد، أحد).

ولكن لماذا اختير بلال يا ترى ليكون هو المؤذن للصلاة؟

هل لأن صوته كان جميلاً حنوناً، قوياً فحسب؟

أم لأن كلمات الأذان، ستخرج على نحو أوقع، عندما تخرج من حنجرة مرت بالعبودية وكانت "لا إله إلا الله" سبباً في حريتها؟

الكلمة التي قالها النبي عن صوت بلال أنه (ندي).. والكلمة تعني أنه مبلل بماء المطر، الأرض الندية هي المبللة بماء المطر والمستعدة للنمو والثمر..

إنها الأرض الخصبة، المستعدة لاستقبال البذرة واحتضانها..

وهكذا كان صوت بلال.. خصباً، مستعداً للنمو، لاحتضان الفكرة.. مستعداً للإثمار بها..

وهكذا، لو فكرنا بتمعن، كل موهبة حقيقية..

كل موهبة حقيقية مثل الأرض الخصبة.. يمكنها أن تثمر.. يمكنها أن تزهر..

لكن الأمر يعتمد دوماً على ماذا ستضع من بذور..

ربما ستضع القمح.. وربما ستضع الأفيون..

□ □ □

بلال الحبشي

نعم..

كادت تقتلني الحمى، عندما خرجت من مكة.

كدت أموت شوقاً لها.

مكة التي سُحلت فيها، مكة التي عُذبت فيها، مكة التي اضطهدتني..

مكة التي يفترض أن أفرح بالخروج منها.

مكة التي يجب أن أشعر بالحرية بمجرد خروجي منها.

لكن، ها أنا أتفصد عرقاً من الحمى، منذ أن تركتها.. ها أنا أنشد الشعر في الشوق لها.

لم يكن من المفترض أن يحدث هذا.

لكن مكة.. مكة التي استعبدت فيها وسحلت وعذبت، هي نفسها التي أسلمت فيها، هي نفسها التي تحررت فيها، هي نفسها التي وجدت نفسي فيها..

مكة التي سخرت مني يوماً ما، التي حرمتني من أبي، هي نفسها التي اكتشفت فيها قيمة نفسي، التي وجدت فيها ما عوضني عن الأب..

مكة التي كنت فيها مجرد (شيء) يباع ويشترى، هي نفسها التي عرفت فيها معنى أن أكون إنساناً، هي نفسها التي عرفت فيها أن لا فضل لأبيض على أسود على أحمر..

مكة التي عيرتني بالسواد، هي نفسها التي علمتني أن سوادي يساوي بالضبط بياض أي رجل آخر، وأن ما يجعلني أفضل أو أسوأ منه، هو ما تحت جلدي، هو ما في عمقي وليس على سطحي، هو ما أفعله في حياتي وليس لوناً أولد به، وأرثه دون خيار من أبوي.

مكة التي أفتقدها هي مكة التي سمعت فيها القرآن.. هي مكة التي اقتحم فيها القرآن قلبي وقلب في داخلي كل شيء رأساً على عقب.. أتذوق الشعر أنا، وأنشده، وأغنيه، لكن هذا القرآن شيء آخر، وحي السماء الذي ينقلنا إلى السماء، لا، وحي السماء الذي يجعل الأرض أفضل.. جعلني أنا أفضل.

مكة التي أفتقدها، هي مكة التي عندما رتلت القرآن فيها، فهمت كيف أن صوتي يصبح أجمل، وأعمق، وأكثر خصباً..

نعم. أفتقد مكة. مريض أنا بالشوق لها. لست وحدي. أبو بكر، الذي أعتقني، مريض بالشوق لها أيضاً. نقول إن جو يثرب لم يناسبنا. لكن الحقيقة هي أن فراق جو مكة هو الذي لم يناسبنا.

أعرف أني سأتعود. أعرف أني سأحب المدينة. وأني ربما ذات يوم سأحبها أكثر من مكة. لكني الآن، بعيد بعيد عن هذا.

أكاد أهذي شعراً يحن إلى مكة.

مكة التي وجدت نفسي فيها. مكة التي وجدت فيها قضية حياتي. وجدت فيها معنى أن أكون.

لا حقد عندي على أهلها. لا شيء إلا ضد كبار الملأ من ساداتها. أولئك الذين اضطرونا إلى الخروج من مكة.

نعم.. لا مشكلة لديّ في كرههم. لا يتعارض هذا مع إيماني ولا مع حبي لمكة.

عتبة وشيبة، وأمية.. أولئك الثلاثة، الأكثر ظلماً وفجوراً في مكة، لا مجال إلا للعنهم.. أو كرههم.. أولئك الذين جعلونا نترك مكة..

سأتعود، أعرف ذلك.

سأشفى من الحمى.. وربما سأحب المدينة أكثر مما أحببت مكة..

أعرف ذلك.

□ □ □

أمجد

لا بد أنه سيسألني ذلك السؤال.

لا بد أنه سيسألني، ماذا كان بلال سيقول في النداء للصلاة.

لا بد أنه سيطالب بتوضيح.

في كل ما سبق، كنت أتحدث دون أن أشعر بأني أناقض نفسي، كملحد.

كنت أتحدث عن تجربة إنسانية، عن دعوة اجتماعية كانت لها إيجابياتها وآثارها على مجتمعها وعلى العالم، تعاملت مع التجربة باعتبار أن الدين ظاهرة اجتماعية، تنتج من المجتمع نفسه، ولا تنزل عليه من السماء. طبعاً لم أقل ذلك لبلال، لا يمكن أن تقول ذلك لمقبل على الموت في أولى سنوات مراهقته.

لكني لم أقل عكس ذلك. كنت أحاول أن أكون محايداً، مع تركيز على الإيجابيات، لكن دون أن أتحدث عن (الله).. لأني ببساطة سأكون كاذباً.

تحاشيت ذلك طول هذه المدة.

الآن، عليَّ أن أواجه الأمر.

سؤال بلال قادم لا محالة.. سيسألني عن الكلمات التي كان بلال الحبشي يقولها في النداء للصلاة، بأي شيء كان يرفع صوته؟

أتأمل في الكلمات.

تتربص بي. لا مفر من مواجهتها.

بالنسبة لي كان الأمر دوماً "لا إله".

والكلمات التي كان بلال الحبشي يصدح بها تبدأ بـ "لا إله.. إلا الله".

بين (لا إله) وبين (إلا الله) مسافة شاسعة. لن أستطيع أن أتجاهلها. لن أستطيع أن أعبر عن الأمر كما لو كان ظاهرة اجتماعية وأتحدث عن إيجابيات هذه الظاهرة ثم أن أقول ببساطة أن "لا إله".. وهو أمر لا أعتقد أنه إيجابي في حالة بلال.

لن أستطيع الهرب من الأمر.

هل يمكنني أن أتجاهل سؤاله؟

هل أؤجل الأمر إلى أن يسأل.. أم أستعد له؟

حاولت أن أشغل نفسي بتصحيح بعض الأوراق التي أحضرتها معي من الكلية. وأعدت العرض التوضيحي المصاحب لمحاضرة قادمة عدة مرات، أخرجت كوبر وفكرت أن كريستين ربما نسته وأنها لم تشتره أصلاً إلا لإزعاجي. لا أزال أفكر بكريستين. لا أزال أدخل إلى صفحتها على الفيس بوك. أقل. لكن لا أزال.

عدت إلى البيت وتفقدت رسائلي، لم أجد شيئاً من بلال.

هل سيسأل هذا السؤال..

أم تراني أنا من أسأل.

ترى السؤال عندي أنا، تراني أنا من يبحث عن الحسم بين (لا إله) و بين (لا إله إلا الله) وأجد حجة في أسئلة بلال كي أخوض في أمور كنت أتظاهر أنها كانت محسومة دوماً.

هل كانت محسومة حقاً؟

هل كنت ملحداً، أم أني كنت شكاكا يتظاهر بالإلحاد؟

كانت كريستين تقول إن الإيمان بالله هو مثل (غطاء أمان) اخترعه البشر.

حسناً. يبدو لي أن الإلحاد هو شيء مماثل.

بالنسبة لي كان الإلحاد غطاء أمان. شيئاً وضعته لأتخلص من اللا جواب. من الحيرة.

الإيمان والإلحاد يتشابهان في أنهما يقدمان حسماً. وهذا بحد ذاته (غطاء أمان).

أن تكون في الوسط، هو المشكلة الحقيقة، أن تكون لست متأكداً من وجود الله أوعدمه.

الوسط، المنطقة المحايدة، التي لا جواب فيها، رغم وجود أسئلة، هي المنطقة المتعبة، هي المشي على الزجاج المكسور.

عندما كنت أعتقد أني ملحد، كنت بطريقة ما مرتاحاً أكثر من حالة الشك التي أمربها الآن. كنت قد قفلت الأمر. أغلقته. الأمر محسوم. لا إله.

اليوم أنا لا أعرف.

أفهم كيف أن الإيمان والإلحاد، معاً، هما غطاء أمان بطريقة ما.

لو آمنت الآن، لارتحت.

ولو عدت إلى الإلحاد، لارتحت أيضاً.

حالة الوسط هي المرعبة المتعبة.

برق شيء في بالي فجأة. ونبح كوبر كما لو أنه أدرك ذلك.

إذا كان الإلحاد هو غطاء أمان أيضاً مثله مثل الإيمان، وإذا كنا نقول إن الإيمان هو مخترع بشري من أجل ذلك بالتحديد، فلِمَ لا يكون الأمر ذاته قد حدث مع الإلحاد؟

من قال إننا لم نخترع الإلحاد كغطاء أمان أيضاً؟

تذكرت عبارة لداوكنز قال فيها: أمر محزن أن لا يكون للحياة هدف، ولكني أتوقع وجبة غداء جيدة.

انتبهت لأول مرة إلى أن الإلحاد هو، كما كانت تقول كريستين عن الإيمان، غطاء أمان.

كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل.

انتبهت أيضاً إلى أن هذا الغطاء مليء بالثقوب.

وانتبهت إلى أن كوبر كان ينبح، لأنه كان يريد أن يقضي حاجته.

كان يريد.

ثم قضاها.

تباً لك كريستين.

❑ ❑ ❑

مسكينة أمي. تريد أن تقول لي شيئاً منذ أيام. أرى ذلك في عينيها. لكنها لا تستطيع. أعرف تماماً ما تريد أن تقوله. تريد أن تخبرني أني سأموت. أتخيل أن ذلك صعب جداً عليها. لكني لا أرى أن الموت بهذا السوء. أعني ما الذي يمكن أن يحدث حقاً؟ ستنطفئ الأضواء فجأة ولن أشعر بشيء غالباً. وإذا كانت هناك حياة بعد الموت، فلا أعتقد أني سأذهب إلى مكان سيئ، غالباً سيكون أفضل من غرفة العلاج الكيمياوي. سأسأل أمجد عن ما بعد الموت. رغم أنه من المؤكد لم يمر بهذه التجربة.

لذا لست حزيناً البتة لأني سأموت. لا يبدو الموت محزناً لهذه الدرجة. أنا حزين فقط لأن أمي حزينة. غالباً ستفتقدني. تبكي كثيراً لكنها تحاول إخفاء ذلك. وتفشل في ذلك. جيد أنها معلمة وليست ممثلة، كنا سنصبح في الشارع على الأغلب لو كانت تعمل في التمثيل.

تحاول أن تتصرف كما لو أن لا شيء هناك وأن الأمور بخير، لكن كل ما تفعله يشير إلى عكس ذلك. لو أني لم أكن أعرف أني سأموت أصلاً، كنت عرفت من تمثيلها السيئ. كل الأمهات سيئات في التمثيل على ما أعتقد. يبقين أفضل من الآباء بكل الأحوال، الذين لا يحضرون البروفات أصلاً. أو هم كومبارس فقط.

أريد أن أساعد أمي. أريد أن أزيح العبء عن كاهلها. أن أقول لها إني أعرف. فتنهار باكية أمامي وتحتضنني ثم تواصل حياتها ولو بحزن ولكن ليس كقطة على سطح صفيح ساخن.

قطة على سطح صفيح ساخن، يا للتعبير.. كان ذلك فيلماً شاهدت جزءاً منه على قناة الأفلام الكلاسيكية. لكن أمي تبدو كذلك فعلاً. كانت ستقوم بدور القدلة أفضل مما فعلت تلك الممثلة.

أريد أن أزيحها عن هذا الصفيح الساخن.

أريد أن أقول لها إني أعرف وإن الأمر ليس سيئاً لهذه الدرجة. هل أقول لها إني سعيد بالأمر كي أخفف عنها، أم أن هذا سيكون تمثيلاً سيئاً مثل تمثيلها؟

هل أعترف لها أني كنت أدعو الله فيما سبق كي أموت؟ كيف سأشرح لها ذلك. سيكون معقداً جداً. ولا أعتقد إلا أنه سيزيد سخونة الصفيح الذي تتقلب عليه.

لا أشعر فعلاً بخوف كبير من الموت.

أشعر قليلاً بحسرة. كان يمكن أن أعيش حياة أفضل.

لكن أظن أن هذا ما كان سيجعلني أقل تقبلاً للموت القادم بعد أشهر.

إذن حياتي السيئة لم تكن سيئة لهذا الحد.

❑ ❑ ❑

لاتيشا

"أنا أعرف يا أمي".

هكذا قال لي بلال دون أن ترمش عيناه.

سقط قلبي في الفراغ. كنا نتناول العشاء، وكنت للمرة الألف أفشل في أن أخبره. أفشل في أن أمسك الخيط الأول للبداية، لو فقط كان يمكنني أن أمسك هذا الخيط، لكان من الممكن لي أن أخبره، لكن بدا هذا الخيط كما لو أنه صنع من نار جهنم. كنت أتحدث دون انقطاع عن المستر ويد وماغي ووبي والطلاب وكل شيء، أتحدث دون انقطاع كي لا يشعر أني أريد أن أقول شيئاً له.

قاطعني ليقول: أنا أعرف يا أمي.

جف الدم في عروقي. يخيل لي أني أصبحت بيضاء فجأة.

"تعرف ماذا؟"

كنت مستعدة تماماً لإنكار كل شيء، بلال يعطيني الخيط بيده، وأنا سأنكر وأقول له إنه فهم خطأ، وإن كل شيء سيكون على ما يرام.

فجأة بدا لي أني في حالة إنكار، وأني سأنكر أمام بلال لأني أنكر الأمر أصلاً في أعماقي. لا أريد مواجهته. لا أريد تصديقه.

ابتسم بلال بخبث.

"أعرف كل شيء. رأيت كل شيء".

هل يكون رأى التقرير الطبي الذي أرسل لي عن نتيجة الفحص؟ كيف رآه؟ لقد حذفته فوراً من بريدي الخاص بعد أن أرسلته إلى بريد المدرسة لأحتفظ به هناك في مأمن، حيث لا يعرف بلال كلمة السر للدخول له.

وحتى لو رآه، التقرير لا يتحدث بوضوح عن حالته، يعطي أسماء وأرقاماً وأشياء من الصعب تحليلها وفهمها على هذا النحو.

قلت له بصوت يسمع بالكاد: ماذا رأيت؟ الأمور بخير.. كل شيء سيكون بخير..

كنت على وشك النهوض لاحتضانه والبكاء وهو على صدري، لكنه ابتسم بخبث أكبر وقال:

"عرفت أنك تخططين لقضاء عيد الميلاد في ديزني لاند.. سيكون هذا أجمل عيد ميلاد في حياتي".

أوه! هذا إذن.

تنفست الصعداء. لا بد أنه قرأ رسالة الدكتور تشونغ بالموافقة على الرحلة أو شاهد تأكيد الحجز وهو يصل إلى بريدي. كنت أريدها مفاجأة له. كنت أريد أن أحقق له أمانيه كلها، كان يريد أن يذهب منذ سنوات إلى ديزني لاند، ولكني كنت غارقة في تسديد قرض الجامعة، وفي تسديد القروض التي اقترضتها لتسديد قرض الجامعة.. بدت ديزني دوماً مكلفة بالنسبة لي كأم عزباء.

لكنها ليست كذلك بالنسبة لأم عزباء سيموت وحيدها بعد أشهر.

هذه المرة، رغم أن الكلفة مضاعفة بسبب موسم عيد الميلاد، إلا أني لا أتردد.

فلأحقق له كل ما يمكنني تحقيقه من أحلامه. كان يريد ديزني قبل سنوات ثم سكت عن الأمر، أعرف أنه دخل في مرحلة عمرية مختلفة، لكن ديزني فيها ما يهم كل الأعمار.

ذهبت إلى السرير وأنا أقول لنفسي: ليته كان يعرف الشيء الآخر ويزيح هذا الهم عني. ليته كان يعرف ويقول لي إنه يعرف.

صباحاً وجدت رسالته في بريدي.

□ □ □

From: bilal2001ny@hotmail.com

To: lateesha.bailey@hotmail.com

subject: أمي العزيزة

أمي العزيزة

أعرف أن الأمر صعب عليك.

وهو صعب عليَّ أيضاً.

أنا أعرف كل شيء.

ليس بخصوص ديزني لاند، وعيد الميلاد فيها.

بل أيضا بخصوص أني سأموت.

قد تكونين أفضل أم في العالم، لكنك بالتأكيد لستِ أفضل ممثلة. كنت تحاولين التصرف كما لو أن كل شيء على ما يرام منذ اليوم الذي رجعت فيه وأنت مبتلة. ولكن كل ما تفعلينه كان يقول العكس.

سمعتك تتحدثين مع بيتي، وقلتِ التشخيص. وغوغل موجود دوماً كما تعلمين.

حسناً. سأموت.

وماذا بعد؟ لا يمكننا فعل شيء. فلا داعي للبكاء (ليس كثيراً، على الأقل). شخصياً لا أرى الموت سيئاً جداً.. لكن أعرف أنك ستفتقدينني.. أنا أيضاً.. لكن، ربما كان الموت الآن، أفضل من أن أموت بعد خمس سنوات مثلاً من العذاب في الكيمياوي والإشعاع والقيء والصداع وكل هذا.

على الأقل نحن نعرف أنني سأموت، كان يمكن أن أموت فجأة في حادث سيارة. لدينا الآن بعض الوقت يا أمي. لدينا بعض الوقت ونحن نعرف ذلك، البعض يذهب دون أن يقول وداعاً. أنا يمكنني أن أقول لك وداعاً. أليس هذا أفضل من أن أغادر بلا وداع.

أنت تبكين الآن. أنا واثق من هذا. أما أنا فقد أمسكت دموعي.

ابنك رجل يا أمي. أنا لا أبكي الآن. أنا لا أبكي.

كنت تقولين لي إن الأمور ستكون جيدة عندما توهمت أني كشفت الأمر اليوم.

نعم أمي، الأمور ستكون جيدة. الأمور ستكون جيدة.

بطريقة أو بأخرى على الأقل.

ملحوظة: يمكنك تقبيلي واحتضاني من الآن فصاعداً كلما أحببتِ. لكن ليس أمام الناس. وشكراً لتفهمك.

❑ ❑ ❑

أمجد

مرة أخرى أستيقظ على هذا الصوت.

صوت النداء للصلاة.

أنهض كالمجنون مرعوباً. الصوت يكون عالياً جداً يكاد يصمني، ثم يختفي.

كل ليلة، تقريباً كل ليلة.

أتصبب عرقاً، أتجول في البيت كما لو كنت أبحث عن مصدر الصوت.

أعرف أين، أعرف أني أراه في منامي. لكني لا أقدر على مواجهته.

أحياناً أراه.

لا أعرف من هو. لكنه زنجي بصوت حنون حزين. أسمعه يقول الأذان. مرة بصوت مرتفع، من بعيد. ومرة كما لو أنه يهمس لي، لي وحدي، في أذني.

ما الذي يحدث لي؟

صرت آخذ الحبوب المنومة كي يكون نومي أعمق. النتيجة هي أني أذهب إلى العمل شبه نائم، لكن الصوت لا يزال يوقظني. النتيجة هي أداء سيئ مرتبك في المحاضرة وملاحظات من رئيس القسم.. ولا يزال الصوت يوقظني. يقتحمني.

ما الذي يحدث لي.

أحياناً أرى أبي. يتأملني من بعيد. من بعيد جداً. أريد أن أقترب منه، لكن الصوت يقف بيني وبينه. أبي لكن في صورته عندما كنت أنا طفلاً.

وأحياناً أرى كريستين. تقف أمامي وتنظر لي ولكنها تنادي بأعلى صوت: كوبر، كوبر.

كما لو كانت تناديني باسم كوبر.

ثم هذا الصوت، هذا الصوت يحاصرني من كل مكان، يقتحمني من كل مكان.

وهذا الأسود، أحياناً يبدو عملاقاً وأحياناً يبدو ضئيل الجسم رقيقاً. أحياناً يشبه صموئيل جاكسون وأحياناً يشبه مورغان فريمان. وأحياناً يشبه ذلك المغني في المترو، الذي غنى "ابتسم".. حتى الأغنية، يخيل لي أني أسمع صداها في مكان ما، بل يخيل لي أني في المترو، وأني أنتظر قطاراً لم يأت بعد.

ما الذي يحدث لي؟

أنا أسمع نداء للصلاة في نومي؟ أنا؟!! مرة تلو أخرى؟! لا أذكر أصلاً أني سمعته كاملاً في حياتي. لولا أني أعمل الآن في الإعداد لقصة حياة المؤذن الأول، لما عرفت الكلمات التي تقال تحديداً. أعرف أنهم يعدون لأكثر من صوت أذان في الفيلم، لم أسمع أي شيء، وكل ما يحدث في هذا المجال يحدث بعيداً جداً عني.

أنا والصلاة؟! الصلاة لإله لا أؤمن به؟! وأبي يقف بعيداً.. وصوت النداء للصلاة يغمر كل شيء. وكريستين والمترو.

الملحدون من أمثالي يجب أن لا يمروا بهذا.

أم لعلي لست ملحداً حقيقياً؟

كانت كريستين تقول لي إني ملحد أكاديمي، وإن هذا نوع من الإلحاد الذي يصيب الباحثين في بداياتهم للتقرب من أساتذتهم وللصعود في السلم الأكاديمي، هو نوع من الإلحاد المزيف في البداية. نوع من التظاهر، لكنه يصبح حقيقة مع الوقت.

هل كنت ملحداً مزيفاً؟

فكرت أني أحتاج إلى معالج نفسي.

لكن الفكرة أعادت كريستين مجدداً.

بدا لي الأمر كابوساً.

وبلال..

لِمَ لا يبعث برسالة يسألني فيها عن الأذان وينهي الأمر؟

سأقول له إنه "لا إله".. سأقول له إن الأمر كله خدعة لجعل الناس يتصرفون أفضل. سأقول له إنه لا شيء هناك. لا شيء. وإنه عندما يموت فإنها ستكون النهاية. لا شيء. هل سيكون هذا له آثاره السيئة حقاً عليه؟ ليكن. سأفعل ذلك.

لكن بلالاً لم يرسل لي.

ترك هذا السؤال كما لو كان يتعمد أن أواجهه وحدي.

ماذا أقول.. بلال يتعمد؟!

أحتاج حقاً إلى مساعدة.

لكن ربما ليس من معالج نفسي.

عليَّ أن أواجه هذا الصوت الذي يوقظني كل ليلة.

بدا لي الأمر مثل صراع من أجل البقاء.

إما أن يسكت هذا الصوت إلى الأبد..

أو أن...

أنا؟!

□ □ □

قالت لي ماغي "لا تقولي أبداً إنها أمنية موت".

كانت تتحدث عن الرحلة إلى ديزني.

أكملت هي: قولي إنها أمنية حياة. كرري ذلك وكرسيه. "أمنية حياة.. تصادف أنها تحققت الآن.. لا تربطي رحلتكم إلى ديزني بالموت. لا تربطي المتعة بالموت. بل اربطيها بالحياة. الربط بالموت سينغص عليه، وسيعذبك أنتِ بقية عمرك.

كنا نتجه إلى الصفوف، وصلت إلى صفي، وأكملت هي والتفتت وهي تقول: أمنية حياة، تذكري ذلك.

أمنية حياة.

بدت كلمة أمنية موت قبيحة جداً. كمن يسأل محكوماً بالإعدام عن رغبته الأخيرة. لا أحب أن أفكر ببلال كمحكوم بالإعدام. أمنية الحياة أفضل فعلاً.

وجدت أني أسأل الطلاب ما إن انتظموا في أماكنهم: ما الذي تعتقدون أنه كان أمنية حياة كونتا كنتي؟

كنا قد وصلنا إلى الجزء الذي تصل فيه السفينة إلى أمريكا، ويباع فيه كونتا كنتي في المزاد العلني، ورحلته مع السيد الذي اشتراه، وسائقه العبد الأسود إلى منزل السيد، حيث وضع في صندوق طيلة الرحلة، ثم محاولته السريعة الهرب في أول فرصة سنحت له، حيث تذوق الحرية لساعات قبل أن يتم القبض عليه مجدداً.

كان هذا الجزء قاتماً بالتأكيد، لكن ليس بقتامة الرحلة في البحر، لكنه قاتم أيضاً. وكان ذلك واضحاً على وجوه كل الطلبة، الذين قرؤوا الجزء على الأقل.

قالت ليزا، التي يجب أن تكون أول من يرد على الأسئلة: الحرية طبعاً. كانت أمنية حياته هي الحرية.

قال بوبي: يخيل لي أنه كان يريد أن يقتل واحداً من البيض، تلك كانت أمنية حياته.

رد جاك الضربة: أعتقد أنه أول ما حاول القتل حاول قتل الأسود الذي يعمل عند البيض!.

قال فريدي: التخلص من القيود، لا أظنه كان يعي تماماً معنى الحرية غير أنها التخلص من القيود.

قال كيفن: أمنية حياته كانت أن يعود إلى قريته في غامبيا.

قلت لهم: طيب، فلنفرق الآن بين أمنية الحياة، وأمنية الموت.. فلنفترض أن كونتا كنتي كان لديه الخيار، أن يطلب أمنية واحدة فقط، واحدة فقط، قبل أن يموت.. أمنية تتحقق قبل موته بقليل.. ماذا تتوقعون أن تكون؟

قالت ليزا: إذا كان سيموت بعد قليل، لا أظن الحرية ستكون مهمة جداً..

قال بوبي: ينتقم لنفسه ممن أسروه.

قال جاك: ربما وجبة طعام جيدة.

قال كيفن: يرى أمه وأخوته. يبدو ذلك واضحاً.

قال حكيم: أن يغفر الله له، كان كنتي يعتقد أن كل ما حدث له كان بسبب ذنوبه، وكان هذا يعذبه جداً في رايي.. معرفته أن الله قد غفر له، أو أن الأمر لا علاقة له بذنوبه.

قلت لهم جميعاً: ما هو الفرق إذن في رأيكم الآن، بين (رغبة الحياة)، و(رغبة الموت)؟

ردت ليزا فوراً: يتعلق الأمر بالمدة المتوفرة في رأيي.. رغبة الموت تصدر

عمن يعرف أنه سيموت ولديه القليل من الوقت فحسب، لذا فرغبته لن تكون مثلاً أن يبني بيتاً كبيراً أو أن تكون له عائلة.. بل ستكون شيئاً مثل أن يذهب في رحلة سياحية مترفة أو أن يقيم في فندق سبع نجوم.. أو شيئاً كهذا.

قال فريدي: رغبة الحياة هي رغبة الحياة كلها.. أما رغبة الموت فهي مجرد تعويض.. جائزة ترضية.

قال كيفن: رغبة الحياة قد تتمثل في أن تكون عظيماً ومؤثراً مثل والت ديزني، أما رغبة الموت فهي أن تذهب في رحلة إلى ديزني لاند!

كان هذا قريباً جداً. أقرب مما توقعت أن يقود له الموضوع. جمدت مكاني وأظن أن شفتيَّ ارتجفتا. كان كلامه صحيحاً جداً. ماغي تقول لتكن الرحلة إلى ديزني لاند أمنية حياة. هي على خطأ هذه المرة. سيكون الأمر مجرد محاولة بائسة نخدع بها أنفسنا، سيكون هناك الكثير من المرح بالتأكيد، لكن هناك في الحياة، وفي أمنياتها ما هو أكثر من ذلك بكثير. أكثر من المرح.

هذا الكيفن يصيب الهدف.. أن تكون والت ديزني، لا أن تذهب إلى ديزني.. هذه أمنية حياة. هذه حياة تستحق أن تعاش.

لكن بلالاً، بلالي، لا يملك هذه الفرصة.

شعرت بالدوار، بلال وبلال الحبشي وكونتا كنتي وميكي ماوس و(ابتسم)، كل ذلك مرَّ في ذهني في لقطة واحدة سريعة.

تذكرت الفراشة. حطت الفراشة على رأسي فوق كل هذا الركام.

لا بد أن أجد شيئاً لبلال في هذه الحياة القصيرة. شيئاً أكبر وأهم من رحلة إلى ديزني. لديَّ ستة أشهر لأجد له حياة تستحق أن تعاش. ستة أشهر ستطرح منها فترات العلاج الكيمياوي والقيء والصداع والدوار. ستة أشهر لفراشة مصابة بالسرطان.

كان لا بد أن أوجه سؤالاً للطلبة.

قلت لهم أكثر الأسئلة روتينية. ما الذي لفت نظركم في هذا الفصل.

أسرعت ليزا كما لو أنها تدربت على ذلك، بل هي تدربت على ذلك بالتأكيد، قالت: اشمئزازه من النساء البيض، قال كونتا كنتي إن على رؤوس النساء البيض شيئاً يشبه (القش)، وهو يقصد الشعر الأشقر حتماً. وجدَ في التفسير البديل لاغتصاب البيض للسود، كان يعتقد أولاً أن البيض لا نسوة لهم، الآن وقد رأى هؤلاء النسوة، وجد أنهن مثيرات للاشمئزاز على نحو يفسر اغتصاب البيض للنسوة السود.

سألت: وما الذي يقوله لنا هذا؟

رد فريدي: يقول لنا إن لكل ثقافة مقاييس الجمال الخاصة بها، وأن ما يبدو جميلاً ومثيراً في ثقافة قد يبدو مثيراً للاشمئزاز في ثقافة أخرى. لا مقاييس مطلقة للجمال. وربما لأي شيء.

أحببت ما قاله فريدي كثيراً.

قال كيفن: لكن هذا اليوم لم يعد حقيقة. العولمة جعلت مقاييس الجمال مطلقة، مس أمريكا ستثير الإعجاب في غامبيا بالتأكيد. ومس غامبيا ستحاول أن تشبه مس أمريكا قدر الإمكان. العولمة طغت على الفروق الحضارية بين الشعوب وقدمت قالباً واحداً تحاول كل الشعوب أن تدخل فيه.

لم أتمالك نفسي: ييل أو كورنيل يا كيفن؟

رد فوراً دون أن ترمش عيناه: بل هارفرد. تسلسلها هو الأول في قائمة مدارس الطب. ييل في المركز السابع، كورنيل في الثامن عشر.

أوه. يا لغبائي. كورنيل في المركز الثامن عشر في الطب. لا يليق هذا بطموح كيفن. كيفن الذي يعرف تماماً ما يريد. الذي لديه الوقت الكافي ليحقق ما يريد. مثل أكثر من ٩٥ بالمائة من الذين في سنه.

لثوان كنت على وشك أن أقول لنفسي أن كيفن يملك كل شيء مما لم يمتلكه بلال، ليس الصحة فقط. بل الأب أيضاً. ثم أوقفت نفسي قسراً.

ليس يسيراً أن أكون مدرسة لطلاب أصحاء موفوري القوة، والكثير منهم لديهم آباء، وأن أكون أما عزباء لولد مصاب بالسرطان. ليس يسيراً أبداً.

قال بوبي: لفت نظري أن المسلسل جعل حتى زوجة المالك الأبيض تناصر حقوق السود! لا يوجد شيء كهذا في الكتاب، ولا حتى نظرة تعاطف.. ولا أي إشارة للمساعدة.

همَّ جاك أن يرد على بوبي كالعادة، فقاطعته أنا: لقد تحدثنا عن هذا يا بوبي.. الكتاب يتحدث عن كونتا كنتي من وجهة نظره هو، عدم رؤيته لوجود تعاطف أو معارضة لسوء المعاملة أو للعبودية نفسها لا يعني عدم وجودها، وقد ثبت بالوثائق وجود هذه المعارضة، ولو على نحو ضئيل في البداية. فلنقل إن المسلسل نقل نظرة أوسع من رؤية كونتا كنتي، لكن هذه النظرة الأوسع لا تلغي حقيقة ما حدث لكونتا كنتي ومئات الألوف سواه.. كما أن وصولنا اليوم إلى وضع مختلف يجب أن لا يجعلنا ننسى كيف وصلنا إلى هنا.. وكم من تضحيات، بذلها بعض البيض أيضاً.. بالإضافة إلى السود..

أي شيء آخر لفت نظركم؟

قال فريدي: بيع كونتا كنتي بالمزاد العلني وارتفاع سعره بالتدريج. أمر مؤلم جداً.. ونداء "التقط مباشرة من الشجرة" و"أذكياء مثل القرود".

عم الصمت للحظات. كانت الجملة محرجة جداً، وكانت لها امتدادات عنصرية مستمرة حتى اليوم.

"أي شيء آخر؟" قلت محاولة أن أسيطر على الوضع، كان المستر ويد قد قال لي أمس إن بعض الأهالي منزعجون من أثر (جذور)، وطلب مني أن أوضح باستمرار للطلبة ما يخفف من الأثر السلبي للرواية. لم أكن قد لاحظت أي أثر سلبي أكثر من الذي يمكن أن يحدث في أي نقاش عادي.

قال حكيم: بقي مصراً على عدم أكل الخنزير، وبقي يصلي باتجاه الشرق..

قال جـــاك: كان كونتا كنتي يميز البيض عن بعــــد من رائحتهم، وكذلك

السود.. كما لو أن حاسة الشم وقتها كانت أقوى مقارنة بوقتنا الحالي..

رفع إيدي يده وقال: كان كونتا كنتي مستغرباً من تأقلم السود مع الوضع. من عدم هروبهم خاصة لو لم يكن هناك بيض أو لو كانوا غير مقيدين.. كان يجد ذلك عجيباً.. ويحتقرهم.. ولكن الحقيقة أن أولئك الذين يتعودون، هم الذين ينجون..

فكرت في الجملة الأخيرة. هل يا ترى يقصد نفسه؟ هل كونه مختلفاً ويتعرض للمضايقات له أثر في هذه الجملة؟

قلت: نقطة مهمة يا إيدي، قد أختلف معك في أن أولئك الذين يتعودون هم الذين ينجون، أولئك الذين لم يتعودوا (تماماً) هم الذين تمكنوا من التغيير لاحقاً..

قال إيدي: ولكنهم تعودوا أولاً، ثم جاءت أجيال هي التي رفضت بالتدريج القيود التي في الداخل..

قلت له: التعود الأولي لم يكن خياراً. كان اضطراراً بديلاً عن الموت.

قال كيفن: القيود كانت عابرة لنقلهم من نمط حياتهم السابق، الحر، إلى نمط حياة عبودية، القيود ليست ظاهرة فيها.. لكن نمط الحياة الذي دخلوا فيه لاحقاً نفسه مقيد..

قالت ليزا كما لو كانت تفكر بصوت عال: يمكن لنمط الحياة أن يضم قيوداً لا ترى، ولا ينتبه أحد لهذا لو كان الكل داخل نفس نمط الحياة..

أكملت أنا: نعم بالضبط.. العبودية يمكن أن تكون في أشكال متعددة كما في أول مرة رأى فيها كونتا كنتي القيود الحديدية، كان مستغرباً لها، لم يفهمها، ويمكن أن لا تكون مرئية وواضحة، ويمكن أن نتعود عليها ونعتبرها (الوضع الطبيعي).. لكن نمط الحياة هذا يمكن أن يبعدنا عن حقيقتنا، يضعنا في قالب أصغر بكثير مما هو نحن عليه فعلاً.. ممكن أن يجعل (أمنية حياتنا) شيئاً يحدده هو، يمكن أن يجعل أمنية حياتنا مجرد أمنية موت، نطلبها قبل أن نموت، كنوع من التعويض، كنوع من جوائز الترضية.

فكرت بحياة الفراشة القصيرة الرائعة التي أريدها لبلال، فكرت أن على الفراشة أن تكون حرة أولاً.. قبل أن تكون حياتها رائعة.. ولكي تكون حرة، عليها أن تعرف ما تريد..

❑ ❑ ❑

جاءتني مساعدة المسترويد لتخبرني أن ثمة من يريد أن يراني. افترضت أنه والد أحد الطلبة وأن الأمر ربما كان يتعلق بما لمح له المسترويد. سألتها عن اسم ابنه أو ابنته، فردت أنه قال لها إن الأمر شخصي.

ذهبت إلى غرفة المساعدة.

كان هناك رجل بدا لي بملامح شرق أوسطية أو لاتينية، مألوفة على نحو غامض.

وقف وهو يراني وقال: أرجو المعذرة مس لاتيشا عن الحضور من غير موعد، اسمي أمجد، أمجد حلواني.

❑ ❑ ❑

أمجد

بدلاً من رسالة السؤال عن معنى النداء إلى الصلاة التي كنت أنتظرها من بلال، تسلمت شيئاً مختلفاً جداً.

كانت رسالة من بريد مختلف عن البريد الذي يرسل منه عادة. قال لي إنه يعرف أن أمه تراقب بريده الإلكتروني الآخر، وإنه يرسل هذه الرسالة من بريد آخر لا تعرف عنه شيئاً (كي لا يزعجها).

دخل بلال في الموضوع بلا مقدمات. قال إنه تقصى أثر والده إلى أن عرف أنه مسجون في لويزيانا، وأنه قد حكم عليه لمدة سبع سنوات بتهمة تتعلق بالمخدرات.

يريد بلال أن يذهب لزيارة والده، قبل أن يموت.

ويطلب مني أن أساعده في زيارة والده في السجن.

قال لي إنه ليس لديه الكثير من الوقت (لأن الطبيب أجرى بعض الفحوصات، وأجرى بعدها تعديلاً على التشخيص، مما أدى إلى حدوث تعديلات على احتمالات وفاته) – هكذا قال.

قال أيضاً: يمكنك أن ترفض، ولكن في هذه الحالة ستخاطر في أن شبحي سيطاردك كل ليلة بعد أن أموت وسأجعلك تعيش مثقلاً بالذنب طول عمرك.

قال هذا فعلاً. ثم كتب بعدها بسطر: أمزح فقط.

قال لي إن أمنية موته هي أن (أتعرف على رجلي العجوز)، ثم أردف: لست واثقاً من أن الأمر يستحق عناء الرحلة، لكني أريد أن أعطي الرجل الفرصة.

ترك لي بعض المعلومات عن والده، من خلالها أستطيع أن أتقدم بطلب الزيارة.

ثم قال: إنه يملك ٧٢ دولاراً فقط.

هذا كل شيء.

لم يطلب مني حتى أن لا أخبر والدته أو أي شيء. لم يتحدث عن موته.

يريد أن يعطي الرجل فرصة!

أين؟ في لويزيانا! أوكيديل لويزيانا!

السجن في أوكيديل- لويزيانا، على بعد ١٤٠٠ ميل! بالضبط في وسط اللا شيء الذي يتحدثون عنه دوماً. مكان لم أسمع به من قبل.

وأنا لم أزر سجناً في حياتي. ربما لم أعرف في حياتي من زار سجناً أصلاً! ربما لا أعرف شخصاً عرف شخصاً زار سجناً في الأصل.

أنا أكاديمي! الأكاديميون لا يذهبون للسجون إلا من أجل بحوثهم. البحوث التي تجعلهم يترقون في السلم الأكاديمي. لكن زيارة السجن من أجل مقابلة شخصية لنزيل، لشخص محكوم؟!

ما الذي يحدث لي! ما الذي يفعله بلال بي!

ويقول إن شبحه سيطاردني ليعذبني بعد أن يموت، ثم يقول إنه يمزح. هذا ما كان ينقصني. أنا الذي تطاردني الكوابيس كل ليلة. مرحباً بالشبح الجديد، فلينضم إلى نادي الأشباح التي تطاردني، بالإضافة إلى صاموئيل جاكسون ومورغان فريمان متقمصين دور بلال الحبشي وأبي.

كان رد فعلي أولاً: كيف عرف أصلاً أني في نيويورك؟! كيف عرف أني في أمريكا أصلاً؟ لم أقل شيئاً عن مكاني. ماذا لو كنت في كاليفورنيا. ماذا لو كنت في نيودلهي. في القاهرة. في أي مكان آخر في العالم. كيف عرف أني هنا.

ثم قدرت أنه لا بد أن تتبع الآي بي الخاص بجهازي والذي يظهر في الرسائل الألكترونية.

لم يكن لديَّ خيار. لم أكن أملك أن أرفض.

لم أكن مؤهلاً لرفض هذا الطلب. لم أملك الأعصاب الكافية لأقول "لا" لطفل مصاب بالسرطان يريد أن يرى والده في السجن.

حتى لو كان ذلك في منتصف اللا مكان. في أوكديل! كما لو أني سمعت بهذا المكان من قبل.

بحثت قليلاً عن الرحلات بين نيويورك وأوكديل، فقط لكي أضع نفسي في كل الاحتمالات التي سأكون فيها.

لا رحلة مستمرة بالطبع. لا بد من توقف، غالباً في دالاس/ فورت ورث، ثم لاحقاً إلى منتصف اللا مكان، الذي اتضح أن فيه مطاراً. من خمس إلى ست ساعات تقريباً مع الانتظار. حوالي ٤٠٠ دولار.

ليس عناء كبيراً بالنسبة لصبي يعلم أنه سيموت قريباً، ويريد أن يمنح رجله العجوز فرصة.

لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن زيارة السجون. اتضح أن الأمر يتطلب ملء استمارة عبر النت، بالضبط كما تفعل عندما تقدم على الجامعة. واتضح أيضاً أن الموافقة على طلب الزيارة قد يتطلب شهراً.

وكما توقعت، لا يمكن لي أن أصطحب قاصراً معي من دون موافقة من (وليه) القانوني.

لا بد أن بلالاً كان يعرف ذلك.

لا بد أنه كان يعرف أني يجب أن أخبر أمه.

لكنه لم يرد أن يخبرها هو.

□ □ □

كنت أعرف اسم المدرسة التي تدرس فيها أم بلال. وكنت أعرف اسمها، لاتيشا. كان قد ذكر اسم المدرسة عرضاً مرة، وكذلك اسم أمه.

لذا لم يكن الأمر صعباً.

الأمر شخصي، قلت، عندما سألتني المساعدة عن سبب الزيارة.

ثم أردفت: يخص ابنها.

نظرت لي المساعدة بتفهم، رغم أني متأكد أنها لا يمكن أن تكون قد فهمت شيئاً. لا يوجد أحد يمكنه أن يتخيل لماذا أنا هنا.

جاءت بعد قليل، مس لاتيشا.

كانت جميلة على نحو لافت. لم أتوقع أبداً أن تكون جميلة هكذا. أجمل مما يجب بالنسبة لأم صبي يموت بالسرطان. عيناها كانتا واسعتين، ذكيتين، فيهما حزن عميق. وفيهما شيء مألوف جداً. كما لو أني كنت أعرفها من قبل. كما لو أني كنت رأيتها من قبل.

مددت يدي: أرجو المعذرة، مس لاتيشا عن الحضور من غير موعد، أنا أمجد، أمجد حلواني.

مرت لحظات طويلة بدت لي أنها دهر ممتد.

لم يبد عليها أنها عرفت من هو أمجد حلواني. وبدا لي أني وضعت في موقف شديد الحرج. من قال إنها تتجسس على بريد بلال حقاً. بلال يقول هذا. من قال إنه على صواب. ربما كانت لا تملك أدنى فكرة عن أي من المراسلات بيننا. بل ربما لم تكن لتوافق على محتوى هذه المراسلات.

بقيت صامتة كما لو كانت تريد أن تتذكر شيئاً.

ثم يبدو أنها يئست من التذكر فقالت وهي تبتسم بمهنية: بأي شيء يمكنني أن أساعدك سيد حلوا...؟ عفواً.. لم أسمع اسمك جيداً.

قلت: حلواني، أنا أمجد.. السيناريست.. فيلم بلال.

تغيرت ملامحها فوراً إلى الدهشة، ثم صاحت: أوه.. نعم، نعم، نعم، بدا لي اسمك مألوفاً فعلاً.. آسفة، آسفة جداً..

دعتني إلى الجلوس، لكن الدهشة تحولت إلى حيرة بوضوح في وجهها.

نعم، حيرة منطقية جداً، أمجد موجود في العالم الافتراضي، في ذلك السيناريو المختلف، خلف شاشة الحاسوب أو الآيباد. لكن أن أظهر لها فجأة في المدرسة. لا بد أن هناك شيئاً ما.

قالت وهي تجلس: أنا شاكرة جداً لمساعدتك لبلال.. وآسفة أني لم أستطع شكرك من قبل.. في الحقيقة أردت أيضاً أن أعبر عن إعجابي بما تكتبه..

شعرت بالدم يتدفق في وجهي. كنت كمراهق يستمع إلى كلمات إعجاب من فتاة طالما أعجب بها سراً.

أكملت هي: في الحقيقة، كلماتك لها أثر إيجابي عليّ أيضاً، وليس على بلال فقط، وشرحك لقصة تاريخية مثل قصة بلال الحبشي متقن وشديد التأثير.

أعتقد أني كنت أبدو أبله. لعلي فتحت فمي أيضاً وأنا أستمع لمديحها لي. أنا الأكاديمي الذي سيحصل على الدكتوراه بعد أشهر (أقول ذلك منذ سنتين وحتى الآن، سأحصل عليها بعد أشهر)، يفترض بي أن أقيمها أنا، لا أن أسعد بتقييمها لي. لكني كنت في منتهى السعادة وأنا أسمع ما تقول. سكتُّ. كنت أرغب في سماع المزيد. بدوت كالأبله بجدارة.

صمتت هي وهي تنظر لي وقد عادت الحيرة إلى وجهها. ثم قالت مجدداً: بأي شيء يمكنني أن أساعدك يا سيد حلواني؟

كان يبدو من الواضح بالنسبة لها أني لم آت لأستمع لتقييمها لما أكتبه. رغم أن هذا هو الذي بدا مهماً بالنسبة لي حينها.

سكتُّ أنا كما لو أني نسيت ما جئت لأجله. للحظات نسيت فعلاً. ثم تذكرت.

قلت لها: جئت بخصوص بلال.. تسلمت إيميلاً منه، مختلفاً قليلاً.. ويطلب فيه طلباً محدداً لا يمكن أن يتحقق من دون معرفتك.

امتقع وجهها تماماً. تغيرت ملامحها. كأنها كانت أيضاً في عالم آخر وأرجعتها إلى الواقع.

قالت بسرعة: أي نوع من الطلب؟

أجبتها بعد تردد، وبعد أن أخذت نفساً: بلال يريد أن يرى والده.

فوراً لمحت نظرة مختلفة في عينيها. نظرة تزاحمت فيها مشاعر مختلفة. كان هناك الحزن، في طرف عينيها، مثل دمعة مزمنة، ربما منذ أن علمت بإصابة بلال بالسرطان، ولكن كان هناك شيء آخر، بل أشياء كثيرة، قرأت الحزن، ولكن قرأت الخذلان أيضاً، كما لو أنها لم تكن تريد من بلال أن يطلب هذا.

ابتلعت ريقها وقالت: بالتأكيد هذا من حقه، كنت سأحاول أن أفعل ذلك على أي حال، ما كان على بلال أن يطلب ذلك منك ويكلفك هذا العناء.. الأمر لا يستحق هذا، لم أكن لأمنعه أو أقف في وجه تنفيذ هذا الطلب حقاً..

كان وجهها يقول شيئاً معاكساً تماماً لما تؤكده.

تظاهرت أنا بتصديق ما تقول، قلت لها: بالتأكيد، لم يقل بلال شيئاً آخر، لكنه فقط لم يرد إشغالك أو إزعاجك بالأمر.

قالت هي: لا لن يكون هناك أي إزعاج.. لكني لم أفهم بالضبط كيف يريد بلال أن تساعده أنت بالذات، مع كل الاحترام.

كانت متوترة، رغم محاولتها إخفاء ذلك. توترها جعلها أجمل. كنت أستغرب من نفسي أني ألاحظ هذا في خضم ما نتحدث عنه.

قلت لها: بلال يريد أن يذهب لزيارة والده في أوكيديل لويزيانا.

نظرت لي بذهول وكررت: أوكيديل لويزيانا..

كان من الواضح أنها تعتبر أن هذا هو منتصف اللا مكان، بالضبط مثلي.

ثم بدت هجومية أكثر: ولماذا لا يأتي هو لزيارته؟

كان من الواضح أني أخفقت في شرح الأمر كما يجب.

قلت لها: لأنه في السجن. يقضى مدة محكومية سبع سنوات. بلال يريد أن يزور والده في السجن.

كانت مصعوقة. ثم فلتت منها شتيمة: السافل الوغد. كنت أعرف أن الأمر سينتهي بسعيد ليكون في السجن. لأجل هذا كان يجب أن أتركه، كان يجب أن أحمي بلالاً منه.

لم أحرج. كنت سعيداً بأنها تتحدث معي كما لو كانت تتحدث مع صديق تشتم معه زوجها السابق بلا كلفة.

لكنها نظرت لي فجأة كما لو كانت قد انتبهت إلى عدم وجود إثبات على أي شيء مما أقوله.

هل يمكن أن أرى الإيميل الذي أرسله لك بلال؟

كان يجب أن يكون ذلك أول ما أفعله. أسرعت بفتح الإيميل من هاتفي، وأريته لها. تأملتها وهي تقرأ الرسالة، كانت تريد أن لا تصدق. أن تشكك بشيء. همهمت مع نفسها قائلة: إيميل مختلف إذن.

أعادت لي الهاتف وهي ساهمة.

قلت لها: أحتاج إلى موافقة رسمية منك كي أبدأ بالتقديم للزيارة.. هذا إن كنت موافقة أصلاً على الموضوع.

قالت: نعم، موافقة.. من ناحية المبدأ، من حقه أن يرى والده.. لكن السجن.. زيارة السجن في هذه الظروف..

ثم نظرت لي متفحصة كما لو أنها تقول لي: ومع رجل لا أعرفه!

ثم سألتني: كم يستغرق الأمر عادة؟ التقديم والموافقة وما إلى ذلك.

أجبتها: شهر تقريباً.

ثم أحسست بحاجتي إلى أن أوضح لها أني لست خبيراً في شؤون السجون: هذا ما يقوله الموقع على الإنترنت، لم أزر سجناً في حياتي.

قلت هذا وابتسمت، بينما نظرت إليّ لاتيشا نظرة متفحصة كما لو كانت تريد أن تتأكد من أنها لن ترسل ابنها إلى لويزيانا مع واحد من أصحاب السوابق.

قلت لها: أنا محاضر في كلية مونرو، وسأحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا قريباً.

قالت لاتيشا وهي تحاول أن تبدو مهتمة: كولومبيا! واو.. دكتوراه في ماذا بالضبط؟

قلت: في التاريخ، تاريخ الشرق الأوسط تحديداً.

قالت: أوه، نعم، كان يجب أن أحزر.

بدت مهمومة جداً. طلبت مني أن أترك أوراق الموافقة لها لكي تفكر في الأمر. وطلبت مني أيضاً صورة من هويتي.

غادرت المدرسة وأنا أشعر أن حياتي، منذ أن أرسل بلال رسالته الأولى، قد تغيرت.

وأنها تتغير باستمرار.

□ □ □

لاتيشا

عيد الميلاد في ديزني لاند – كاليفورنيا هو ما يجب أن يحدث للجميع..

أصحاء أومرضى، من يحتضرون أو من أمامهم حياة طويلة مديدة.

عيد الميلاد في ديزني لاند كاليفورنيا، هو عيد الميلاد الحقيقي!

مجرد أن تهرب من برد نيويورك في ديسمبر إلى ذلك الربيع في كاليفورنيا أمر يمكن أن يقويك ضد السرطان. فكيف بديزني لاند.

ديزني لاند في عيد الميلاد تكلف ثروة بالتأكيد، لكنها تستحق، وكنت أشعر أحياناً بالندم لأن ذلك لم يحدث من قبل، لأني لم آتِ ببلال إلا في هذه الظروف.

كنت أحياناً أنسى، في غمرة الفرح، أنسى، وتقارير بلال وأدويته في حقيبتي، أن بلالاً مريض بالسرطان.

كان ذلك مثل وقت مستقطع أخذته من التفكير بكل شيء، ليس بالسرطان فقط، بل حتى من الرحلة القادمة لبلال إلى لويزيانا. أجلت حتى الحديث في الموضوع معه، وكانت ديزني فرصة رائعة للتأجيل. فرصة رائعة للنسيان. أو حتى للبداية من جديد.

كان الدكتور تشونغ قد زودني بتقرير تفصيلي عن حالة بلال وعناوين أقرب المراكز التي يمكن أن تهتم بحالة بلال فيما لو تعرض لطارئ، كما زودني بجملة من النصائح عما يجب أن لا يفعله بلال، وهي قائمة ممنوعات تحظر عليه كل الألعاب السريعة والعالية والتي فيها أي شيء مفاجئ أو حركات تجعله في وضع (غير مستقر).

عندما قرأت لبلال النصائح والإرشادات والممنوعات قال فوراً: الشكر لله أنه يمكنني أن أرى Winnie Pooh وقطر الندى، هل يمكنني أن آخذ صورة مع ميني ماوس أيضاً؟

كان محقاً. فتى الرابعة عشرة لا يمكن منعه من قراصنة الكاريبي حتى لو كان مصاباً بالسرطان، وإلا ستكون ديزني لاند تعذيباً لا داعي له.

لم ألتزم بشيء تقريباً من نصائح الدكتور تشونغ، باستثناء جعل بلال يتناول بعض الأدوية التي قد تقلل القيء (وقد كان لها بعض النفع الجزئي)، لكني ببساطة لم أستطع التفكير – مجرد التفكير – في أن أمنع بلالاً من إنديانا جونز وماونتن سبيس وأترك له ميكي وميني ماوس وبلوتو والـ Winnie pooh وقطر الندى والأقزام السبعة. تخيلت أني سأكون سعيدة بهؤلاء، وكنت سعيدة بهم فعلاً. لكن ليس بلال بالتأكيد.

استعدت طفولتي في هذه الرحلة مع بلال. لا. لم أستعدها بالضبط. بل عشتها. عشت طفولتي لأول مرة تقريباً في هذه الرحلة. تلك الطفولة في كلارا أفينيو في سانت لويس لم تكن طفولة بالضبط. لا أذكر أصلاً أني حلمت وأنا طفلة، مجرد حلم، بزيارة ديزني لاند.

كان بلال شديد النشاط والحيوية، على الأقل كان يحاول التغلب على أي شعور آخر يداهمه. استيقظ مبكراً بعد أول ليلة قضيناها هناك كي تكون طوابير الانتظار أقل مما ستكون عليه لاحقاً. كان مستثاراً كما لم أره في حياتي، صرخ في مغامرات "جبل الرعد" كما لم يصرخ أحد من حولنا، ضحك في "جبل سبلاش" كما لم يكن يضحك من قبل، وأصر على الجلوس في المقعد الأمامي كما هي توصيات الإنترنت للحصول على أكبر قدر من المتعة، بينما الماء يبلله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

في الجولة النهرية للغابة عاد طفلاً في الثامنة وهو يشير إلى الحيوانات ويصيح منادياً بأسمائها كما لو أنه فخور بمعرفته بها..

تجولنا في الفضاء ونحن نصرخ من الإثارة والمتعة بينما نقترب من "جبل النجوم"، وصرخنا رعباً في إنديانا جونز (رغم أن هاريسون فورد لم يكن قريباً جداً للأسف، ولا حتى جوني ديب في قراصنة الكاريبي، فكرت: *ما فائدة قراصنة الكاريبي دون جوني ديب ؟)* لكن هذا بالنسبة لي فقط، ليس لبلال الذي لم يكن لديه أدنى اهتمام بأكثر الرجال إثارة في العالم، فاللعبة نفسها كانت مثيرة بما فيه الكفاية.

لم يكن يمكن لأحد أن يصدق، لو علم، أن بلالاً الذي يصرخ بكل هذه القوة والحماس والمتعة يوشك أن يموت بالسرطان، وأن احتمالية نجاته هي صفر بالمائة.

فقط خلو وجهه ورأسه من الشعر كان يمكن أن يجعلهم يشكون.

أم لعله كان يصرخ ويفرح ويتحمس نيابة عن عمر قادم لن يعيشه.

بعد أن أرضى بلال المراهق في داخله، وأنجز كل تحديات الجبال والمغامرات الخطرة بنجاح (تقيأ مرتين فقط في اليومين اللذين قضيناهما، ولم يشك من صداع أو دوار، على الأقل لم يقل ذلك)، بعد أن أنجز كل ذلك، بدا بلال أكثر تصالحاً مع الطفل في داخله، لم يخجل من رغبته في البحث عن "نيمو" في الغواصة، لم تكن للصغار وكانت ممتعة جداً لي، ولكنه كان يرفض قبلها مجرد التفكير في ذلك. نيمو للأطفال، كان يقول. رجلي الكبير الذي لن أتمكن من رؤيته عندما يصبح رجلاً.

طلب أيضاً، هو بنفسه أن يحضر مسرحية (علاء الدين)، بينما كان قد قال قبلها إنها للصف الخامس كحد أعلى. كان متفاعلاً جداً مع كل ما فيها، وأعتقد أن المسرحية نفسها كانت قد تصالحت مع المراهقين أكثر مما تصالح بلال مع الطفل في نفسه.

كنت ألتقط الصور كالمجنونة، كالمجنونة، لو كنا لا نزال في عصر الصور ما قبل الديجيتال لكلفني ذلك ثروة أكثر من كلفة الرحلة بكل ما فيها.

أخذت حرفياً آلاف الصور. كنت أعرف أن الفرح على وجه بلال عابر كضيف لن يطول بقاؤه.

كنت أعرف أيضاً أن بلالاً نفسه، لن يطول بقاؤه.

كانت الصور، الآلاف منها، محاولتي البائسة اليائسة للتشبث بهما معا.

بالفرح..

وببلال.

فاجأني بلال عندما طلب أن نذهب، في آخر يوم، تقريباً في ساعاتنا الأخيرة في ديزني لاند إلى (اللحظات العظيمة مع السيد لينكولن).

لم أتخيل أن هذا العرض سيكون جذاباً جداً لبلال، لكني وافقت بلا تردد، عرض تثقيفي وتعليمي كهذا دوماً مفيد، وعندما يطلب صبي في الرابعة عشرة حضوره، دون حث أو تحفيز خارجي، فإن الأمر يستحق الموافقة الفورية. قبل أن يغير رأيه على الأقل.

كان العرض جميلاً، وقصيراً بحيث لا يثير أي ملل، خاصة بالنسبة لمن هم في مثل سن بلال..

بدأ العرض بأغنية (أمريكا الجميلة) التقليدية الوطنية، كنت أحب الأغنية، تعودت عليها كما تعود أغلب الأمريكيين، لكن عندما ظهرت في العرض المصاحب للأغنية، سفينة للمهاجرين، تذكرت سفناً أخرى لا بد أن جدي كان في واحدة منها، تذكرت كونا كنتي ورحلته المريعة من غامبيا إلى أمريكا. لا يمكن لتلك السفينة ولكل العذابات التي حوتها أن تكون مصاحبة لهذه الأغنية. شعرت بالغبن. شعرت بأن هذا جزء صغير من صورة كبيرة، وأننا لكي نفهم حقاً جمال أمريكا علينا أن نعرض الصورة كلها، خاصة عندما نكون في عرض عن الرجل الذي ساهم في تصليح الخطأ الذي لحق بكونتا كنتي وجدي والملايين الآخرين.

ثم دخل المعلق:

"كان هذا هو الحلم الأمريكي. الصلاة من أجل المستقبل. لكن هذا الهدف الذهبي لم يكن بلا ثمن. نمط الحياة الأمريكية لم نحصل عليه في يوم، بل ولد من خلال المصاعب ونشأ عبر صراعات، أثبت كماله وبرهن على صحته من التجارب الطويلة وإعادة النظر.

في كل تاريخها، لم يكن هناك رجل أكثر إخلاصاً للحلم الأمريكي من الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، إبراهام لينكولن".

إذا كان الحلم الأمريكي يتضمن إلغاء الرق، فبالتأكيد، لم يكن هناك أي رجل أكثر إخلاصاً من لينكولن. أو على الأقل لم يكن هناك من هو أكثر

إنجازاً لأجل ذلك. لا علاقة لي بالإخلاص، ربما هناك من يحاول أن يفسر قانون الرق بأسباب اقتصادية، ليس هذا مهماً بالنسبة لي.. لقد فعلها.

ثم جاء صوت لنكولن:

أؤمن أن هناك إلهاً، وأؤمن أنه يكره الظلم والعبودية، أرى العاصفة قادمة، وأرى يد الله فيها، لو كان قد وضع لي مكاناً وعملاً فيها، وأظنه قد فعل، فأنا جاهز لأداء مهمتي.

كانت الكلمات مؤثرة بذلك الصوت العميق الذي يبدو كما لو أنه خارج من جهاز غرامفون قديم.. كما لو أن لينكولن يتحدث فعلاً من عمق التاريخ.

التفتُّ لبلال.

خيل لي أن ثمة دمعة في عينيه.

لم أفهمها.

إلى أن قرأت ما كتبه لاحقاً، في الآيباد الخاص به.

وعرفت بعدها ما عليَّ أن أفعله مع بلال.

❐ ❐ ❐

رسالة من بلال إلى السيد لينكولن

عزيزي السيد لينكولن

اسمي بلال. أنا واحد من أحفاد أحفاد أحفاد العبيد الذين حررتهم. أشعر بالامتنان لأنك قد أديت واجبك بينما تخلف آخرون عن ذلك. لقد أعدت الحرية التي سرقت من أجدادي. لكنهم كانوا قد ولدوا بها.

لذا، لقد أديت واجبك، شكراً لك، لكنه واجبك. هو الشيء الذي كان يجب أن يفعله الجميع.

عزيزي السيد لينكولن:

أنت شخص عظيم بلا شك، وتركت أثراً عظيماً في الأمة. وأنا فخور بك، لكني فخور أيضاً ببلال، الشخص الذي أسموني (بلال) تيمناً به، كان عبداً كأجدادي، ولكنه آمن بالله الواحد، بدلاً عن الأوثان التي كان أسياده يؤمنون بها، وأدى ذلك إلى تحريره.

العاصفة التي تحدثت عنها تتخذ أشكالاً متعددة يا مستر لينكولن، ليس كلها على شكل الحروب الأهلية، أحياناً الإيمان يأتي بشكل عاصفة، وتكون يد الله موجودة فيها أيضاً.

أحياناً العاصفة تأتي بحبوب الطلع، وحبوب الطلع تثمر..

لكل منا عاصفته.. بشكل أو بآخر، لكن البعض يحاول أن يتجاهل ذلك.

عاصفتي أنا جاءت منذ عامين تقريباً. ولكني لم أجد دوري فيها بعد. وقد أشرفت على الانتهاء أو تكاد.

عاصفتي هي السرطان، لا أعرف إن كنتم تعرفون المرض في وقتكم، لكنه مرض قاتل، على الأقل في حالتي هو قاتل. لديَّ أشهر فقط. لا أكثر.

أتمنى أن أجد دوراً لي. أتمنى أن أجد الدور والمكان الذي وضعه الله لي

في هذه العاصفة التي ستشرق بعدها الشمس، حتى لو لم أكن موجوداً بعدها.

عزيزي السيد لينكولن، لقد ساهمت في تحرير العبيد. عمل عظيم.

أنا أريد أن أساهم في شيء ما.

حتى الآن لا أعرف ما هو. لكن وقتي ينفد.

المخلص

بلال

□ □ □

بلال

"دعنا نتكلم رجلاً لرجل"

هكذا قالت لي أمي. رجلاً لرجل.

كان الأمر مضحكاً. لكنها قالتها بمنتهى الجدية.

"لقد حاولت دوماً أن أكون الأم والأب في حياتك يا بلال. حاولت. ربما لم أنجح في ذلك كثيراً، خاصة في دور الأب. لكني حاولت".

قالت هذا دون حزن. وتذكرت أنا نجاحاتها في تعليمي ركوب الدراجة والسباحة والبيسبول. فكرت أنها نجحت كأب أكثر مما تتخيل، ربما أكثر منها كأم. أكثر من نجاحها في إعداد فطيرة التفاح مثلاً. فكرت أن أواسيها بذلك. لكن سيكون الأمر محرجاً لها على الأكثر.

"كنتِ جيدة، أماه" قلت لها.

"اليوم أريد أن أحاول مرة أخيرة.. كرجل. أريد أن أتكلم معك رجلاً لرجل. كلام رجال. لا عواطف. لا تراجع"

قالتها بحزم وجدية.

مددت يدي لها: رجلاً لرجل.

قالت: حاولت دوماً أن أعوضك عن غياب أبيك. الآن تريد أن تراه. هذا من حقك. لن أقف أبداً في وجه ذلك. تريد أن تزوره في السجن برفقة أمجد؟ لن أقف في وجه ذلك أيضاً رغم أننا لا نعرف أمجد حقاً.. تقصيت عنه حيث يعمل، أغلب طلبته يحبونه حسب موقع www.ratemyproffessors.com، ليس مجرماً وليس من أصحاب السوابق بالتأكيد، ولديَّ نسخة من هويته أيضاً.. لذلك سأوافق على مرافقته لك.. ستذهب إلى والدك وتراه. أرجو أن يحدث ذلك. لكن بعدها ستطوي

الصفحة. لن نبقى نجترها. لن نمكث فيها."سنطويها تماماً. سننظر إلى ما تبقى لنا. وأنت تعرف أنه ليس بكثير". قالت هذا بقوة وحزم، لم أر الدمعة المعتادة.

سنطوي الصفحة، لا أعرف كيف سيتصرف والدك، لا أعرف حتى إن كان سيوافق على مقابلتك، لكني أطلب منك أن لا تتوقف كثيراً عند موقفه، مهما فعل.. مهما كان سيئاً أو جيداً.. أنت تذهب لتراه وتتعرف عليه، لكنه في السجن، ولن يمكنه أن يفعل الكثير لك على فرض أنه أراد ذلك.. ستراه كي تحقق هذه الأمنية التي تكاد تخنقك، بعدها، عليك أن تتجاوز الأمر برمته، انتهى.

قلت لها: حسناً، وماذا بعد أن أنتهي من هذا الأمر؟ ماذا سأفعل؟

"هذا ما أريد أن أحدثك عنه". ثم ناولتني ورقة.

نظرت للورقة. كانت رسالتي إلى السيد لينكولن.. طبعتها أمي على ورقة.

قلت لها: هل أنت بخير؟ لا يمكننا مراسلة السيد لينكولن حقاً.. ربما يمكنني أن أفعل ذلك لاحقاً.. بعد أن أذهب.. لكن ليس الآن بالتأكيد.

لم تتمكن أمي من منع نفسها من الابتسام.

قالت: ستكون هذه فكرة جيدة لما ستعمله لاحقاً. لكن الآن.. لدينا ما هو عاجل..

"هل للسيد لينكولن بريد إلكتروني في الآخرة يمكن التواصل معه عبره؟" قلت وأنا أتصنع الجد.

قطبت جبينها وقالت: أتحدث على نحو جدي. رجلاً لرجل.

هززت كتفي: اشرحي إذن.

قالت: بلال، لديك موهبة الكتابة.. لديك الحرف والكلمة والروح.. يمكنك أن تكتب رسائل إلى كل من يخطر في بالك.. إلى من عرفت أو من لم تعرف من الناس أو الأشياء.. سنجمعها كلها.. رسائلك يا بلال، نضعها في موقع خاص على النت.. موقع يحمل اسمك.. ويترك..

امتلأتْ عيناها بالدموع وهي تكمل: يترك أثراً لك في هذا العالم.. أثرك بعد أن تمضي..

كانت هذه أول مرة تقول فيها أمي بصراحة أني سأمضي.

كأنها لم تجرأ على القول قبل ذلك إلا عندما وجدت ما سيجعل لي أثراً ما.

فكرت بالأمر.

راقت لي الفكرة جداً. رسائل إلى الجميع.

قلت لها: ماذا سنسمي الموقع؟

قالت: سنجد اسما ملائماً. علينا أن نحضر المواد أولاً، ونضع تصميماً.. ثم يمكنك أن تجد الاسم المناسب له.

كنت أفكر فوراً برسالتي الأولى.

❑ ❑ ❑

رسالة من بلال إلى أبيه (مدونة)

أبي العزيز

لم أناديك من قبل بهذه الكلمة، أبي.

لم أقلها من قبل لأي أحد.

لم تمر على لساني.

أذكر أني عندما كنت في الخامسة وأدركت أن لأغلب الأولاد آباءً، إلا أنا، كنت أحاول أن أجرب أن أقول الكلمة: أبي، أبي، أبي. أحاول أن أسمعها بصوتي. كيف تبدو. كيف أبدو أنا عندما أقولها.

كنت أفعل ذلك في الحمام، أمام المرآة، وكنت أعرف أن لا أحد سيرد. ليس هناك من رد يأتيني كما يحدث مع الباقين. لا شيء.

كففت عن ذلك عندما كبرت قليلاً. لكني كنت أشعر بغصة كلما سمعت الكلمة. تأقلمت مع الأمر مع الوقت. لم أعد شديد الحساسية تجاهه.

أو كذلك كنت أتظاهر.

لا أعرف لماذا أكتب لك الآن. ربما لأسألك سؤالاً طالما خطر في بالي دون جواب.

لِمَ رحلت وتركتني؟.. تركتنا؟

ربما كانت أمي هي التي جعلتك ترحل. هكذا كانت تقول لي دائماً. لم تتهمك أبداً أنك أنت من رحلت. هي أم جيدة بالمناسبة، كانت أباً جيداً أيضاً.

لكن حتى لو كانت قد جعلتك ترحل، ألم تفكر بي؟ ألم تفكر في زيارتي على الأقل؟ في أن ترسل لي؟ ألم ترغب ولو قليلاً في أن تراني؟ ألم تملك أقل الفضول لكي تعرف شكلي؟ هل فكرت أن تبحث عني في الفيس بوك مثلاً.. أن ترى صورتي فحسب؟

لطالما سألت نفسي، إن كنت قد رحلت لأنك كنت متضايقاً من صراخي وبكائي وأنا طفل. كل الأطفال يبكون. لكن أغلب الآباء لا يهربون من ذلك.

لا أعرف عنك الكثير. لا أعرف أصلاً ماذا يجب أن يكون موقفي منك. هل أحبك؟ هل أكرهك؟ لا أكرهك بالتأكيد. لكني لست متأكداً من أني أحبك. لديَّ فضول في مشاعري تجاهك.

لديَّ حيرة تجاهك.

بعد كل شيء، تقاسمت أنت وأمي مجيئي إلى هذه الحياة.

ثم تركت لها الباقي.

حتى كلمة عزيزي التي بدأت بها الرسالة. لا أعرف. لا أعرف حقاً إن كنت أعنيها.

أنت مثل كوكب غامض بالنسبة لي. مثل صندوق وجدته في العلية. ربما تكون فيه أشياء ثمينة. وربما ليس سوى بعض المهملات المنسية.

بكل الأحوال. لا بد أن أفتح هذا الصندوق.

تقول أمي إني أختنق بك. وإن عليَّ أن أراك كي أتمكن من التنفس. معها حق. أنا أختنق بك.

صحيح.. نسيت أن أقول لك: لديَّ سرطان في الدماغ. سأموت قريباً. لذا عليَّ أن أراك قبل ذلك.

شكراً لك.. على لا شيء.

□ □ □

أمجد

ها أنا مع بلال ولاتيشا في انتظار الطائرة المتجهة إلى دالاس. المحطة الأولى في رحلتنا إلى أوكيديل لويزيانا.

كانت هذه أول مرة أرى فيها بلالاً. جاءت لاتيشا معه إلى المطار. كنت عرضت أن أذهب إلى البيت لأصطحبه معي لكنها رفضت تماماً. قالت إنها ستبقى معه إلى أن تقلع الطائرة. كان بلال يبدو متبرماً بهذا ويؤشر لها أن تذهب. بلال لم يكن يبدو طفلاً اقترب موعد موته بالنسبة لي. ربما لم أره قبلها، لذا لا يمكنني أن أقارن. لكني لم أكن لأقول عنه إنه مريض بالسرطان لولا أنه كان بلا شعر تماماً وكذلك التقارير الطبية التي وضعتها أمه في الحقيبة، بالإضافة إلى كوم من الأدوية التي قضت مدة طويلة في شرح وظيفة كل منها.

كنت سعيداً بالشرح وأحاول التظاهر بالفهم والتركيز، سعيداً فقط من أجل الكلام مع لاتيشا. ثم انتبهت إلى خطورة الأمر، وأخذت أسألها بعض ما فاتني. كنت أتمنى لو أن عاصفة تهب فتؤخر موعد الطائرة وتبقي لاتيشا معنا، كان ذلك الشعور غريباً جداً، لكنه كان يبدو أفضل ما حدث لي منذ زمن طويل. أنا ولاتيشا وبلال. كما لو أننا اجتمعنا بعد فراق طويل. سألت نفسي: هل أحبها؟ هل يوجد شيء كهذا؟ هل أحب امرأة لا أعرفها، ومنذ أول مرة أراها فيها؟

لكني لم أشعر أبداً أن أول لقاء بيننا كان يمثل المرة الأولى التي رأيتها فيها. كنت أشعر أنها كانت موجودة في مكان ما من حياتي دوماً. وأني وجدتها الآن فقط.

هل يحدث هذا في عمري؟! ألا يجب أن يكون ذلك حصرياً على المراهقين؟ لعلي مراهق في السادسة والثلاثين. لعلي طفل توقف نموه عند مرحلة ما كما كانت كريستين تقول لي. كريستين. كم تبدو بعيدة الآن.

كم تبدو بعيدة عن لاتيشا. الحمد لله.

الله؟ هل وصلت الأمور إلى أني أحمد الله الذي لا أؤمن بوجوده على غياب كريستين.

مشوش أنا. وربما كانت عواطفي هذه تجاه لاتيشا نتيجة لهذا التشوش. لكنها لم تكن تشبه عواطفي تجاه كريستين بالتأكيد. كنت مع كريستين أشعر بالضعف. أشعر أني مثل طفل ينتظر أن تعاقبه أمه ويحاول استرضاءها كي لا تفعل.

مع لاتيشا أشعر أني كطفل أيضاً، لكني طفل يريد أن يثير إعجابها. يريد أن يريها أنه صار رجلاً.

انتبهت إلى ما فكرت به. وقلت لنفسي إني مريض في الحالتين. رجل توقف نموه في الحالتين. مرة بشكل مستلب جداً، ومرة بشكل أكثر إيجابية. لكني مريض.

وإن يكن! هل الحب إلا هذا النوع من المرض أو ذاك. تختلف أعراضه وأسبابه. لكنه مرض.

لكن.. هل أنا أحب لاتيشا؟ هل قلت الكلمة فعلاً. يبدو أني مريض فعلاً. أنا فقط معجب بها. معجب بشدة بها. هذا كل شيء. ليس مثلي من يحب بهذه السرعة. هذا غير ناضج.

سمعت صوتاً يضحك في داخلي: وأنت غير ناضج! ما الجديد؟

للأسف لم تهب عاصفة ولم تتأثر حركة الملاحة. في يناير كثيراً ما يحدث ذلك. كنت أتمنى أن يهب إعصار ويحتجزنا في المطار نحن الثلاثة. لكني سيئ الحظ وثمة مؤامرة كونية عليّ. لو كنت مع كريستين في المطار وكانت تجلدني بنظرياتها وبفرويد وأدلر لهبت عاصفة واحتجزتني في عذابي معها لأيام. أراقب لاتيشا وهي تعطي حناناً (مدروساً) لبلال. كان من الواضح أنها تخشى المبالغة في ذلك أمامي أو أمام أي أحد ربما. كانت تعطي النصائح والإرشادات كما لو أنها تتحدث مع رجل بالغ وفقط تريد تذكيره بها وأنه هو (أعلم) بها. أعجبني ذلك كثيراً. وددت لو أنها تفعل ذلك معي أيضاً. لكن

ذلك لم يكن يحدث للأسف. كانت تغير لهجتها معي، وتتحدث في تفاصيل أدوية بلال والطوارئ المحتملة بصبر، كما لو أنها تتحدث مع أحد طلابها.

كانت محقة في ذلك. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الأدوية. وكانت قد طلبت مني قبلها أن أراجع موقعاً يعطيني معلومات عن الحالة وعن المخاطر المحتملة في السفر. قالت لي أيضاً إن ثمة مخاطر ولكنها لن تكون أكثر من مخاطر ديزني لاند، وإنها تعتقد أن تحقيق أمنية بلال في رؤية والده سيكون له أثر إيجابي كبير على كل شيء..

طلبت لاتيشا من بلال أن يحضر لها القهوة من ماكينة القهوة. بدا واضحاً أنها تريد أن تتحدث معي على انفراد. سعدت بهذا كما لو أنها تريد أن تصارحني بمشاعرها!.. لكنها في الحقيقة – وكما يجب أن يكون متوقعاً - كانت تريد أن تحدثني عن سعيد. طلبت مني ألا أتوقع الكثير منه. موافقته على المقابلة لا تعني الكثير. هو شخص متقلب جداً، وأيضاً سريع الغضب، رغم أن قلبه طيب.

لمحت في عينيها بعض بقايا الحب لسعيد. لمحت حباً يائساً.. حباً امتلأ بالعضات والجروح حتى فضل أن ينسحب. شعرت بشيء من الغيرة. وقلت لنفسي بصوت غير مسموع إني مريض. وقال لي الصوت الآخر: ما الجديد في الأمر؟

قالت لي بعد ابتسامة مشجعة: سيد حلواني..

قاطعتها: أمجد، من فضلك.

أكملت بعد ابتسامة سريعة: أمجد، أنت تملك مقدرة لغوية فائقة. خبرتها فيما تكتب وما أرسلت من رسائل عن بلال الحبشي وسيناريو الفيلم.

تخيلت أني بدوت مثل كوبر عندما يهز ذيله فرحاً بجائزة مرتقبة.

أكملت هي: أرجو أن تستخدم كل مفرداتك وجملك في دعم بلال في هذه الرحلة. ما كنت سأثق بشخص آخر بسهولة. لكني أعتقد أنك يمكن أن تساعده. ربما أكثر مني. بلال يحتاج إلى ظل أب. إلى رجل في هذه المرحلة. رجل ويستطيع الدعم وليس أي رجل. حاولت كثيراً أن أعوضه، ولكن الأمر

يتجاوز حدود إمكاناتي. تصالحت مع هذه الحقيقة مؤخراً. كنت أرفضها وأصر على أني قادرة على أداء دور الرجل الخارق والمرأة الخارقة في آن واحد. للأسف، حتى دور المرأة الخارقة يبدو صعباً وكبيراً عليّ.

قلت لها مقاطعاً: هوني عليك. أنت تقومين بدور جيد.

أكملت هي فوراً: لا أقصد التشكي، أريد منك فقط أن تدعم بلالاً بكل مفرداتك وقدراتك فيما لو تصرف سعيد على نحو سيئ. سعيد شخص لا يمكن توقع ردود أفعاله. وربما صار أسوأ الآن بكثير مما عرفته يوم عرفته. لا أريد لهذه الرحلة أن تترك أثراً سلبياً على بلال في هذه المرحلة من حياته. لديه أشهر فقط ولا أريده أن ينتكس فيها. أريده أن يعيشها أروع ما يمكن. أريد لهذه الرحلة أن تساهم في ذلك.

بدا صوتها متأثراً جداً هنا. كما لو أنها فقدت السيطرة على قناع تماسكها.

قالت وثمة دمعة لم تنزل من عينيها ولكن بدت في صوتها: ما دامت حياة بلال ستكون قصيرة، فلتكن رائعة إذن.. مثل حياة الفراشة.

غمغمت كما لو كنت أتذكر شيئاً بعيداً: "أتمنى لو كنا فراشات لم تعش إلا ثلاثة أيام، ثلاثة أيام صيفية معك تحتوي من السعادة على أكثر ما يمكن لخمسين عاماً اعتيادية أن تحتويه".. جون كيتس لفاني براون..

أعتقد أني قلت الكلمات كما لو كنت أؤديها. كما لو كنت أوجهها للاتيشا. كنت دراميا جداً. مثل ممثل يؤدي أداء الاختبار لدور شكسبيري.

لمحت المفاجأة في عينيها. كما لو كانت قد شعرت أني أقول الكلمات لها. أو كانت المفاجأة بسبب أني عرفت الاقتباس.

لمحت بعد ذلك شعوراً بالارتياح على وجهها.

"كنت أعلم أنك ستكون مناسباً لدعم بلال".

تذكرت كوبر مرة أخرى وهو يهز ذيله وقلت "أتمنى أن أكون كذلك".

نظرت هي إلى بلال بعجلة وتأكدت أنه لا يزال بعيداً وقالت: "هناك شي

آخر يجب أن تعرفه وتنتبه له. شيء مهم جداً لم أرغب في الحديث عنه أمام بلال. أرسلت لك التفاصيل على بريدك الإلكتروني، يمكنك فتحه من هاتفك، أليس كذلك؟".

هززت رأسي أن نعم.

قالت وهي تلتفت لترى أين أصبح بلال.

"بلال يتعرض بين الحين والآخر لنوبات صرع.. نتيجة لضغط الورم اللعين على دماغه. الأدوية تسيطر على ذلك إلى حد كبير، ونوبات الصرع هذه متباعدة. ولكنها تحدث. وقد لاحظت أنها تحدث عندما يكون بلال تحت ضغط نفسي أو شد عاطفي كبير".

حاولت أن أستوعب ما تقول.

أكملت هي بصعوبة وعيناها لا تزالان على بلال: أصعب ما في الأمر هو هذه النوبات. كل ما يحدث مع السرطان لا يقارن بهذه الحالة. بلال لا يعرف عنها الكثير. هو يعتقد أنه يفقد وعيه فقط. لا يذكر شيئاً تقريباً عنها. أو على الأقل يتظاهر بأنه لا يعرف عنها.

نظرت إلى بلال وكان قد اقترب ومعه كوبا قهوة.

قالت لاتيشا بسرعة: وهناك شيء آخر.. بلال يملك موهبة كتابة. قررنا أن ننشئ موقعاً يضم ما يكتبه من رسائل أو أي شيء يخطر في باله. شجعه على ذلك..

كان بلال قد اقترب أكثر.

قالت لي بسرعة وبصوت خفيض: أريد أن يبقى منه شيء في هذا العالم.

❑ ❑ ❑

جاءت المضيفة لتسألنا بطريقة تحاول أن تكون مهنية: هل تسافران معاً؟

رد بلال بسرعة: لا، أنا قاصر يسافر وحيداً ولديَّ موافقة من والدتي

على الأمر، علماً أن خطوطكم الجوية، حسب موقعها الرسمي، تبيح لمن هو فوق سن ١٢، أن يسافر منفرداً مع تحويل الطائرة دون حاجة إلى موافقة من ولي أمره. وأنا فوق سن الـ ١٢ بعام وبضعة أشهر.

بدت مصدومة بجوابه.

أكمل بلال: أما إن كنتِ تقصدين السيد أمجد، هذا – وأشار إليَّ – فهو يصطحبني لزيارة والدي المحكوم بالسجن لسبع سنوات بتهمة تتعلق بتهريب المخدرات، ولدينا ما يثبت موافقة ولي أمري على أن يصاحبني إلى السجن كما أن لديه – مثلي – تصريحاً لزيارة والدي الذي لم يره من قبل، ولا أنا.

قالت ببساطة: سألتكما فقط، لأن هناك سيدة تريد أن تجلس بجانب الممروليس بجانب النافذة. فقلت إنه ربما لم تكونا وحيدين، وبالتالي يمكن لأحدكما الانتقال إلى مقعد النافذة.

بدا بلال محرجاً جداً من تسرعه في الرد.

قال لي: هل ترغب في الانتقال إلى جانب النافذة، سيد أمجد؟

قلت فوراً: لا، أنا مرتاح كما أنا.

❑ ❑ ❑

قبل أن أبدأ بمحاولة استدراج بلال في أي موضوع يخص والده أو يخص ما سيكتبه، أسرع هو بإخراج الأيباد من حقيبته، وقال اقرأ.

كانت هذه هي الرسائل التي تحدثت عنها لاتيشا.

قرأت الأولى. أرسلها إلى لينكولن. أحببتها جداً. وأحببت أنه تحدث عن بلال الحبشي. شعرت بالفخر لأنه يتحدث ويقارن مع شيء كتبته له.

ثم قرأت رسالته إلى والده. كانت صادقة وتلقائية. بلا أي تصنع. وتعبر عن كل من مر بألم الغياب.

قلت له: عمل عظيم.

قال لي: هل هو عظيم إلى درجة أنه يقهر الموت؟

ارتبكت، بدوت متردداً في الخوض في هذا الموضوع معه على هذا النحو.

أكمل هو بلا مبالاة : أمي تقول إنها لو وضعت هذه الرسائل وغيرها في موقع على النت، وقرأها الناس، وربما جمعت في كتاب، فربما يمكنني أن أقهر السرطان.. أو الموت، بطريقة ما. ربما هي تقصد أن أقاوم النسيان.. أن يبقى هناك من يتذكرني.

قلت له: ممكن جداً. بعض الأشياء البسيطة يمكن أن تقاوم الموت على نحو عجيب. هل تعرف آن فرانك؟

هز رأسه: لست متابعاً جيدا للفن. لو كان لديَّ اتصال بالنت لبحثت عنها فوراً في غوغل وقلت لك إني أعرفها. هل هي ممثلة أو مغنية من جيلكم؟

("من جيلكم" باعتبار أن الديناصورات كانت تلهو في الباحة الخلفية لمنزلي يوم ولدت).

قلت: لا. ليست "من جيلنا" وليست مغنية أو ممثلة. هي فتاة كتبت يومياتها قبل أن تموت، كانت في الثالثة عشرة يوم كتبتها، وماتت وهي في الخامسة عشرة، ترجمت لاحقاً لكل لغات العالم وبيع منها ملايين النسخ.

قال بلال: هل كانت مصابة مثلي بسرطان الدماغ؟

أجبته: الحقيقة لا.. لقد ماتت في معسكرات الاعتقال النازية. وكانت قد عاشت وأسرتها مختفية في منزل خوفاً من الاعتقال، وكانت تكتب معاناتهم في هذه الفترة، ثم اعتقلوا، وماتوا جميعاً إلا شقيقاً لها عاد لاحقاً إلى المنزل الذي كانوا مختبئين فيه، ووجد يوميات شقيقته..

قال بلال كما لو كان يتحدث مع نفسه: أعتقد أني رأيت شيئاً كهذا في فيلم ما.

ثم استدرك: لكنها لم تكن تعرف أنها ستموت يوم كتبت هذه اليوميات، صحيح؟

قلت: كانت تعيش في خطر حتمي للموت، لكن ربما كان لديها أمل بالنجاة.

قال بلال وثمة ابتسامة هادئة مستسلمة على وجهه: إذن لم تكن نسبة نجاتها صفراً في المائة.. مثلي؟

قلت: لا.. أعتقد أنه كانت هناك نسبة أمل أكبر من هذا.

غمغم بلال وهو ينظر من خلال نافذة الطائرة: إذن الأمر مختلف.

قلت له: الأمر مع نسبة الصفر في المائة أفضل للكتابة.

التفت لي متعجباً: كيف؟

قلت له: مع نسبة الصفر لا خيار هناك، عليك أن تترك شيئاً لأنك راحل بالتأكيد بسرعة.. مع نسبة أمل أعلى ثمة مجال للتأجيل.. تنتظر لكي تعيش حياتك أكثر.. وقد تلهيك هذه الحياة عن ترك أثر في الحياة.

عاد إلى النافذة وهو يقول كما لو كان يحدث نفسه: ربما.

ثم التفت فجأة: وأنت، هل ستترك شيئاً؟ أم أن مرضى السرطان وحدهم عليهم أن يفكروا هكذا؟

فاجأني سؤاله. هل سأترك شيئاً؟

لم أستطع أن أخفي ارتباكي، قلت شيئاً عن رسالة الماجستير التي نلتها والدكتوراه التي أعمل عليها وقلت إني أطمح أن تترك أثراً في طريق الأكاديميين الذين يدرسون تاريخ الشرق الأوسط من بعدي.

سمعت صوتي وأنا أقول ذلك ورأيت كلماتي على وجه بلال. كان ما قلته سخيفاً جداً وبلا معنى. لم أفكر أبداً أن آخذ الماجستير أو الدكتوراه من أجل أن أترك أثراً من بعدي أو أي شيء من هذا القبيل. كان أمراً أكاديمياً بحتاً نفعله جميعاً بلا تفكير أوسع من التفكير في الخطوة القادمة.

قلت بصوت يحاول أن يبدو أكثر ثقة: عملي في فيلم بلال. أريد أن أساهم به في ترك بصمة مختلفة عبر هذا الفيلم.

شعرت أن عبدول يمكن أن يقول هذه الجملة بحماس دون أن يكون كاذباً واضح الكذب مثلي. قبلت بالعمل على مضض فقط من أجل الأجر لا أكثر ولا أقل. ربما شعرت بالحماس لاحقاً بالتدريج، لكن هذا لم يكن إلا من خلال تفاعلي مع بلال، بلال الذي يجلس بجانبي في الطائرة المتجهة إلى دالاس ومن ثم إلى أوكيديل ليرى والده المسجون.

شعرت أن الشيء الوحيد الذي فعلته في حياتي، والذي ترك أثراً في حياة الآخرين، كان هذا هو الشيء الذي أفعله مع بلال.

لم أقل له ذلك. ولم يبد مهتما جداً على أي حال. فتح الآيباد مجدداً وآخذ يلعب لعبة (العصافير الغاضبة Angry Birds) دونما اهتمام.

سألته: لمن ستوجه رسالتك القادمة، بلال؟

قال دون أن يرفع عينيه عن اللعبة: لا أعرف.. ربما إلى خلايا السرطان.

وأعلنت اللعبة وصوله إلى مرحلة أخرى.

❐ ❐ ❐

في دالاس بينما نحن ننتظر الطائرة بدا بلال مضطرباً، وكنت أنا مضطرباً أيضاً. سأذهب للمرة الأولى في حياتي إلى سجن لأرى شخصاً لم أعرفه في حياتي لكي يراه ابنه الذي يراه للمرة الأولى أيضاً في حياته. بالتأكيد مضطرب أنا. وبالتأكيد مضطرب هو.

بدا لي بلال أكثر من مجرد مضطرب. ذهب وتقيأ وطلب بعدها دواء الصداع، ارتبكت وأنا أخرج الأدوية وقد نسيت أيها يكون للصداع وأيها للقيء وأيها للصرع. أخذ هو العلبة المناسبة وأخرج منها حبة وابتلعها ثم شرب من قنينة الماء التي معه. شعرت للمرة الأولى بمشاعر قدرت أنها لا بد أن تكون مثل مشاعر الأبوة.

اتصلت بلاتيشا، كنت أريد أن أقول لها إن الأمور بخير، لكني في الحقيقة كنت أريد أن أستمد منها القوة. بدت قلقة هي الأخرى وكان صوتها

مخنوقاً وهي تكاد تصرخ: رباه، قلت لبلال أن يتصل عندما تصلون دالاس، أعرف أنه يتضايق عندما أتصل أنا كي لا يبدو أني أعامله كطفل أمامك.

اتصل أنت لو سمحت.

ثم قالت بصوت حاولت أن يكون هادئاً: كيف هو؟

قلت لها: بخير، لكنه تقيأ مرة، ويشعر بالصداع وأخذ حبة من دواء الصداع.

قاطعتني بسرعة: حبة واحدة فقط؟ أعطه ثانية بسرعة.

قلت لها إني سأفعل بالتأكيد.

سألتني بصوت قلق: هل تشعر أن عينيه فيهما شيء غريب؟ ليستا ثابتتين؟

نظرت لبلال. نعم شعرت بشيء كهذا.

قلت لها بصوت قلق وأنا أبتلع ريقي: نعم يبدو ثمة شيء غريب فيهما. ماذا يعني هذا؟

قالت بصوت حاسم: أعطه دواء الصرع بسرعة. فيمبات ٢٠٠ مليغرام. علبة بيضاء بشريط أزرق من تحت.

قلت بهلع: هل سيصاب بنوبة صرع الآن؟

قالت وكأنها انتبهت إلى أن هلعي ليس في مصلحة الموضوع: ليس بالضرورة، الدواء قد ينهي المسألة. أرجو أن تهدأ وتتماسك.

كان من الواضح أني لم أكن أبدو متماسكاً أبداً.

قلت لها مثل ممثل سيئ يقف أمام الجمهور لأول مرة ليؤدي دور يوليوس قيصر: اطمئني. الأمور تحت السيطرة. كل شيء سيكون على ما يرام.

سكتت هي وتخيلتها تلعن الساعة التي قبلت فيها بمرافقتي لبلال في هذه الرحلة.

قلت بصوت طبيعي تقريباً: اطمئني. سأكون قريباً من الوحدة الطبية، وسأبلغ طاقم الطائرة، سأقرأ كل الإرشادات الخاصة بالأمر، وسأرى في اليوتيوب، لا بد أن هناك فيديو عن الأمر.

قلت الجملة وانتبهت لغبائها بعد أن سمعتها مني.

قالت هي: كان عليّ.. أن أبلغك بالأمر قبل هذا..(تخيلتها كانت تريد أن تقول: كان عليّ أن لا أرسله معك.. تريد أن تشاهد فيديو عن كيفية إنقاذ ابني؟).. لكن مضت مدة طويلة منذ آخر نوبة.

قلت لها: اطمئني. لقد كان تخصصي الثانوي في البكالوريوس هو التمريض.

قالت: أوه، هذا مريح.. شكراً لله.

كنت أكذب. تخصصي الجزئي كان علم الاجتماع. للأسف غير فعال هنا.

لكن الكذبة كانت فعالة.

وشاهدت فيديو التعامل مع حالات الصرع على اليوتيوب!

❒ ❒ ❒

لم تأت النوبة.

لكن بلالاً زاد اضطراباً واصفراراً. وتقيأ مرة أخرى في الطائرة. كدت أتقيأ أنا أيضاً. وبالتأكيد زاد اضطرابي أنا واصفراري.

لقد اقتربنا.

حاولت أن أتحدث مع بلال عن الأمر.

قلت له: كيف أنت يا رجل؟ لقد اقتربنا. سترى أخيراً رجلك العجوز.

هز رأسه وزم شفتيه. سكت أولاً كما لو كان يريد أن يعرف كيف يكون الجواب عن هذا السؤال.

هل هو بخير لأنه سيرى والده للمرة الأولى في حياته؟

قال: أفضل من جلسات العلاج الكيمياوي بالتأكيد. لمحت دمعة في عينيه. لكنه التفت لي وابتسم.

لقد ابتسم!

في وجهه ثمة مزيج من كل شيء. الأمل والألم والخوف والقوة والحزن والسعادة والترقب.

كل شيء.

فكرت: كيف يحتمل قلبك يا بلال كل هذا؟

❐ ❐ ❐

· هبطنا في مطار ليك تشارلز الأقرب لأوكيديل، حيث إن مطار ألن بارش في أوكيديل (في اللا مكان) الذي استبشرت بوجوده في أوكيديل أول ما بحثت عنه كان موجوداً كنصب تذكاري تقريباً. هناك رحلة واحدة فقط في اليوم لهذا المطار.. لا ريب أن الموظفين فيه يقضون وقتاً طيباً..

كنت أتمنى لو كانت الإجراءات تأخذ وقتاً أطول في ليك تشارلز. للأسف كانت أسرع عملية خروج من مطار في حياتي. وجدنا أنفسنا فوراً في الشارع وأمامنا سيارات الأجرة.

لم أتخيل يوماً أني سأطلب من سائق أجرة أن يذهب بي إلى السجن.

ها أنا ذا أفعلها.

الطريق إلى سجن أوكيديل من مطار ليك تشارلز يستغرق ساعة تقريباً. سنصل في منتصف النهار. الوقت لا يزال مناسباً كما خططنا. وقت الزيارة ينتهي في الثالثة عصراً. لا يزال ثمة متسع. فكرت إن كان سعيد قلقاً ومضطرباً ويتحرك في زنزانته مثل حيوان حبيس في قفص، أم أنه غير

مكترث. لكني كنت أعتقد أنه مكترث فعلاً لأنه كان بمكن له أن يرفض الزيارة، لقد وافق عليها وإلا ما كانت ستأتي الموافقة على زيارتنا.

حاولت أن أكسر التوتر من خلال التحدث مع بلال عن أي شيء، ولكنه بدا غير مهتم. تحدثت عن الفيلم كما لو كنت شخصاً مهماً في الإعداد له، وتحدثت عن المصادر التاريخية التي أعمل عليها وصعوبة الترجمة من لغتها الأصلية إلى الإنجليزية، أي شيء، بلال لم يرد، لكن كلامي عن الفيلم أثار اهتمام سائق سيارة الأجرة وتصور أني أعمل في هوليوود، فسألني إن كنت عملت مع ويل سميث؟

عرفت في أي ورطة وضعت نفسي فقلت له: لا. وسكت على أمل أن ينتهي الموضوع عند هذا.

قال: وديترل واشنطن؟

قلت له: لا. لم يحدث.

قال: من إذن من المشاهير؟

قلت: بوب غيلدوف.

كنت رأيته مرة في الجامعة في محاضرة عن البيئة. هذا كل شيء.

قال: لم أسمع به من قبل، هل ظهر في أي فيلم مشهور؟

قلت: لا هو (مغني)، وناشط في مجال البيئة.

رفع السائق كتفيه بسخرية وقال: لم أسمع به من قبل. ولا بد أنه قال في نفسه عني أني كذاب كبير أخدع الصبي بمكانة وهمية لي.

لا بأس. انتهى الأمر هنا.

التفتُّ إلى بلال وقلت له: اليوم هو يوم ذكرى مارتن لوثر كنغ ، ثالث اثنين في يناير، لم لا تكتب رسالة له؟ أجده شخصاً ملهماً، خاصة مع موضوع بلال الحبشي وكل شيء.

نظر بلال شزراً لي وقال وهو ينظر إلى النافذة: ربما سأفعل.

فكرت أن عليَّ أن أصمت قبل أن يتفق بلال والسائق على التخلص مني.

بهدوء أخذت ثالث حبة زانكس لهذا اليوم.

❑ ❑ ❑

ها هو السجن؟.

بدا لي مثل مدرسة أو مصحة.

ليس سجناً على الإطلاق.

وقفنا على الأبواب، نظرت لبلال، كان هادئاً جداً. لم يبد عليه الاضطراب.

قلت له: مستعد؟ ورفعت قبضتي لأسلم عليه بها.

قال: فلنذهب ونأت به. ورد التحية بمثلها.

كانت الإجراءات سريعة. شرحت بعض الأمور لأكثر من شخص. علاقتي ببلال والموافقة من أمه وعلاقة بلال بالنزيل.

تم تفتيشنا أكثر من مرة، وتم أخذ الأدوية. شرحت أهمية بعضها في حالة حدوث طارئ أثناء المقابلة، فتم السماح لي بأخذ حبة واحدة من كل عقار، وكان الأمر مربكاً لي أكثر، إذ كنت قد حفظت وظائفها من أشكال علبها وليس من أسمائها. وضع الموظف المختص حبة واحدة داخل مغلف وكتب اسم الدواء عليه.

على الأقل تمكنت من تذكر اسم دواء الصرع، وكنت أتمنى أن أستطيع القول لبلال أن لا يصاب بالنوبة هذه المرة كي لا تكشف لاتيشا كذبتي عن تخصص التمريض الذي أحمله مع التاريخ.

ها نحن أمام باب الصالة. صالة الزيارة.

نظرت لبلال، بدا هادئاً، لكني لو أرهفت السمع قليلاً، لسمعت دقات قلبه.

❑ ❑ ❑

بدت الصالة مثل قاعة طعام في مدرسة.

طاولات مرقمة، وأربعة (كراسي) ثابتة تحيط بالطاولة.

كاميرات في كل مكان. لا يوجد حاجز زجاجي يفصل بين النزلاء والزوار.

كانت القاعة نصف ملآنة تقريباً. لكن لم يكن هناك ضجيج كبير.

كانت هناك أصوات طبيعية تخفف التوتر.

تم توجيهنا إلى الطاولة رقم ١٩.

ذهبنا بهدوء وجلسنا ننتظر. رغم الصوت كنت متأكداً أني أسمع دقات قلب بلال. أو لعلها دقات قلبي. لا أعرف. بدا كل شيء مختلطاً. خطر في بالي أن (سعيد) لن يأتي وأنه غيّر رأيه بعد أن قطعنا كل هذه المسافة. كنت على وشك أن أقول ذلك لمسؤول القاعة عندما اكتشفت أنه لم تمض دقيقتان على جلوسنا. وأن سعيداً لم يتأخر حقاً.

بدت الدقيقتان كدهر.

في الفجر كنا في نيويورك، في عالم آخر، والآن، ها نحن في هذا السجن، وسعيد على بعد خطوات. وبلال سيحقق (رغبة موته).

دخل سعيد القاعة من الجهة الأخرى. مصحوباً بحارسين.

عرفته فوراً. حدست أنه هو. ونظرت إلى بلال. عرفت أنه عرفه أيضاً. أذناه تغير لونهما. بدتا كما لو أنهما انتصبتا. بدا بلال منتصباً متوتراً كوتر مشدود.

خطوة خطوة اقترب سعيد. وخيل لي أني أسمع دقات قلب بلال تتصاعد. ربما كان قلبي يشارك أيضاً. ربما قلب سعيد. لا أدري. اختلطت عندي الدقات. لم أعد أميز.

وقف سعيد أمامنا. بدا لي أكبر قليلاً مما تخيلته. بدا أكبر مني. نحيل. وشم يغطي ذراعيه. عينان غائرتان تشبهان عيني بلال كثيراً وتتجول بيننا بحيرة.

وقفت ومددت يدي: أمجد حلواني، صديق للعائلة.

مد يده وصافحني بارتباك. كانت يده باردة جداً.

بقي بلال جالساً ولم يتحدث.

جلس سعيد دون أن يقول كلمة. كان ينظر إلى بلال بصمت وهدوء وحيرة.

بلال كان ينظر لأبيه بتفحص. بهدوء شديد. لم يبد عليه الارتباك أو الترقب أو أي شيء. كما لو أنه لم يرغب في أن يبدي ضعفه أمام أبيه الذي تركه وهو ابن شهور. كما لو أنه يقول له: تركتني، ولكني لا أحتاجك. كان ثمة برود غريب في نظرات بلال.

قال بلال: هذا أنا، بلال، ابنك،

تلعثم وازدرد ريقه ثم قال: يا أبي.

أحسست بالكلمة وهو يقولها، تذكرت ما كتبه، كيف كان يكرر الكلمة وهو صغير ليسمعها عندما تقال من لسانه. ها هو يقولها أخيراً.

ابتسم سعيد ببلاهة وقال: ماذا هناك يا صديق؟

رد بلال دون تردد: لا شيء في الحقيقة، لكني مصاب بسرطان الدماغ وسأموت بعد أشهر. جئت أراك قبل أن أذهب.

قالها بسرعة كما لو كان يطلق الرصاص. كنت متأكداً أنه تدرب عليها. لا يمكن لجملة كهذه أن تقال بهذه السرعة دون تحضير.

بدت الصدمة على وجه سعيد. ثوان ممتدة مرت قبل أن يبدو عليه أنه فهم. انتقل من الابتسامة البلهاء إلى الدهشة إلى الصدمة إلى الذهول. بدا غير مصدق. نظر لي كما لو كان يريد مني أن أقول إن بلالاً يمزح معه.

أحنيت رأسي بهدوء.

بدأ سعيد بالقول: لا.. لا.. لا

كان يلتفت يميناً وشمالاً كما لو أنه وضع في المكان الخطأ.

ثم حدث ما لم يكن بالحسبان.

بدلاً من نوبة صرع بلال التي كنا نتحسب لها، كانت نوبة بكاء هستيري من سعيد.

انفجر سعيد ببكاء لم أر مثله من قبل. كان ينشج ليس بصوت عال، بل بصراخ. كان ينتحب بكل جسده. كل القاعة عمها الصمت وكل العيون صارت موجهة نحو طاولتنا. واقترب حارسان منا بحذر. كان سعيد يصرخ في بلال بكلمة واحدة: سامحني، سامحني..

وكان بلال ينظر له بجمود. لا تعبير على وجهه. لا شيء. كما لو أنه قد مات. لا شيء.

بينما كان سعيد ينشج ويقول: سامحني، سامحني.

ثم اقترب سعيد في حركة مفاجئة واحتضن بلالاً وهو مستمر في النحيب. تحرك الحارسان نحو سعيد بسرعة ليبعداه عن بلال خوفاً من أي حركة عنف مفاجئة تصدر عنه.

انهار سعيد أرضاً وهو ينتحب، ولا يزال يصرخ: سامحني يا بلال، سامحني بلال..

كان بلال لا يزال ينظر له بجمود، ولكنه اقترب منه.

رأيت بلالاً يربت على كتف أبيه.

عندما هدأ نحيب سعيد، رأيت بلالاً يربت على كتف سعيد، وهو يقول له: سيكون الأمر بخير يا أبي، سيكون الأمر بخير يا أبي.

لكنه كان لا يزال ينظر ببرود.

ولم أسمعه يقول إنه قد سامحه.

بعد قليل هدأ سعيد وإن استمر بالبكاء بصمت. اعتذر لي وللمحيطين. وسألني عن لاتيشا. فرد بلال: أمي بخير. هي تعمل الآن مدرسة ونعيش في نيويورك.

قال سعيد من بين دموعه إنه كان يفكر ببلال دوماً ولكنه كان يريد أن يكون (أفضل) عندما يذهب ليزوره. كان يريده أن يفتخر بأبيه. ولكنه لم يستطع أن يكون (أفضل) قط وها هو ينتهي هنا.

نفس النظرة من بلال. لا شيء. فكرت أنا أن كلام سعيد متوقع جداً. ربما قاله مليون أب قبله في موقف مماثل. لكن ربما لم يفعل مليون أب كما فعل من نحيب هستيري.

أما نظرة بلال فقد كانت جامدة. فسرتها أنا: ولا حتى بطاقة في عيد الميلاد؟ هل فكرت أن تعرف أين نسكن أصلاً؟

نظر لي سعيد وهو يمسح دموعه، ثم قال: "هل أنت صديق لاتيشا؟".

لم يكن في عينيه أي غيرة أو شيء من هذا القبيل. كان أشد يأساً من أن يقوى على الغيرة.

هززت رأسي بالنفي، وتبرع بلال بشرح الأمر باختصار. سيكون هناك فيلم للرسوم المتحركة عن بلال (الأصلي) - هكذا قال بلال عن بلال الحبشي - وسيكون عنوان الفيلم (بلال)..

"غالباً سيظهر الفيلم بعد أن أكون قد ذهبت، لذا أحببت الاطلاع على سيناريو الفيلم كي أتخيله. والسيد حلواني هو أحد كتاب السيناريو في الفيلم وقد راسلته طالباً منه ذلك، وهو يساعدني في الأمر".

نظر لي سعيد مرة أخرى بذهول.

ثم ردد كما لو أنه يتذكر شيئاً من حياة أخرى: بلال، بلال بن رباح مؤذن الرسول؟

هززت رأسي وأنا خائف من نوبة بكاء أخرى.

نعم عادت الدموع إلى عيون سعيد، ولكنه لم ينفجر بنوبة أخرى بل التفت إلى بلال وقال له: لن تصدق هذا يا بلال، أنا لم أكن متديناً قط. ولا أعرف كيف أصلي أصلاً، لكن في اليوم الذي سبق يوم ولادتك، مررت بمسجد يقع في وسط سانت لويس، في شارع ويست باين، قرب جامعة

سانت لويس، وكان اسمه مسجد بلال بن رباح، انتبهت للاسم، لم أكن أعرف من هو بلال وكنت أحب الاسم، هكذا دون سبب، فدخلت المسجد، وسألت أحد الموظفين هناك عن الاسم، فشرح لي عنه، لا أذكر التفاصيل لكني شعرت بالفخر لأنه كان أول أفريقي أسود يدخل الإسلام ويحصل على حريته، قلت لهذا الشخص إن زوجتي على وشك الوضع وإني أريد أن أسمي ابني (بلال)..

سكت سعيد ودمعة تنزل من عينيه، كما لو أنه يتذكر حلماً جميلاً ضاع منه.

أكمل: شرح لي هذا الموظف أن بلالاً كان هو المؤذن طيلة حياة الرسول، كان ينادي للصلاة، وقال لي إن كلمات بلال تلك، التي كان يرددها في النداء، يجب أن تقال للمولود في أذنه اليمنى يوم ولادته.

مسح سعيد دمعته، وارتعشت أنا. بلال كان لا يزال محافظاً على بروده.

قال: زاد تصميمي على أن أسميك بلالاً، كانت لاتيشا تريد أن تسميك جوشوا.. لكنني صممت، وقام هذا الشخص بتحفيظي تلك الكلمات، حفظتها دون أن أفهم شيئاً منها..

وضع سعيد يديه على عينيه كما لو كان يريد أن لا يرى أين هو الآن، ويتذكر فقط تلك الأيام:

ثم نظر إلى بلال وهو يبتسم: ولدت أنت في اليوم التالي، وكنت لا أزال أذكر الكلمات التي كان يقولها بلال، أخذتك في يدي وهمست بها في أذنك.

انهمرت دموعه بصمت وأغمض عينيه. أحسست شيئاً ساخناً على خدي. اكتشفت أني أبكي أيضاً.

ساد الصمت. التفت لي بلال وهو ينظر لي بتأنيب كما لو أنه قبض عليّ متلبساً: لم تقل لي شيئاً عن كلمات النداء للصلاة؟

قلت بارتباك: نعم، كنت على وشك الإعداد لذلك.

انتهى وقت الزيارة.

احتضنه سعيد مجدداً وهو يودعه وسمعته يقول: سامحني يا بلال.

رأيت نفس النظرة الباردة على وجه بلال، وسمعته يقول: سيكون الأمر بخير.

في الرواق الذي يقودنا إلى باب السجن الخارجي، كانت دموع بلال تنهمر بصمت.

لم تكن نظرته باردة أبداً.

كان يبكي. لكن بصمت.

احتضنته بينما كنا نسير. كنت أقول له ما كان يقوله هو لأبيه.

وكنت أعرف أن لا معنى لهذا على الإطلاق.

❒ ❒ ❒

أرسلت رسالة نصية إلى لاتيشا لأخبرها أن بلالاً بخير وأن (سعيد) انفجر باكياً على نحو هستيري طالباً المغفرة من بلال وأن بلالاً تصرف كرجل شجاع وحاول تهدئة أبيه.

اتصلت هي فوراً. كان صوتها يدل على أنها بكت في الفترة الفاصلة بين قراءتها للرسالة واتصالها، ربما نصف دقيقة فقط أو أقل.

قالت بلهفة: كيف هو بلال؟

كنت تقدمت خطوات على بلال كي لا يسمعني، قلت لها: يمكنك أن تفخري به. كان رجلاً. لم أكن لأتخيل ما فعله. كان رجلاً بحق. بقي يهدئ والده ويقول له ستكون الأمور بخير ويربت على كتفه بينما سعيد يبكي.

سكتت لاتيشا كما لو كانت تحاول تخيل المنظر. ثم قالت: وسعيد، كيف هو؟

لا تزال تحبه؟! أم مجرد سؤال؟

قلت لها: سعيد كان كما وصفته بالضبط، غير متوقع. انفجر بالبكاء بعد أن عرف بوضع بلال، وتقريباً لم يقل شيئاً. بقي يردد "سامحني، سامحني" أغلب الوقت. ثم تحدث عن السبب الذي جعله يسميه (بلال)، تحدث عن مروره بمسجد يحمل الاسم في وسط سانت لويس، وأن أحدهم شرح له من هو بلال، وعلمه كلمات النداء للصلاة كي يهمس بها في أذن المولود الجديد أول ولادته..

قاطعتني: ماذا؟ هل هذا نوع من طقوس التعميد عند المسلمين؟!

لم أكن أعلم شيئاً عن هذا أصلاً. لا فكرة لديَّ. لا أؤمن بأي دين وبأي طقوس ولا أعرف شيئاً تفصيلياً كهذا. لكن (سعيد) كان يقولها بثقة جعلتني أرد بثقة على لاتيشا: نعم، مثل التعميد بالضبط، كلمات تقال للمولود الجديد، يفضل أن يقولها الأب (لم أكن متأكداً من هذا، ولكني قلتها بصوت حاولت أن يبدو واثقاً).

قالت لاتيشا كما لو كانت تحدث نفسها: أذكر فعلاً أنه أخذه وجال به وهو يهمس له شيئاً.

ثم قالت بقلق: هل الكلمات هي تعويذة أو سحر أو شيء كهذا؟

قلت بسرعة: لا لا لا أبداً، نادراً ما تجدين شيئاً كهذا عند المسلمين، هي كلمات النداء للصلاة فحسب. لا شيء أكثر.

ردت بسخرية: لا بد أنها مؤثرة جداً عندما تأتي من شخص لم يُصل في حياته.

ثم قالت: المهم أن بلالاً بخير؟

أكدت لها أنه بخير. -

ساد صمت توقعت خلاله أن تغلق الهاتف لكن جاء صوتها متردداً: هل كان سعيد يطلب السماح من بلال فقط؟ أم أنه شملني في الأمر؟

ترددت في الجواب. ثم قلت: قال سامحني. فقط.

عاد صوتها قوياً مستفزاً: بالتأكيد. سمعتها منه بما يكفي، لذا وفرها لبلال فقط هذه المرة.

بقيت صامتاً.

ثم قالت: ما كنت سأسامحه بكل الأحوال!

❒ ❒ ❒

قضى بلال وقت الانتظار في مطار ليك تشارلز نائماً كما لو أن كل ما حدث قد استهلكه. وعندما استيقظ كان ساهماً ولم يبد تجاوباً معي على نحو مقلق.

في مطار دالاس كان بلال أفضل، قال لي فجأة كأنه تذكر شيئاً ونحن في انتظار الطائرة إلى دالاس: كيف تجاهلت كلمات نداء الصلاة عندما كتبت لي عن بلال؟

كنت صريحاً: لم أتجاهل، فقط أجلت الأمر.

قال بلال: لماذا؟

قلت له: كلمات النداء للصلاة عميقة جداً، فيها أبعاد، لنقل فلسفية، لذا أحاول أن أصيغها بطريقة مقبولة. هذا هو الأمر لا أكثر.

قال بلال: أمر عميق، ها؟

قلت: نعم، أحاول أن أبسطه قدر الإمكان.

لم أقل إني أحاول أن أفهم الأمر. أحاول أن أفهم كيف أفسر أو أتحدث عن "لا إله إلا الله" ، وأنا - تقريباً -- أؤمن أن "لا إله".

رد بلال: لقد سمعت ما قاله رجلي العجوز، تقريباً هو لم يفعل شيئاً لي - كل حياتي - غير أنه همس بهذه الكلمات في أذني، غادر بعدها بأشهر، لذا فهذه الكلمات مهمة بالنسبة لي..

ثم أردف: لو سمحت.

غرقت في أفكاري. غمرني شعور عميق وغامض أن كل ما حدث منذ البداية الأولى كان من أجل الوصول لهذه النقطة. لمفترق الطرق الذي يفصل بيني وبين الضفة الأخرى، بين (لا إله) و (إلا الله).

شعرت أن لاتيشا وسعيداً التقيا أصلاً من أجل هذا، سعيد يمر قبل ولادة ابنه بمسجد اسمه بلال بن رباح، يتذكر أنه يحب هذا الاسم، فيدخل ليسأل عنه، ويعرف الكلمات، يحفظها، يولد ابنه في اليوم التالي فيسميه بلالاً، ويهمس بالكلمات، ثم يرحل بعد أشهر.

بعدها بسنوات، أعمل أنا - الملحد - على فيلم عن بلال بن رباح، بينما بلال يصاب بالسرطان، ويراسلني أنا من دون كل طاقم العمل، لأكتب له عن بلال الأصلي.. أحاول أن أتجاهل كلمات الأذان التي تتعارض مع كل ما أؤمن به، فأجد نفسي أزور والد بلال مع بلال، في السجن، ليحكي لنا هذه القصة..

وأجد نفسي، أمام حتمية أن أخوض في الأمر.. حتمية أن أقف في مفترق الطرق هذا، وأنا في شكي المرير المتعب، بين لا إله، وبين لا إله إلا الله.

شعرت كما لو أن كل تفصيل في القصة، منذ البداية، منذ البداية جداً، قد صمم، لكي أصل - لكي نصل ؟- لمفترق الطرق هذا، لهذه النقطة حيث يجب أن أخوض في وجود الله. فيما كنت أتجنبه. ليس مع بلال فقط، بل مع نفسي أيضاً..

هل مر سعيد بالصدفة قبل أن تضع زوجته في شارع ويست باين في وسط سانت لويس، وشاهد المسجد بهذا الاسم، هل دخل بالصدفة ليسأل عن الشخص الذي سمي المسجد باسمه؟ هل كانت الصدفة هي التي جعلته يلتقي هناك بشخص يتحدث له بحماس ويحدثه عن الكلمات التي كان يقولها بلال في نداء الصلاة والتي يجب أن تقال في أذن المولود الجديد..

ويقولها سعيد، ثم يغيب لـ ١٣ عاماً عن بلال، وأشاهد أنا لقاءهما الأول، ومن بين كل ما يجب أن يتحدث به، يحكي لبلال هذه القصة.

هناك مؤامرة كونية ضدي تستدرجني إلى هذا الموضوع. كما لو أن كل ما في القصة قد صمم لأجلي أنا، كيف لمجموعة صدف أن توصلني إلى أوكيديل – في وسط اللا مكان - لكي أحدد مكاني بين (لا إله) و (لا إله إلا الله)..

كيف لمجموعة صدف متتالية أن تجعلني أصل إلى هنا؟

شيء ما في كل الموضوع يظهر كما لو أن هناك ثمة مايسترو يرتب الأمور، لا يمكن لعفوية أصوات العصافير أن تنتج سيمفونية عاشرة لبيتهوفن.. لا يمكن لمجموعة ممثلين يرتجلون حواراً على المسرح أن يخرجوا بهاملت..

وما كان يمكن لكل هذا أن يحدث معي، مع بلال، مع سعيد، بمجرد صدفة..

حاولت أن أطبق نظرية التطور والارتقاء.. سمعت جزءاً ما في داخلي يقول لي إن نظرية التطور التي أؤمن بها لا تتحدث عن الصدفة، بل الارتقاء، عن البقاء للأصلح.. عن من يصمد في وسط الظروف المتغيرة.. ويتمكن من البقاء..

لا أزال أؤمن بهذا. لكني شعرت أن هذا غير قابل للتطبيق هنا.

وعندما يكون غير قابل للتطبيق هنا، فإنه ربما يكون غير قابل للتطبيق في أي مكان آخر.

عندما يكون غير قابل للتطبيق، فإنه قد يجعل من الأمر كله معرضاً لسؤال: ومن وضع الأمر كله منذ البداية؟ من وضع الأشياء أصلاً وتركها تتصارع وتتطور وترتقي وتنقرض؟

كيف يمكن لزيارة سجن في وسط اللا مكان أن تقودني لهذا؟!

" هاي، لا تريد العودة إلى نيويورك؟"

انتبهت إلى صوت بلال وهو يتحدث معي.

"رحلتنا، ينادون عليها".

كنت قد استغرقت وقت الانتظار في التفكير فيما حدث.

بينما نحن نصعد الطائرة كتبت رسالة نصية للاتيشا: نحن نركب الطائرة الآن، نراكِ بعد قليل.

لم أكن أعلم أن بلالاً، بينما أنا غارق في أفكاري، كان قد كتب ما سيجعلني أحسم أمري في مفترق الطرق.

بالتأكيد ليست صدفة.

الكون كله يتآمر ضدي.

أو يتعاون معي؟!

□ □ □

حسناً أبي.

لقد رأيتك.

كان الأمر مختلفاً قليلاً عما توقعته. أو أستطيع أن أقول إنه كان مختلفاً جداً عما توقعته. ولكن، ما الذي توقعته أصلاً؟ وما هو المتوقع من أب غاب عن ابنه لثلاث عشرة سنة، وسجن، ثم جاء ابنه ليزوره في السجن، ويخبره أنه أول وآخر مرة سيراه فيها، لأنه سيموت قريباً، وقبل أن ينهي مدة سجنه؟

ما هو المتوقع في ذلك؟

كم مرة حدث ذلك أصلاً من قبل.

ربما هذه هي أول مرة تحدث أصلاً في التاريخ.

ربما أنا الرائد في ذلك.

أنا أول من ذهب إلى والده في السجن، وهو لم يره من قبل، وأخبره أن لديه سرطاناً في الدماغ وأنه سيموت.

❐ ❐ ❐

كنت قد وضعت في بالي أن لا تظهر.

كان ذلك أكبر مخاوفي.

أن أكون قد قطعت كل هذه الساعات في الطائرة، وتكون على بعد أمتار، ثم تكون أجبن من أن تواجهني.

لكنك على الأقل كنت شجاعاً.

هذه نقطة لك.

صحيح أنك انهرت باكياً على نحو لم أره من قبل، ولم أتوقعه، ولكنك كنت نادماً على الأقل.

علمتني أمي أن لا أبكي. على الأقل ليس هكذا. لم تعلمك أمك – جدتي؟! – هذا أيضاً.

لم أشعر بالعطف على بكائك بالمناسبة، لم أشعر بشيء تقريباً. أو ربما لم أفهم. إذا كنت نادماً لهذه الدرجة، لِمَ لم تفعل شيئاً، ولو صغيراً، طيلة هذه السنوات. لم تتصل، لم ترسل رسالة، لم تقل لي إنك موجود، إنك تذكرني أو تذكر اسمي أو تذكر أصلاً أنك أنجبت من زواج لست متأكداً أنك تذكره.

تعرف؟ لم تكن هذه أول مرة أتحدث معك.

بحثت عنك طويلاً في مواقع التواصل الاجتماعي. فيس بوك، تويتر، ماي سبايس. لم أجدك. فأنشأت أنا لك حساباً على الفيس بوك، باسمك وبالصورة الوحيدة التي أملكها لك، وصرت أتبادل الرسائل معك، وكنت أرد عليّ بالنيابة عنك. أخبرتك بأشياء كثيرة عما حدث ويحدث لي، وكنت أتقمص دورك وأرد على نفسي، أحاول أن أتخيل كيف سيكون رد (الأب) على ما سأقول. غالباً أجوبتك كانت تعتمد على (الستيريو تايب) للأفريقي الأمريكي الذي له وضعك.

استمر الأمر بضعة أشهر. استشرتك في أمور كثيرة، وأخبرتك بأشياء لم أخبر أحداً عنها، كنت أشعر بالراحة لمجرد أن أقول، لمجرد توهمي أنك تعلم. كان هذا مريضاً جداً. لكن ليس أكثر من سرطان الدماغ. ولا أعلم إن كان مريضاً أقل أو أكثر مما فعلته أنت اليوم عندما رأيتني. الستيريو تايب الذي كنت أراسله لم يكن ليفعل ذلك.

ذات يوم، فجأة تماماً، استقبل حسابك رسالة من فتاة اسمها منيرة، اتضح لاحقاً أنها عمتي التي لا أعرف شيئاً عنها، الرسالة كانت تقول: سعيد؟! هذا أنت؟! ألست في السجن؟

رددت عليها، واضطررت إلى الاعتراف بـأن الحسـاب منسـوب لك وأني بلال ابنك، أمر مثير للشفقة، لكنها تفهمت جداً، كانت تعرف بوجودي، لكنها لم ترني قط، لأنك كنت قد قاطعت أسرتك في الفترة التي ولدت أنا فيها أو شيء كهذا، ثم عدت للتواصل معهم بشكل متقطع خلال السنوات التالية، لم تخبرني الكثيرعنك، لأنها أصلاًلم تكن تعرف الكثير، لكنها كانت تعرف أنك في السجن في لويزيانا، وكان هذا هو الخيط الذي قادني إليك اليوم.

أخفيت عمتي عن أمي، لم تعرف أمي أي شيء عن الأمر كله. بقيت أتراسل معها من خلال حسابك الذي لا تعرف عنه شيئاً. أحببت عمتي. بدت حنونة جداً. لا تزال في سانت لويس. لديها ابن في مثل سني ولكن بلا سرطان في أي مكان ولديها فتاتان. واحدة أصغر مني والأخرى أكبر. وزوجها هو والدهم. ويعيش معهم.

سأخبرها أني زرتك في السجن.

هل سأقول لها إنك بخير؟

لا أعرف.

هل أنت بخير؟

لم تبد لي أنك كذلك.

□□□

تعرف شيئاً، سأقول لك شيئاً مريضاً جداً. لكن لا بأس. كل ما سبق كان كذلك.

بطريقة ما، شعرت أننا الآن فقط، قد تعادلنا.

الآن نلت منك، كما نلت مني سابقاً.

أعرف أني آذيتك جداً اليوم، أعرف أني سببت لك الألم، لا يمكن أن يكون كل ما قمت به مجرد تمثيل.

أذيتك اليوم، كما آذيتني أنت بغيابك لثلاث عشرة سنة.

لم أقصد أن أرد الأذى. لكن هذا ما حدث.

وأشعر بنوع من الراحة والصفاء.

لقد تعادلنا.

الآن فقط، يمكننا أن نبدأ بعلاقة جديدة.

لن يحدث هذا طبعاً. لكنه يمكن أن يحدث لو كانت الأمور طبيعية.

بعد أن تعادلنا، ثمة سلام.

الآن أفضل بكثير.

□ □ □

قالت لي أمي يوم وافقت على مجيئي السجن، وكانت موافقتها ضرورية لإجراءات الزيارة، إن عليَّ أن أخرجك مني، قالت لي إني أختنق بك، وإن عليَّ أن أراك كي أتمكن من أن أخرجك من داخلي. قالت إن عليَّ أن أنهي الأمر كي أمضي في طريقي، طريقي الذي لن يكون طويلاً كما تعلم.

ما تقوله أمي صحيح. لكني لن أخرجك مني بالضبط. لقد تصالحت معك. لذا لن تكون عالقاً في أحشائي كما كنت. ستكون في داخلي. لكنك لن تكون عالقاً عائقاً بعد الآن.

تعرف يا أبي؟

الأب، يشبه الله في نواح كثيرة.

الأب موجود بالتأكيد، ما دمت أنا موجوداً فهو موجود، حتى لو لم تكن له صورة، حتى لو لم تقل أمي عنه شيئاً، حتى لو كانت لا تعرف عنه شيئاً ولا حتى اسمه، حتى لو كان مجرد حيمن من متبرع وقع على أوراق لعدم كشف اسمه. هو موجود. ما دمت موجوداً أنا، فهو موجود.

ربما لا ترغب أمي أن تعرف عنه شيئاً، ربما لا يهمها أمره، ربما تكرهه، أو لا تكرهه، فقط لا تفكر فيه ولا ترغب في أن تتذكره، لكن لا شيء يمكن أن يجعله غير موجود.

هناك من يتجاهل كل هذا. هناك من ينكره. هناك من ينكر وجود الله أيضاً. لكن هذا غباء. برأيي على الأقل غباء. الأمران متشابهان. إنكار وجود الأب، مثل إنكار وجود الرب. ما دمت موجوداً، ثمة أب بذر بذرته في أمك، حتى لو كان مجهولاً تماماً. لكنه موجود. كذلك الرب. ما دمت موجوداً، فهناك من صنعك. هناك من وضع الأمور كلها بحيث أدت إلى أن تكون.

غريبة هي العلاقة بين الأمرين. لكن كثيرة جداً هي الأشياء الغريبة في الحياة. وأجد أن الله والأب يتشابهان في أشياء كثيرة. كما لو كان الأب قد حاول (أو يفترض أن يحاول، ليس في حالتك أنت بالتأكيد) أن يكون مثل الله، أن يدير الأمور، أن يجلب الخبز ليضعه على الطاولة، أن يكون هو صاحب السلطة. صاحب الكلمة النهائية.

الناس تنتبه لفقدان الأب أكثر، وربما تصاب بعقد نفسية، ليس الجميع، البعض يتجاوز ذلك، يتصالح مع الأمر، ولكن ذلك يكون غالباً بتعويض ما، حسبما أتصور، أو بشيء يحملونه معهم طيلة حياتهم.

لكن فقدان الله مشابه جداً لفقدان الأب.

فيه إنكار، فيه إصرار على أن تعتقد - ضمناً - أنك لست موجوداً، أو أنك وجدت بطريقة غامضة لا تريد أن تعرفها، أغرب حتى من الحيمن المجهول الذي وضع في البنك إياه.

لست متديناً جداً، أعني أني لا أعرف الكثير عن الدين، لكني أعرف أن الله موجود، لا أعرف الكثير عنه، لكنه موجود، مثلما أنت موجود يا أبي، لا يمكن لله إلا أن يكون موجوداً، مثلما أنت موجود يا أبي، موجود –ذات مرة - حتى لو رحلت بعدها.

ما دمت أنا هنا، فأنت في مكان ما. أنت السبب في أني هنا.

كذلك الله.

رحلتي اليوم كانت لأتأكد – بطريقة ما – من وجودك.

من وجود الله.

وقد وجدتك.

اكتشفت أنك بعد كل شيء، مجرد بشر.

الله حتماً شيء مختلف.

ربما لن أشفى قط من السرطان.

في الحقيقة، بالتأكيد لن أشفى منه، وليس (ربما).

لكني على الأقل شفيت منك.

الآن يمكنني أن أواصل ما تبقى.

□ □ □

أمجد

التحمت الطائرة بالأرض في مطار لاغوارديا في نيويورك في نفس اللحظة التي أنهيت فيها قراءة ما كتبه بلال. اهتزت الطائرة بشدة كما يحدث عادة في لحظات الهبوط. اهتززت أنا أيضاً. كنت أهتز بشدة أيضاً في الداخل. ليس بسبب الطائرة، بل بسبب كلام بلال.

ربط بلال بين الله والأب ببساطة مذهلة، لديك أب حتماً، لا أحد يشك في ذلك، لديك إذن رب، هناك إله ما في هذا الكون. ليس شرطاً أن يكون إله الأديان السماوية، لكنه إله ما، إله بدأ البداية، حتى لو استمرت الأمور لاحقاً بدون تدخل منه، لكن ثمة قوة ما، بدأت كل شيء.. مثل أب بذر بذرته، حتى لو لم ير ابنه أبداً، لكنه بذر البذرة..

كيف لم أفكر بذلك من قبل؟

هل استنتج بلال هذا بسبب الربط أصلاً بين الله والأب في الثقافة المسيحية التي ينتمي لها كون أمه مسيحية؟

هل بحثه عن الأب كان نوعاً بدائياً فطرياً من البحث عن الله؟

وهل تمردي أنا - وغيري - على الله، وعلى فكرة الله، تعبير عن التمرد على الأب، أو على فكرة الأب، على وجود (سلطة)، أو قوة عليا في حياتنا، حتى لو لم يقد تمردنا إلى بديل مقنع؟ حتى لو لم نجد ما هو أفضل؟

هل كل هذا مجرد عقد نفسية؟ نرفض الله لكننا نقصد رفض آبائنا. عقدة نفسية نختار لها أن تغلف بمصطلحات فلسفية وحجج علمية، هل نرفض آباءنا لأننا نرفض الله، أم أننا نرفض الله لأننا نرفض آباءنا؟

دخت، شعرت بالدوار، فجأة أحسست أني صرت ككتلة ملتهبة من الحمى، تذكرت أحلامي التي يختلط فيها أبي ببلال بصوت الأذان بصموئيل جاكسون بمورغان فريمان بكريستين بكل شيء. صرت أتفصد عرقاً

وهممت بفتح الحزام والتوجه إلى دورة المياه فقط لأغسل وجهي. نظرت لي المضيفة بحزم وقالت إننا لم نتوقف بعد.

كنت أعرف أني توقفت.

كنت أعرف أني أخيراً وصلت.

كل شيء حدث بسرعة بعدها.

كنت لا أزال في حالة الدوار والذهول، كنت أشعر بالخدر في أطرافي، وكان بلال تقريبا هو من يقودني بدلاً من أن أقوده، كل شيء كان متداخلاً، مشاعري كانت مضطربة، كانت رحلة لم تستغرق أكثر من نصف يوم، لكن بدت كما لو أنها رحلة عمر.. بدا كما لو أن رحلتنا إلى سجن أوكيديل، في منتصف اللا مكان، لإطلاق سراحي أنا من سجن في داخلي.. كما لو أن تلك الرحلة كانت لنقلي من اللا مكان، إلى "المكان".

فجأة انتبهت إلى وجه لاتيشا المبتسم بين الجموع، كانت قد جاءت لاستقبال بلال.

رأيتها تحتضنه بحنان، حنان الأم الحقيقي، الأم التي تعرف أن فراق نصف يوم الذي حدث اليوم هو مجرد بروفة لفراق طويل قادم. فراق نهائي.

رأيته بين ذراعيها متخلصاً من حرجه من إظهار المشاعر الذي يبديه من هو في مثل سنه عادة. رأيته يحتضنها بشدة أيضاً، كما لو كان يقول لها إنه قد تخلص من مرضه بأبيه، كما لو أنه يريد أن يقول لها أنها كانت خير أم وخير أب، وأنها أدت دوراً جيداً ولم تكن بحاجة لأحد، وأنها عوضته عن غياب أبيه.

تأملتهما وهما في تلك الحالة، متشابكان، كما لو أنها تريد أن تسترده إلى رحمها فتحميه من السرطان الذي ينهشه. كادت عيني تدمع.. وجدت نفسي لا أرى شيئاً في صالة المطار المزدحمة سواهما. كيف وصلت إلى هنا.. كيف صرت جزءاً من هذا المشهد. أي قدر ساقني من حياتي السابقة لأكون جزءاً من هذه العائلة. حاولت أن أتذكر ماذا كنت أفعل قبل لاتيشا وبلال،

رأيت كل شيء يبدو كما لو كان رمادياً باهتاً ويوشك على أن ينسى تماماً.

انتبهت لاتيشا إلى وجودي، فسحبت نفسها من حضن بلال، اعتدلت وابتسمت لي ممتنة وهي تمد يدها وتقول: أنا عاجزة عن الشكر يا..

لم تكمل. وجدت نفسي أحتضنها بشدة. لا أعرف كيف حدث ذلك لكنه حدث. وجدته الشيء الطبيعي الذي يجب أن يحدث. احتضنتها كما لو كنت أريد منها أن تمنحني نفس الحنان.

لم أنتبه إلى صدمتها بما فعلت، لكني وأنا أحضنها لاحظت النظرة على وجه بلال، كان ينظر لي كما لو كان ينظر إلى شخص غريب الأطوار. أحسست بيدي لاتيشا تربت على كتفي كما كان يفعل بلال مع والده.

انتبهت إلى سخافتي وابتعدت عن لاتيشا. قلت شيئاً باعتذار وعن كوني قد تأثرت بكل ما مر ببلال اليوم.

خيل لي أن لاتيشا كانت مبتسمة وهي تودعني.

وأنها لم تكن منزعجة من حماقتي.

□ □ □

لم أرجع البيت فوراً. نزلت على بعد محطتي مترو من المنزل، وبقيت أسير في الشوارع. أريد أن أرتب كل ما حدث اليوم معي.

ثم تذكرت أن كوبر بمفرده منذ الصباح وأنه بحاجة إلى تلبية نداء الطبيعة إن لم يكن قد فعلها فعلاً في أي مكان يراه مناسباً.

نمت ليلتها بعمق، وعندما أيقظني صوت النداء للصلاة هذه المرة، لم أكن مرعوباً. على العكس، كنت أرغب أن أسمع الكلمات بتمعن حتى النهاية..

لم أكن أعرف كيف يصلي المسلمون بالضبط.. ولا أعرف إن كان عليَّ أن أصلي مثلهم أصلاً أو لا..

لكني وجدت نفسي، بطريقة ما، أصلي..

لم أحدد من هو الإله الذي أصلي له..

لم أعرف بعد.

لكن ثمة (إله)..

ثمة خالق لهذا الكون.

□ □ □

لم أنم الليلة.

سيكون هذا أول فجر أنادي لصلاته.

حدث كل شيء بسرعة أمس.

الرسول يفكر في طريقة لجمع الناس للصلاة منذ أيام. اقترح البعض الناقوس واقترح البعض البوق. لكن ذلك سيكون مشابهاً أكثر مما يجب للأديان السابقة.

كنت أستمع إلى المقترحات مثل الجميع.. وكان بناء المسجد قد انتهى منذ أيام فقط. والناس تحضر لأوقات الصلاة ولكن دون وجود ما يجمعهم على وقت محدد من كل أرجاء المدينة. وكانوا أحياناً يجلسون في انتظار الصلاة القادمة، وكان ذلك مربكاً، وربما أصلاً مشوشاً لأعمال عليهم أداؤها في البساتين أو السوق.

كل شيء كان مختلفاً في يثرب، كما لو أن المدينة يعاد تأسيسها من جديد. بل كانت كذلك فعلاً، المدينة كانت ممزقة في صراع بين قبيلتين تسكنانها، وتتنافس كل قبيلة منهما على المزيد من السيطرة، ثم فجأة، تجد القبيلتان المتنافستان أن الكثير من شبابها بدأوا يعتنقون الدين الجديد الذي ظهر في مكة. يصبح ذلك عاملاً موحداً ويقرب بينهما.. الشباب كانوا يفكرون بطريقة مختلفة على ما يبدو، كانوا يشعرون أن الصراع وصل إلى مرحلة لا غالب فيها ولا مغلوب، مجرد استهلاك للجميع.. وكان قربهم من اليهود قد جعلهم يدركون سخف عبادة الأوثان، لذا تلقفوا الدعوة إلى الدين الجديد بينما رفضته الطائف، الأقوى والأهم من يثرب، ورفضته مكة – الأهم قاطبة في جزيرة العرب - قبلها..

وها نحن هنا، هاجرنا من مكة، عددنا رجالاً ونساءً لا يتجاوز المائة، ندخل يثرب فنسكن فيها، ثم يأتي النبي بعدنا، بعد أن يطمئن على أن الكل قد تركوا مكة بسلام، ويأتي معه أبو بكر، الرجل الذي اشتراني من أمية وأعتقني فوراً، فقط ليخلصني من العذاب..

ثم كان بناء المسجد، كل قبيلة تبرعت بأن يكون في حي لها، وكنت أترقب، ماذا سيفعل الرسول، لو اختار أياً من عرض القبيلتين فإن ذلك قد يحسب لصالح مكانة القبيلة في الوضع الجديد، وقد يؤدي ذلك إلى إثارة الحساسيات القديمة.

كنت مؤمناً بأنه سيختار الطريق الصحيح، كنت فقط أحاول أن أتوقعه. أن أحزر ماذا سيكون الخيار الذي لا يكون ثغرة في النسيج الجديد.

كان اختياره موفقاً جداً، لا لأنه لم ينحز فيه إلى أي طرف فقط، بل لأن الاختيار عكس ما سيحدث في الوضع الجديد.

اختار مقبرة قديمة مهجورة، وقرر أن يبني المسجد فيها، وكان لا بد من إخراج ما فيها من قبور..

كما لو أنه يريد أن يقول لهم، لنا، للجميع، إن الماضي لم يمت فحسب، بل علينا أن نخرجه تماماً من حساباتنا، أن نخرجه من قبره لنتخلص منه.. لا بناء يمكن أن يحدث دون أن نفعل ذلك.

كان الدرس كبيراً، وكان هذا ما يحدث فعلاً في الواقع..

كل شيء كان يعاد من جديد..

❑ ❑ ❑

كان المسجد بسيطاً، عبارة عن حجر بسيط مما توفر، ونخلتين على الباب.. البناء لم يدم إلا أيام..

كنا ننشد أثناء البناء..

"اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة"..

فهل تراه انتبه لصوتي هنا؟

لا أدري.

فبعد أيام حدث ما حدث!

□ □ □

كنت جالساً معهم، مع الجميع، عندما جاء عبد الله بن زيد، واحد من أهل المدينة الأصليين، وقال إنه

رأى في منامه أن الصلاة ينادى لها بالصوت، وقال الكلمات.

كنت أستمع إلى ما يقال، وكنت أرى الارتياح على وجه الرسول، تخيلت الأمر، أن ينادي صوت إنسان إلى الصلاة، بتلك الكلمات التي قالها عبد الله بن زيد.

ثم..

حدث ما لم يكن في الحسبان.

فجأة قال الرسول لعبد الله بن زيد أن يعلمني الكلمات (لي أنا) قال لبلال.. لأن "صوته أندى من صوتك"..

فجأة صرت في المركز، لم أصدق، أنا! أنا بلال، العبد السابق، الأسود النحيل، أحتلُّ هذا المكان، الذي لا أشك أنهم جميعاً كانوا سيتشرفون به.

نعم، بلال.

كان الأمر محسوماً، بلا تردد.

علمها لبلال.

لم أستوعب الأمر تماماً أولاً.

أنا سأنادي للصلاة؟ كل يوم؟ كل يوم خمس مرات؟ أنا سأرتقي حائط المسجد لأكون على مرتفع بحيث يصل صوتي لكل مكان؟

هل سيبقى الدور لي؟ أم أن غيري سيأخذه بعد فترة، ويدار الأمر بين أكثر من شخص.

كنت سعيداً ومشوشاً أول الأمر.

هل انتبه الرسول لصوتي منذ البداية؟ هل كان يعرفني قبل أن أسلم؟ هل سمعني أقرأ القرآن؟ أم أنه سمعني الآن فقط مع ما أنشدناه في البناء..

لا أدري..

لكنه يختارني أنا، ويقول (أندى صوتاً).

أول مرة أشعر بالفخر بصوتي. كان أهل مكة يسمعونني ويطربون لي، لكن ذلك كان بلا احترام. الصوت الجميل للرجل كان أمراً مهيناً. يطربون ويحتقرون.

وكنت أحب صوتي، أشعر أني قادر على أن أوصل الكثير من خلاله..

لكنهم لم يكونوا يفهمون ذلك.

عندما كنت أرتل القرآن، كنت أشعر أن ذلك صار ممكناً.. أن أوصل شيئاً ما من خلال صوتي.

لكن ها هو الرسول نفسه يقول إنه قد شعر بأني أمتلك شيئاً ما في هذه الحنجرة.

ويختار هذه الحنجرة، من بين الجميع، لتكون هي التي تدل الناس على الصلاة.

تغيرت الدنيا كثيراً يا ابن حمامة.

وددت لو أجدها اليوم، وأقول لها ما حصل..

لم أنم الليلة، بقيت أنتظر الفجر.

ستكون أول صلاة فجر أنادي بها..

ستكون أول صلاة فجر ينادى بها في التاريخ..

كل ما قبل ذلك سيكون مختلفاً عن ما بعده..

تذكرت أول ليلة لي في الحرية، شعرت أن الليلة أهم وأعظم منها.. تلك كانت ليلة حريتي أنا، أشعر الآن أن الليلة هي شيء للجميع، شيء سأنـــادي به لكل سكان المدينة، شيء سيعتقهم، كما أعتقت أنا بطريقة ما..

لم أنم، لم أحاول النوم، كان كل شيء قد أصبح مختلفاً.

بقيت أجول حول المسجد كما لو كنت خائفاً من أن لا يأتي الفجر. أريد للفجر أن يأتي، أريد لصوتي أن يلتحم بالفجر ويعلن للناس ذلك..

مع اقتراب الفجر، كنت أسمع دقات قلبي أكثر.. خفت أن تكون أعلى من صوتي يوم أبدأ النداء.

أخذت نفساً عميقاً..

وعندما بدأت، لم أكن أعرف إن كان قلبي قد أصبح في حنجرتي..

أم أن حنجرتي أصبحت هي قلبي..

❑ ❑ ❑

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: إله.. ما

تذكر يا بلال أني أخبرتك بأني لست مسلماً جيداً.

ثم قلت لك بعد ذلك إنه لا يمكن اعتباري مسلماً على الإطلاق.

الحقيقة هي أني قلت لك نصف الحقيقة فحسب.

أنا ملحد.

أو على الأقل، كنت كذلك يوم بدأت هذا المشروع. كنت ملحداً عنيداً عالي الصوت.

وكان العمل في فيلم عن (شخصية دينية) محرجاً لي بشكل شخصي. كان شيء ما يقول لي إني منافق. لكني كنت بحاجة للعمل لسداد الفواتير، وقلت لنفسي إني سأبحث عن حقائق تاريخية فحسب، وليس لي علاقة بما وراء الطبيعة. وكذلك كان عملي فعلاً في الفيلم.

ثم جاءت رسالتك يا بلال.

وضعتني الرسالة أمام مواجهة مع نفسي، أكثر مما وضعتني في مواجهة معك، أو مع بلال الحبشي الذي أعمل على إعداد سيناريو فيلم عنه.

كنت أعلم أني يجب أن لا أظهر إلحادي، ولم يكن ذلك صعباً، أن أتحاشى الحديث عن الله أو الوحي أو أتحدث عنهما بلهجة محايدة، كشيء آمن به بلال، دون أن أتدخل في تقييم أو توصيف هذا الإيمان. لو راجعت ما كتبت الآن لوجدتني محايداً، ربما لم تنتبه لذلك وقتها، لكني كنت أتحدث عن (الإيمان)، أي إيمان، وليس الإيمان بالله تحديداً، ولقد كنت أؤمن ولا أزال أن أي أيمان يمكنه أن يجعلك أقوى، أن يجعل عندك قضية. قضية خير أو شر، هذا موضوع آخر. لكن الإيمان يمكن أن يكون قوة إيجابية، وكنت لا أنكر، كملحد، أن الأديان يوم ظهرت، كانت لها آثار إيجابية على الناس والمجتمعات التي ظهرت فيها، لكن هذه الآثار الإيجابية

لم تكن تستمر، وغالباً ما كانت تتحول لآثار سلبية عندما يقوم رجال الدين بالسيطرة على الدين وعلى عقول الناس.

لم أكن أنافقك إذن عندما كنت أكتب عن كل هذا..

كنت أقول أنصاف حقائق فحسب.

لكن شيئاً ما في داخلي كان يقول لي إن مجرد عدم قولي النصف الآخر من الحقيقة – النصف الذي أؤمن به - كان يشي بوجود مشكلة في داخلي تجاه هذا النصف.

شيء ما في داخلي كان يقول لي إن تحرجي من قول الحقيقة التي أؤمن بها لك يا بلال، كان يعني أن في نفسي شكاً منها.

كنت أقول لنفسي كيف أقول (لا يوجد إله) لصبي وهو يرى نفسه يموت؟

كنت أجد ذلك قاسياً أكثر من اللازم، لكن إذا كان هذا (كثيراً) على صبي في الثالثة عشرة، لماذا لا يكون كذلك على الجميع، ونحن كلنا سنموت..

كنت أتذكر قول آينشتاين..

(لو عجزت عن شرحها لطفل في السادسة، فأنت لم تفهمها بما فيه الكفاية).

وأنت لست في السادسة يا بلال.

شككني ذلك في فهمي حقاً للإلحاد.

❐ ❐ ❐

ثم مررت في حياتي في الفترة الماضية بتغيرات، لن أزعجك بسرد تفاصيلها، تغيرات شخصية تحدث للكثيرين ربما، وبشكل عادي وروتيني، ولكنها جعلتني أفكر أكثر وأكثر بالموضوع، ربما كان لموضوع بـــلال الحبشي دخل كبير بالموضوع..

بالذات لكلمات النداء للصلاة.

لم أؤجل الموضوع كما ادعيت سابقاً. كنت أهرب منه. مع كلمات النداء للصلاة، التي كان بلال يصيح بها، والتي همس بها والدك في أذنيك يوم ولدت، لا مجال للحياد. لا مجال إلا لأن أكون واضحاً. لا مجال إلا أن أبين موقفي منه، من الله.

عرفت أني لست ملحداً حقيقة، كنت أقرب، في حقيقتي لأن أكون لست متأكداً من شيء. لا أدرياً. وكان هذا أصعب من الإلحاد. الإلحاد والإيمان يتشابهان في شيء واحد على الأقل. أنهما حددا موقفاً. نعم أو لا. الـ (لا أدري) هذه صعبة جداً.

بالتدريج صرت مقتنعاً أن إلحادي، ربما مثل إلحاد أغلب الملحدين، ليس حقيقياً تماماً. ربما فيه رفض لله كما قدمته الأديان، وربما كان هذا الرفض وجيهاً ولا أزال مقتنعاً به، ولكن هذا لا يجعل الإلحاد بديلاً.

ببساطة الإلحاد لا يقدم لنا البديل عن الله الذي رفضناه. لا يقدم لنا كيف بدأت القصة.

أغلب الملحدين، وكنت منهم، يدخل في تفاصيل القصة، نظرية التطور والارتقاء والبيولوجيا والانفجار العظيم، لكننا جميعاً نقف عند العتبة، لا نحاول أن نقول أو حتى أن نسأل، كيف بدأت القصة؟

نهرب كلنا من هذا السؤال، نتجاهله، ببساطة لأن الإلحاد لا يقدم شيئاً بهذا الخصوص.

لكن في لحظات معينة من حياتنا، في المراحل الانتقالية خاصة، تواجهنا الأسئلة التي هربنا منها، نكتشف أن الهرب منها ترك ثغرات في حياتنا نحن، وأن هذه الثغرات، كانت مثل ثغرات في بناء قامت بتسريب الماء إلى الداخل، وبالتدريج صار التسريب يأكل البناء أكلاً.

لم أكن أعتقد أن الأمر سيحسم، على الأقل جزء منه سيحسم، عن طريقك يا بلال.

بالذات في تلك الرحلة التي قمت بها معك إلى أوكيديل.

يومها، وفي طريق العودة، كتبت أنت شيئاً عن أن الأب مثله مثل الرب، لا بد أن يكون موجوداً حتى لو لم نره أو لم يكن موجوداً دوماً في حياتنا أو كنا لا نحبه.

كانت جملتك هذه، مثل الحجر الذي أغلق الثغرة.

لا بد أن يكون موجوداً. مثل الأب. نقطة انتهى.

ربما ليس كما تقدمه الأديان السماوية، أو كما فهمناها.. أو كما قدمه رجل الدين.

لكنه موجود..

الآن صرت أستطيع أن أحدثك عن كلمات النداء للصلاة.

التي همس بها أبوك في أذنيك.

❑ ❑ ❑

تبدأ الكلمات بعبارة "الله أكبر"..

العبارة اليوم يستخدمها المسلمون بسبب وبلا سبب، وغالباً بلا سبب.. ويستخدمها الإعلام كثيراً في التندر على الستيريو تايب المسلم..

لكن علينا أن ننسى ذلك، نحن نتعامل مع كلمات نطقها بلال بن رباح الحبشي، وقالها سعيد في أذنيك يوم ولدت، لا علاقة لنا بالستيريو تايب المتراكم، نحن نحاول التعامل مع الكلمات الأصلية ومعانيها، عليَّ أن أفعل ذلك لا كأكاديمي موضوعي وعلمي فحسب، بل لأننا نتحدث عن فترة سبقت هذا الستيريو تايب، نتحدث عن فترة بلال الحبشي.

اترك كل شيء وتخيل بلالاً الحبشي، صوتاً جميلاً ودافئاً، يرتفع، وسط ظلام الليل، ليعلن عن بدء صلاة الفجر..

تخيل مدينة نائمة، يوقظها صوت دافئ ليقول هذه الكلمات.

❑ ❑ ❑

الله أكبر..

الكبر هنا قد يعني أكبر حجماً، وقد يعني الأعظم، وقد يعني الأهم.

وكلها (معاني) مهمة..

أكبر حجماً بالمعنى المباشر ليست واردة، لأن المسلمين لا يؤمنون بإله مجسم، لكن الحديث عن الأكبر هنا هو بمعنى (الأشد أهمية)، الأشد تأثيراً.. إنه أكبر من كل الأشياء الأخرى التي لها حجم، الأشياء التي تقيد الإنسان، وتستعبده..

الله أكبر، لأنه أكبر من كل الأشياء المادية (المرئية) التي يتعلق بها الإنسان، أكبر من المال، من الحبيب أو الحبيبة، من الأولاد، من الطموح الشخصي، من كل شيء.

النداء يبدأ بهذا، لأنه يذكر بأن الأكبر والأهم، من كل ما هو كبير ومهم في حياة الناس، هو القيم التي يمثلها هذا الإله، القيم غير مرئية، ولكنها المهمة جداً في حياة الناس، وكذلك الله غير المرئي، وهو أكبر – بلا مرئيته – أكبر من كل شيء مرئي مما يركض خلفه الناس..

"الله أكبر" تذكر بأن الأمر ليس بما تراه دوماً الأكبر أو الأعلى أو الأطول.. أو كل ما يندرج ضمن المقاييس المترية..

الله أكبر تذكر، بأولويات في الحياة، عليك أن تتذكر أن قائمتها يمكن أن تبدأ بشيء لا يرى، ولكنه أهم من كل ما تراه..

❑ ❑ ❑

ثم تأتي العبارة التي جعلتني أتردد طويلاً.

الشهادة.

نداء الصلاة يقول الشهادة، وهي بالنسبة للمسلمين، مفتاح دخول الإسلام. والشهادة مزدوجة، واحدة تخص الله، والأخرى تخص الرسول.

الأولى هي "أشهد أن لا إله إلا الله".

والجملة تورطك عملياً في أن تصبح جزءاً من الموضوع.

أن تصبح (شاهد عيان) على أمر لا يمكن أن يرى بالعين!

شاهد عيان، مرتين.

مرة شاهد نفي. ومرة شاهد إثبات.

والشهادتان، النفي والإثبات، ستتكاملان. كما تكاملت رحلتي أنا، من الإلحاد، إلى الشك، إلى الإيمان بوجود (إله).

الأمر ليس سهلاً بالتأكيد، وهو يتضمن نوعاً من البحث، عليك أن تبحث، أن تتأكد بنفسك، أن تخوض (الشهادة) بنفسك لكي لا تكون شاهد زور.

ليس سهلاً أن تقول إنك شاهد على شيء لم تره.

لكن هذا سيدفعك إلى التفكير، إلى البحث، إلى أن تتأكد من وجود هذا الإله الواحد.

❑ ❑ ❑

هل هذا ما يفكر به المسلمون اليوم عندما يقولون الشهادة؟

للأسف لا أعتقد. ولو كان يحدث لما كان هذا حالهم اليوم. لكننا نتحدث عن معاني الكلمات عندما قيلت لأول مرة، عندما كانت طازجة، عندما ولدت للتو.

هل جاء التقليد بأن تقرأ هذه الكلمات في أذن الوليد الصغير للتذكير بأهمية أن تقرأ دوماً كما كانت أول مرة؟ كما ولدت لأول مرة.

لا أدري، لكني أشعر بالقشعريرة عندما أفكر بهذا. اليوم تقال دون تفكير، غالباً تقال بالعربية حتى لو كان قائلها لا يعرف العربية ولا معنى ما يقوله، ويعامل الأمر على أنه دخول في الإسلام لمجرد أن هناك أصواتاً تخرج من حنجرة هذا الشخص.

لكن الشهادة، يوم كانت أول مرة، كانت شهادة حقيقية، تحدث بعد صراع طويل مع النفس ومع المجتمع الذي كان يرفض هذه الشهادة بل ويحاربها بشدة، كما رأينا في التعذيب الذي ناله بلال.

لقد كانت شهادته، سبباً في أن تحدث جريمة تعذيب بحقه.

كانت الشهادة، وقتها، مصحوبة بثمن غالٍ، لكنهم كانوا (يشهدون).

□ □ □

سألت نفسي كثيراً وأنا أكتب لك هذه الكلمات..

أما كان يمكن لهذا الدين الجديد أن يعبر عن التوحيد بطريقة لا تجعله عرضة للهجوم؟

بمعنى: كان العرب يؤمنون بآلهة وأصنام كثيرة، ولم يكونوا ينكرون وجود الله، إله إبراهيم، لكنهم يؤمنون بآلهة أخرى بجانبه..

أما كان يمكن للدين الجديد أن يركز على عبادة إله واحد، ويكرسها في نفوس أتباعه، وفي الوقت نفسه يجعل من شعاره، ومن مفتاح الدخول إليه، أقل حدة؟ أما كان يمكن لهذا المفتاح أن لا يتعرض على الأقل للأوثان؟

ثم فهمت.

الأمر لم يكن حقيقة عن الأصنام والتماثيل الواضحة فحسب.

بل كان عن الأصنام الأخرى أيضاً. الأصنام التي لا ترى بالعين.

الأصنام التي في الداخل. الأصنام التي لا نعرف أنها أصنام. بل نتعامل معها على أنها جزء منا. ربما عواطفنا الشخصية تجاه شخص ما، ربما طموحاتنا، ربما فواتيرنا، ربما قرض البيت، ربما السيارة الجديدة، ربما التنافس مع آل جونز.

لا مجال لمجاملة هذه الأصنام. لأنها لا تجامل. عندما تجد مجالاً، ستتمكن.

شعرت بالقشعريرة يوم وصلت لهذا.

هذه الكلمات، تبدو واقعية اليوم، أكثر ربما مما كانت تبدو وقتها.

يومها ربما التنازل سيكون مفهوماً. لأن هذه الأصنام واضحة، والصراع معها خارجي.

لكن اليوم: الحاجة إلى الوضوح مع النفس والذات، في مواجهة تلك الأصنام، لا تبرر أي (دبلوماسية).

دبلوماسية لم تحدث بأي حال.

❒ ❒ ❒

شهادة العيان هذه أيضاً تتحدى فكرة أن "لا إله".

عندما كنت ملحداً، كنت أقول، كما يقول غيري، عندما نناقش المؤمنين بوجود الله: أن لا دليل (علمي) على وجود الله.

وكنا نقصد غالباً وجود دليل مادي، دليل يرى بالعين المجردة، أو خاضع للتجربة العلمية المباشرة.

كان يمكن للشعار، لمفتاح الإسلام، أن لا يكون (شهادة)، لأن المشاهدة، لن تتحقق أبداً، وكان المسلمون يعون ذلك.

لكنها شهادة مختلفة. شهادة من نوع آخر.

إنه أن ترى بأكثر من عينيك، أن ترى فلنقل.. ببصيرتك..

إنه أن تربط ما ترى أمامك، إلى أن تصل إلى ما لا تراه، ولكنك (تحدس) وجوده.

أمر مثل حب أمك لك، أو رغبتك بمعرفة أبيك، هذه الأمور لا تراها، لكنك متأكد من وجودها.

❒ ❒ ❒

الشهادة الثانية، تخص الرسول محمد.

فلأصدقك القول، لم أتبحر كثيراً بهذه الشهادة، ليس بعد على أي حال.

كان همي أن أتأكد من وجود الله، مسألة أنه يرسل الرسل والكتب أمر آخر، لم أتحقق منه بعد.

كل ما أستطيع أن أقوله هنا، تاريخياً، هو أن هذا الرجل كان بالتأكيد من عظماء التاريخ، وأنه صنع أمة من لا شيء، واستطاع أن يؤثر في حياة الكثيرين، مجرد أن تعلم أنه بدأ الأمر كله بعد بلوغه الأربعين، واستطاع أن يبني دولة كبيرة خلال ٢٣ سنة، مجرد هذا كفيل أن تعرف أي نوع من الرجال كان.

طبعاً الإعلام حالياً يركز على أمور بعضها كاذب وبعضها كانت طبيعية في سياقاتها التاريخية والمكانية.

لكن الرجل كان بالتأكيد، كاريزما كبيرة غيرت التاريخ.

هذا كل ما أستطيع أن أقوله عنه.

□ □ □

كلمات الاذان الأخرى هي (حي على الصلاة، حي على الفلاح).

والنداء هنا، فيه لفظ يوحي بالحيوية، بالحياة، وليس فقط بالمجيء، كان يمكن للنداء أن يتضمن أي نوع من أنواع النداء، وفي اللغة العربية الفاظ كثيرة جداً، لكن اللفظ هنا مرتبط بالحياة، بالحيوية، كما لو أنه يربط الحيوية بالصلاة.

ليس هذا فقط، بل إن كلمة الفلاح، والتي تعني الفوز والنجاة، ترتبط أيضاً بالفلاحة، شق الأرض، إعدادها للزرع، بعبارة أخرى: بالعمل.

الأمران مرتبطان هنا: الصلاة والعمل.

كما لو أن الصلاة تمدهم بالقوة والإرادة للعمل بعدها.

كل من يتأمل في أحوال العرب، قبل وبعد الإسلام، لا يمكن إلا أن يربط بين الأمرين.

كانوا كسالى إلى درجة احتقار العمل اليدوي، الزراعة محتقرة، الحدادة محتقرة، كل عمل يدوي يعتبر مهيناً إلى درجة أنهم لا يزوجون أبناءهم لابنة (عامل بيده). كان الرعي هو مهنتهم المفضلة، تترك الأغنام والجمال سارحة، وتنام أثناء ذلك.

لكن كل شيء تغير بعد مجيء الإسلام.

ولا أعتقد أن الصلاة، كانت بعيدة عن هذا التغيير.

❐ ❐ ❐

أخشى أني كنت مملاً في هذه الرسالة.. مهنتي كمحاضر تغلب عليّ أحياناً!

لكن هذه هي الكلمات التي كان بلال يقولها في النداء للصلاة.

هذه هي الكلمات التي همس بها أبوك في أذنيك.

❐ ❐ ❐

عزيزي الله

لا أعرف كيف أخاطبك، لكني متأكد أنك لا تهتم للشكليات كثيراً، على الأقل ليس كما نتصور نحن، على الأغلب كل هذه الرسميات لا تعني لك شيئاً.

ربما كان الأمر أسهل بكثير لو كان لديك مثلا صفحة على الفيس بوك أو حساب على تويتر، لكن، بعد كل شيء، ستكون هناك ملايين الرسائل كل يوم في بريدك. أظنها موجودة الآن بطريقة ما، حتى لو كنت بلا فيس بوك أو تويتر.

أفكر كثيراً بك هذه الأيام. أكثر مما فعلت طيلة حياتي. هل هذا من أعراض الموت واقترابه؟ ربما، لكني أعتقد على العكس، أن تفكيري بك هو من أعراض الحياة. أعراض مقاومتي للموت. هكذا أشعر.

ربما موضوع بلال الحبشي وكلماته التي همس بها أبي في أذني، ربما هي التي تجعلني أفكر بك هذه الأيام؟ لعل الكلمات بقيت في لا وعيي بطريقة ما، مثل شيء موقوت، ثم انفجرت الآن.

هذا مجرد تشبيه مجازي طبعاً، أنت تعلم هذا.

يقولون أيضاً إنك أنت في النهاية مجرد تشبيه مجازي. لكن لا أعتقد ذلك. التشبيهات المجازية لا تستطيع أن تخلق هذا العالم. لا تستطيع أن تبدأ ذلك على الأقل. ربما التشبيهات المجازية تستطيع أن تعبر عنك. لكنك لست تشبيها مجازياً. أنت الله.

أفترض أنك تذكر كل شيء، عن كل واحد منا، لذا فأنت غالباً تذكر أني طالما تمنيت أن أموت. كي أتخلص من الأذى في المدرسة.

حسناً. أنت تلبي دعائي، بطريقة ما (ليس في كل شيء، أذكر أني عندما كنت صغيراً كنت قد طلبت منك أن يكون أنفي أصغر قليلاً، لكنه الآن كبير جداً! أكبر بكثير مما كان يوم طلبت منك ذلك!.. لكن أعلم الآن أنه طلب سخيف أصلاً).

لكن لم أكن أقصد أن يكون الأمر هكذا بالضبط. أعني بهذه الطريقة البطيئة. المؤلمة.

على أي حال، شكراً لاستجابتك لدعوتي. أرغب أيضاً في أن يكون المتبقي أقل ألماً مما فات، لو سمحت.

أرغب في أن تهون الأمر على أمي أيضاً. هي تتألم لموتي أكثر مما أتألم أنا بكثير.

كنت أرغب أن أسألك: لم خلقت السرطان أصلاً؟

لِمَ جعلت أبي يرحل؟ كان بإمكانك أن تبقيه بالتأكيد، أليس كذلك؟

لِمَ تترك الآباء يرحلون؟

كنت أرغب في أن أسالك أيضاً: لِمَ جعلت جون ومايك على هذه الدرجة من اللؤم؟

لكن، ربما السؤال طرحه على هذا النحوَ خاطئ أصلاً.. وربما لم تجعل أنت الأمور كلها بهذا الشكل، لكنك تركت الخيار في الحدوث، ربما كان وجود الأشياء السيئة في العالم فرصة لنا لكي نختبر أنفسنا، لكي نفهم قيمة الأشياء الأخرى، الجيدة، الجميلة..

أرغب في أن أتعرف عليك أكثر. بما أنني بطريقة ما ذاهب إليك (هل هذا تشبيه مجازي أم هو حقيقة حرفية؟).

أنت تعرف كل شيء عني، ولكن أنا، أريد أن أعرفك أكثر.

أتمنى لو أن يسمح الوقت المتبقي لي بمعرفتك أكثر.

المحب بلال

ملحوظة ١: أرغب في أن ينجح فيلم بلال نجاحاً ساحقاً. تعرف لماذا طبعاً.

ملحوظة ٢: كنت أرغب في أن أسالك إن كنت موجوداً حقاً. فالبعض يقولون إنك لست هناك أو في أي مكان، لكنه سؤال غبي كما تلاحظ، بما أني أسألك أنت!

□ □ □

قال بلال فجأة بعد صمت "شيفرة بلال".

كنا نحاول أن نجد اسماً للمدونة التي سنضع فيها ما يكتبه بلال، بلال اختار التصميم من ضمن قوالب موجودة سلفاً، وأحدث فيه بعض التغييرات، ووضع فيه بعض المعلومات عنه، وضعت أنا صوراً مختلفة في مراحل مختلفة من عمره، كنت أشعر بألم كبير كما لو أني أعري كل آلامي أمام كل الناس. كما لو أني أقول كلمتي التأبينية في مراسيم دفنه، ولكن قبل أن يموت.

اقترحت أنا عدة عناوين لم ترق لبلال، اقترحت "يوميات فراشة سوداء" فقال عنه إنه "بناتي جدا"، وكان محقاً جداً، اقترحت "اسمي بلال"، فهز كتفيه بلا مبالاة.

صمت، كان يبدو أنه قد قرر اسماً آخر وحان وقت أن يعلنه، ثم قال "شيفرة بلال".

راق لي العنوان، بدا جذاباً وغامضاً في نفس الوقت.

سألته: ماذا تقصد بالشيفرة هنا؟

قال: "ممكن أن يكون لها أكثر من معنى، ربما هي الشيفرة الجينية التي تسببت بالسرطان الذي أصبت به. أليس لكل سرطان شيفرة جينية؟

وربما تكون الشيفرة التي تجعلنا نقاوم السرطان، تجعلنا نحاول أن نتمسك بالحياة على الرغم من معرفتنا من أن المعركة خاسرة.

وربما تكون أي شيفرة أخرى، نحملها في أعماقنا، ولا نرغب حقاً بكشفها".

تأملته. هل هذا حقاً هو طفلي؟ هل كبر بهذه السرعة ليقول كلاماً بهذا

النضج؟ هل جعله السرطان يكبر هكذا؟ وهل سيكبر سريعاً حتى يذهب سريعاً. أشعر أنه مجهد أكثر من قبل، لم يشك من شيء. لكني أشعر بذلك. أكثر من مرة لاحظت أن مشيته أيضاً لم تكن متوازنة، وأنه أصبح ينام أكثر فأكثر، أحياناً وهو جالس على المائدة، كل هذه كانت موجودة في قائمة أعراض المرض، كان ينبغي أن تظهر مبكراً، ولكنها تفعل الآن. بلال يتسرب مني.

شيفرة بلال..

أحسست أن لديه أكثر ليقول عن (شيفرة بلال).. شيء ما في داخله، في بقعة لا يرغب الآن في الحديث عنها.

قلت: فليكن.. (شيفرة بلال) إذن!

□ □ □

اتصلوا بي من مدرسة بلال ليخبروني أنه أصيب بنوبة من الصرع ونقل إلى المستشفى.

عندما وصلت كان بخير. كان نائماً بهدوء، ولولا الجرح في وجهه وغرزتي الخيط الجراحي لما شككت بحدوث شيء، لكن معلمته التي اصطحبته إلى المستشفى في سيارة الإسعاف قالت لي إنه (كان كسيراً) .

كانت تلك هي أول مرة يصاب فيها بالنوبة في المدرسة. بل في أي مكان عام. كان ذلك أصعب عليه من النوبة نفسها على ما يبدو.

كان قرار الاستمرار في الدراسة قراره هو، لكني كنت مرتاحة ومؤيدة له.. قد يقول أي أحد: ما الهدف؟ لكني كنت أعتقد، وهو أيضاً، أن الأمر دون مدرسة سيكون اصعب بكثير، إلى أن يصبح الذهاب أصعب.

ويبدو أنه بدأ يصبح أصعب.

جاءته النوبة في الصف، لم يكن متضايقاً من شيء على ما يبدو، كما أنه لم يشعر ببوادرها، إذ كان غالباً ما يشم رائحة نفاذة قبل أن تأتيه النوبة، هذه المرة جاءته فجأة، أو هكذا قال.

كانت نوبة قوية حسبما وصفتها لي مدرسته، ألقته أرضاً وكسرت نظارته وأصيب بجرح في وجهه، غالباً بسبب النظارة، وحاولت أن تفهمني أيضاً، بطريقة مهذبة، أن الأمر أثار الرعب والهلع في الصف.

عندما انتهت النوبة تقيأ على نفسه وهو ممدد على الأرض.

عندما فتح عينيه ووجدني أمامه، تأمل قليلاً في السقف كما لو كان يحاول أن يتذكر ما حدث.

فاجأني بابتسامة وقال: كنت أريد منك أن تشتري لي واحدة جديدة على أي حال.

قلت له: ما هي؟

قال: النظارة.

وأغمض عينيه.

وفاجأني أيضاً في اليوم التالي أنه مصر على الذهاب إلى المدرسة.

لكني كنت مسرورة لقراره هذا.

فراشتي بدأت تطير بأجنحة قوية.

□ □ □

عندما كنت في المستشفى مع بلال، لم أكن أعرف أي مشكلة قد حدثت في المدرسة بعد خروجي راكضة منها.

لم تشأ ماغي أن تخبرني - ربما لأني عانيت بما فيه الكفاية في يومي هذا - ، اتصلت لتطمئن فقط على بلال، وسألتني - بشكل بدا لي عادياً - إن كنت سأتغيب عن المدرسة في اليوم التالي، فقلت لها إني سأحضر غالباً.

منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها المدرسة بدت الوجوه مختلفة، حدست أن ثمة أمراً جللاً.

شعرت أيضاً بطريقة ما أني متهمة في هذا الأمر الجلل. شيء ما في العيون كان يقول هذا.

جاءت ماغي مسرعة: لاتيشا، سيطلبك المستر ويد بالتأكيد، لم أشأ إخبارك بما حدث أمس، لم يكن ممكناً أن تفعلي أي شيء، ما حدث قد حدث وكان يومك صعباً بما فيه الكفاية.

كنت أحاول أن أتخيل عما يمكن أن يكون قد حدث: اخبريني الآن إذن ماغي، ما الذي حدث؟

قالت ماغي وهي لا تزال تلهث: بوبي وجاك تشاجرا في صالة الطعام، بوبي ضرب جاك على وجهه، المعصم الحديدي الذي يرتديه جعل الإصابة في عينه..

شهقت فزعة: (أوه يا إلهي)، كان الأمر مريعاً فعلاً، وبوبي وجاك كانا دوماً في حالة تنافس وعداء مبطن أحياناً ومعلن في أحيان أخرى.

أكملت ماغي: نقل جاك طبعاً إلى المستشفى ولا نعرف مدى خطورة الإصابة بعد، لكن الأمر بدا سيئاً.. أرجو أن لا يكون كذلك فعلاً.

تمتمت مرة أخرى: يا إلهي، لم أعرف ما أقول، أستطيع أن أتحمل فكرة المشاجرات وأتعود عليها، لكن مشاجرات تقود إلى المستشفى وربما إلى عاهة مستديمة!

بلعت ماغي ريقها وقالت: هناك المزيد يا لاتيشا.. المزيد الذي يخصك أنت.

نظرت لها متساءلة: لم أكن موجودة أصلاً وقت الحادثة.

قالت وهي تهز رأسها: المشاجرة للأسف حدثت بسبب (جذور).

شهقت فاتحة فمي: ماذا؟!

قالت ماغي: حسب رواية الجميع، كان جاك يجلس في الطاولة خلف بوبي، وكان يناديه بـ (توبي)، طبعاً بوبي لم يكن يرد، وربما لم يكن يعرف

أصلاً أن جاك يقصده، ثم قال جاك بصوت مرتفع: هل عليّ أن أناديك بـ (كونتا كنتي) كي تعرف أني أتحدث معك!

جمدت. أحسست أن دلواً من الماء البارد قد أفرغ فوق رأسي.

أكملت ماغي: استدار جاك فوراً وضرب بوبي في وجهه، جاءت الضربة على عينه.

يا إلهي. يا إلهي. يا إلهي.

في اليوم السابق كنا نناقش فعلاً هذا الجزء من الرواية. كونتا كنتي يتم تغيير اسمه إلى توبي من قبل البيض، وهو يصر على أن لا يرد أو يتظاهر بعدم الفهم، يتمسك باسمه لأنه كل ما بقي له من حياته السابقة. فقد كل شيء، حريته، قدمه التي تم قطعها عقوبة على محاولته الهرب، عائلته، قريته، حتى ذكرياته بدأت تتسرب من ذاكرته. لم يبق إلا اسمه. ويريدون تغييره أيضاً.

في الرواية، كونتا كنتي يتقبل الأمر بالتدريج، ببطء، لا يتقبله بالضبط، بل يتعود على توبي، ولكنه يبقى كونتا كنتي في داخله، يصبح بالتدريج شخصين في شخص واحد.

في المسلسل الأمر أشد وأعنف وأكثر درامية: الرجل الأبيض يقيد كونتا كنتي ويضربه بالسوط ويسأله: ما اسمك؟ فيرد كونتا كنتي، ويستمر الرجل الأبيض بضربه وإعادة السؤال، إلى أن يأتي الجواب، وكونتا كنتي على وشك الهلاك: توبي.

المشهد من أكثر المشاهد قوة في المسلسل، وهو الأكثر بقاء في الذاكرة أيضاً. بالنسبة لي، كانت جذور هي هذا المشهد الذي لا وجود له في الرواية. كنت دوماً أنسى أن أليكس هيلي لم يكتب هذا المشهد في روايته، وأن الأمر في الرواية استغرق عذاباً أكبر وأطول، ولكن ضرورات درامية في المسلسل جعلته يقدم على هذا النحو المكثف.

لم يكن النقاش محتدماً في الصف. كان بوبي بالذات منكمشاً على نفسه ولم يشارك كثيراً. جاك كان يقول ما الفرق بين توبي وكونتا كنتي،

الأمر غير مهم. وانتبهت لنظرة حادة من يوبي تجاه جاك، لكن لم أتوقع أبداً – ما كان لأحد أن يتوقع - أن يتطور الأمر إلى هذا. أغلب نقاشات الأمس كانت بين كيفن وفريدي وليزا. كان الحديث عن الهوية والاسم والحرية. ولم يكن الأمر متشنجاً على نحو واضح.

ما كنت أتخيل أن يحدث هذا أبداً. ما كنت أتوقع أن يتطور الأمر إلى هذا.

ربتت ماغي على كتفي مواسية: سيكون يوماً صعباً آخر يا لاتيشا.. كوني قوية.. ليكن الله معك.

نعم، يوم صعب آخر. لم أعد أحتمل. شعرت أني ببساطة لم أعد أحتمل.

أمس بلال، بل أمس وأول أمس وغداً وبعد غد بلال.

واليوم هذا الشيء.

لم أعد أحتمل.

يا الله، كن معي.

❑ ❑ ❑

"سعيدة الآن؟"

هكذا استقبلني المستر ويد.

لم أرد عليه. كان يريد حجة للبطش بي منذ البداية. وها هي تأتيه بأكثر مما كان يحلم.

أردت أن أقول له: يخيل لي أنك أنت السعيد الآن.

لم أكن أملك القوة على المحاججة الآن. كنت أريد الآن فقط أن آخذ حصتي من التأنيب واللوم وأنتهي منها.

"لقد حذرتك، حذرتك من اختيار هذه الرواية بالذات". قال لكنّ ليس كالخائف على ما يمكن أن يكون قد أصاب جاك، بل كالمنتصر الذي أثبت أنه كان محقاً ولو أدى ذلك إلى نهاية العالم.

"هل أعجبك ما حدث الآن؟ ألا تشعرين بالذنب؟" قال بلؤم كصياد شامت في فريسته بعد وقوعها في الفخ.

مرت في ذهني أحداث مشاجرات مشابهة حدثت في المدرسة في الأشهر الماضية وانتهت أيضاً في المستشفى دون أن يسأل أحد أصلاً عن سبب المشاجرة. لم يسأل أحد عن سبب المشاجرة بين ولتر وستيف، أو بين ويلي ومايكي.

لماذا الكل يعرف السبب في المشاجرة بين بوبي وجاك؟ وبالتفصيل الممل.

لم أتمكن من الرد. نعم كنت قلقة، بل ومرتعبة مما حدث، ومرهقة من كل شيء، كان من السهل جداً جري إلى خانة الشعور بالذنب التي يحاول أن يحصرني فيها. شعرت بالذنب فعلاً، بلا وعي. لكن شيئاً ما في داخلي، في غريزة الفريسة على النجاة، جعلني أحرص على أن لا أظهر الضعف. كنت أرتعش جداً في الداخل، كنت أبكي من كل شيء. كنت أعرف أني لو ضعفت الآن أمامه فإنه سينال مني إلى الأبد.

وجدت وجهاً متماسكاً على وجهي يقول ببرود: مستر ويد، أعتقد أنك تبالغ..

ثم أكملت بلؤم: كالعادة.

نظر لي مصعوقاً: أبالغ؟! هل تعلمين ما حدث أم أن تغيبك المستمر عن المدرسة جعلك لا تعرفين ما حدث أمس عندما خرجت حتى دون إبلاغ الإدارة؟

كم أنت حقير ووضيع يا مستر ويد. خرجت لأن ابني كان مصاباً بنوبة صرع. قلت في نفسي.

قلت بلؤم: حدث نفس الشيء الذي يحدث ثلاث أو أربع مرات كل فصل. ولا أذكر مرة واحدة سألنا فيها المتشاجرين عن سبب شجارهم. ربما كانوا يتشاجرون على (كوخ العم توم) أو (موبي ديك)، من يدري؟

نظر لي والشرر يتطاير من عينيه: واضح أنك لم تقدري خطورة الأمر. واضح أن وضعك الخاص جعلك غير قادرة على تمييز الأمور.

قلت: على العكس، وضعي الخاص يجعلني أرى الأمور بزاوية أكبر، بحيث لا أبالغ في حجمها. وضعي الخاص يجعلني أعرف أن في الحياة مشاكل أكبر بكثير من مجرد مشاجرة بين صبيين.

قلت بإصرار لا أعرف من أين أتيت به.

قال لي وهو يكاد يكز على أسنانه: أنت لا تعرفين ماذا يمكن أن يحدث، يمكن لأهل جاك أن يوصلوا الأمر إلى القضاء لو أصاب عينه ضرر دائمي.

تخيلت الأمر. مرعب جداً بكل تفاصيله. أن يكون هناك مكروه دائمي لجاك، وأن تكون هناك دعوى قضائية ضد.. ضد من؟!

قلت له ببرود افتعلته بصعوبة: دعوى قضائية ضد أليكس هيلي مثلاً؟!

صرخ بي: رباه، من أي شيء مصنوعة أنت؟

نهضت: من تراب، مثلك بالضبط، لكنه تراب من سانت لويس. هذه مشكلتك.

وخرجت. تاركة الصدمة على وجهه.

لكني كنت أرتجف.

❑ ❑ ❑

تمسكت بالوجه الصلب عندما دخلت الصف، كان بوبي قد فصل لمدة أسبوع، واستدعي والده أيضاً، ولكن لم أعرف إن كان قد حضر أو لا.

الوجوم كان في البداية فقط، وعندما لاحظ الجميع أني أتصرف على نحو طبيعي، عم الاسترخاء وزال التوتر. الدرس كان كالمعتاد.

مع ماغي تخليت عن وجهي الصلب، وجدتها مقتنعة تماماً بأن المستر ويد هو الذي ضخم الأمور، بمجرد أن التقط ما قاله جاك لبوبي (وكان بوبي هو الذي قال ذلك مبرراً ما فعل) قام باستجواب كل من كان على الطاولتين وسألهم أمام مجموعة من المدرسين والطلاب على نحو غير مهني بالمرة.

"كان يلقنهم الجواب تقريباً. يقول لهم: ألم يناد جاك بوبي بأسماء أبطال رواية جذور، ما عساهم أن يقولوا وهم يعرفون أن هذا ما حدث. قالوا: نعم".

"أين فعل ذلك؟" سألتها.

قالت "في صالة الغداء، وبمجرد أن أقلت سيارة الإسعاف جاك".

يا للوضيع. قلت هامسة.

أيدتني في وضاعته: لم أكن أعتقد أنه سيصل معك لهذا الحد يا لاتيشا، كنت أحاول أن أحسن الظن به عندما كنت تتحدثين عن كرهه لك. لكن موقفه أمس أكد لي كلامك. لا يمكن أن يتصرف أي شخص على هذا النحو غير المهني ما لم تكن له دوافع شخصية".

قلت: الوغد! لم يكن يطيقني منذ أول يوم لي في المدرسة. لو كان له تأثير على قرار قسم التعليم لما سمح أصلاً بتعييني. لم برغب حتى في منحي فرصة.

قالت ماغي: حافظي على قوتك، أعتقد أنك أربكتيه، لم يتوقع منك هذا. إياك أن تظهري ضعفاً أو ارتباكاً، لم تفعلي شيئاً، وهذه الأمور تحدث كل يوم، ولا يوجد ما يمنع دراسة "جذور".

قلت لها: أريد أن أذهب لزيارة جاك في المستشفى، هل تأتين معي؟

ردت بسرعة: إياك! أي ذهابٍ منفرد أو شبه منفرد سيفسر على أنك تعترفين بأنك السبب فيما حدث. تصرفي بشكل طبيعي. إذا ذهب الجميع، تذهبين، إن لم يفعلوا، لا تذهبي.

كانت محقة.

□ □ □

من أنا ؟
(ما كتبه بلال عن نفسه في المدونة)

أنا بلال، عمري أربع عشرة سنة. أعيش في بروكلين نيويورك. أحب الراب والبيسبول والكتابة. لديّ أيضاً سرطان في الدماغ. سأموت خلال أشهر.

لكن هذه المدونة ليست عن موتي، إنها عن الحياة.. ذلك أني تقريباً لم أشعر بالحياة إلا عندما عرفت أني سأموت، عندما أدركت أنها ستنتهي قريباً، بدأت أحاول أن أعيش.

في اليوم نفسه الذي عرفت فيه أني مصاب بالسرطان، قرأت خبراً عن إنتاج فيلم جديد يحمل اسمي، بلال.

هذا جعلني أفكر، لا يمكن لشيء كهذا أن يكون صدفة، في اليوم الذي تقول لي أمي صراحة، بحقيقة مرضي، كما لو كانت تدلي بتصريح، يصدر تصريح صحفي عن الفيلم..

في نفس اليوم الذي عرفت فيه أني ربما أرحل قريباً، عرفت أن اسمي سيبقى بعدي بمدة طويلة.

جعلني هذا أفكر في اسمي نفسه، لماذا اختارلي والدي هذا الاسم.

رحلة البحث عن اسمي وما يعنيه، كانت رحلة في داخل نفسي.

اكتشفت عن نفسي، في هذه الأشهر، أكثر بكثير مما كنت أعرف في كل حياتي السابقة.

اكتشفت أنه ربما كان لكل شيء في هذه الحياة شيفرة. السرطان، عندما نشأ في داخلي ونما، كان له شيفرة يسمونها الشيفرة الجينية.

للحياة نفسها شيفرة، للموت شيفرة، للسرطان شيفرة.

لكل منا شيفرة.

بينما أبحث عن اسمي، وجدت ذلك. تداخلت حياتي مع شخص آخر، ولد وعاش ومات قبل قرون في قارة أخرى. سميت باسمه، ووجدت قصته، تفك الشيفرات التي تحيط بي في حياتي.

حياته جعلت حياتي تختلف.

وأصبح كل شيء مختلفاً بعدها.

أنا بلال، عمري أربع عشرة سنة. أعيش في نيويورك. أحب الراب والبيسبول والكتابة. لدي سرطان في الدماغ. سأموت خلال أشهر.

لكني أريد أن أترك أثراً يبقى بعد أن أذهب.

هذه المدونة، قد تبدو عن حياتي، عن أيامي الأخيرة، كما هو منتشر الآن في اليوتيوب، لكنها في الحقيقة عن حياتكم، عما يمكن أن تكتشفوه في حياتكم.

□□□

أمجد

أنا (رسمياً) أحب لاتيشا.

لا يمكن لشيء آخر أن يفسر ما يحدث لي.

أحبها رسمياً. أي أني أقول ذلك لنفسي صراحة.

لست معجباً بها. لا.

أنا أحبها. أ. ح. ب .هـ. ا

أجد نفسي أفكر بها، أستعيد ما قالته، أتذكر ملامح وجهها عندما قالته، أضع على لسانها كلمات لم تقلها وأتخيلها وهي تقولها.

يحدث كل شيء بطريقة تبدو تلقائية، اتصل للاطمئنان على بلال، فتزودني بالتفاصيل، ثم نستمر بالحديث، لا أنكر أني أستغل مرض بلال للتواصل معها، لكن بلالاً جزء من كل شيء منذ البداية، بل إن مشاعري نحوها لا تنفصل عن رؤيتي لمشاعرها لبلال. ربما كانت رؤيتي لحنانها على ابنها، هو السبب الذي أشعل شرارة الإعجاب بها.

الإعجاب؟ لا أزال في مرحلة الإنكار.

بل شرارة الحب.

عندما أخبرتني عن النوبة التي داهمت بلال في المدرسة، كانت تبكي بصمت على الهاتف. لم تصدر صوتاً. لم يتغير صوتها. لكني شعرت بدموعها تهبط بصمت. قلت إني سأنزل حالاً وآتي لها في البيت. كان الوقت متأخراً. رفضت هي الأمر بحسم، لكن شيئاً ما في نبرة صوتها، كان يشي بوجود ارتياح لعرضي.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تخطينا فيها الحواجز الرسمية، وشعرت أننا على الأقل صرنا أصدقاء.

كانت ليلتها بحاجة للحديث مع أحد، وبالصدفة لم أكن قد اتصلت، فاتصلت هي، وحدثتني عما حصل كما لو أنها كانت تريد أن تزيح عبئاً عن صدرها. رغم قلقي على بلال إلا أني كنت سعيداً لأنها اختارتني أنا لتقول لي ما قالته، لتبوح.

لا أعرف شيئاً عن مشاعرها هي. ربما كنت مجرد صديق تبوح له. لكن هذا كان كافياً في هذه المرحلة، على الأقل.

شيء ما في داخلي يقول لي إن مشاعري نحو لاتيشا يمكن أن تكون ناتجة عن أنها عكس كريستين في كل شيء. بالضبط كل منهما في طرف معاكس. ليس فقط في الشكل، بل في الطباع والمواصفات الشخصية أيضاً. كما لو أني كنت أريد أن أغيظ كريستين.

لا أجد مشكلة في ذلك، لا أحاول أن أقمع هذا الصوت، إن كنت سأتخلص من كريستين بهذا الشكل فإني عملياً أتخلص من ضعفي تجاهها، من كل ما جعلني مريضاً لها، لاتيشا علاج؟ لم لا؟ ما المشكلة في ذلك.

عندما أخبرتني لاحقاً عن مشاكلها مع المدير، وعن رواية جذور التي اختارتها لتدرسها لطلابها، ومواجهتها للمدير في ذلك، وعن محاولته استغلال المشاجرة بين الطالبين لتهديدها والضغط عليها، شعرت أن لاتيشا تضم جوانب أخرى أكثر من مجرد الأم الحساسة الحنونة. جوانب تمثل قوتها وكفاحها قبل إصابة بلال بالسرطان، عندما سألتها (لماذا جذور؟)، حدثتني عن جذورها هي، وكيف مثلت هذه الرواية لها الكثير في رحلتها من كلارا أفينيو سانت لويس - ميسوري إلى نيويورك.

كنا قادمين من بيئتين مختلفتين تماماً، ولكني شعرت أن هذا عامل إضافي في علاقتي بها، شيء ما يكملنا، أكثر مما يبعدنا عن بعضنا. شعرت

أن ذلك الحنان المتدفق منها تجاه بلال يتدفق بهذه القوة لأنه نابع من شخصية قوية صارعت الحياة.. شخصية تمكنت من النجاة.

كنت أعرف تماماً كيف يفكر المستر ويد تجاه لاتيشا، لم يكن الأمر عنصرياً بالضبط، لم يكن تفكير رجل أبيض تجاه امرأة سوداء، الأمر كان أكثر تعقيداً، كان تفكير نيويوركي (أبيض إلى حد ما)، تجاه امراة سوداء قادمة من ضاحية فقيرة وخطرة في سانت لويس، لم يعتقد أبداً أنها ستكون جيدة بما فيه الكفاية لتكون في مدرسته. ربما كان يزعجه أن لاتيشا أثبتت له أنه على خطأ. ربما كان يبحث عن برهان يثبت له أنه كان على صواب منذ البداية.

كانت لاتيشا تعيش تحت ضغط تهديدات وتلميحات المستر ويد بأن الأمر سيكبر عبر شكوى يقدمها والدا جاك، تتظاهر بالقوة واللا مبالاة، ولكنها كانت خائفة من أن يحدث شيء كهذا فيما لو تبين أن جاك قد اصيب بضرر دائمي فعلاً.

قلت لها أن تقطع الطريق على المستر ويد، وأن تذهب إلى جاك لتزوره في المستشفى وترى كيف هو الأمر مع والديه.. وتحدثهما إن وجدت الجو مناسباً.

سعدت لاحقاً عندما أخبرتني أنها فعلت، وأن الأمر نجح.

❑ ❑ ❑

لم أعد أحتمل أن أنتظر ما سيحدث بشأن جاك.

كان المستر ويد مستمراً في استغلاله للأمر، استوعب صدمة تظاهري باللا مبالاة وبدأ يلعب لعبة أخرى، طلب مني أن أتوقف عن تدريس جذور، وقال أكثر من مرة إنه سيتحدث مع (المحامي) بشأن الأمر، أي محامي؟ لم أعرف أصلاً أن للمدرسة (محامي)!.. ولماذا يتحدث مع (محامي) ولم يتقدم أحد بشكوى أو بشيء بعد؟

نصحني أمجد أن أقطع الطريق على المستر ويد وأن أذهب إلى المستشفى لزيارة جاك. في الحقيقة كنت أشعر بالذنب لأني لم أذهب بعد. جزء في داخلي كان يقول لي إني شريكة فيما حدث، جزء ثان كان يقول لي إني مغفلة وأن لا علاقة لي بالأمر، وجزء ثالث كان يتحرك بمشاعر الأمومة فحسب، وجزء آخر كان يفكر بطريقة أبعد من كل هذا. جزء مني كان يفكر بما كان المستر ويد يهدد به: أن يرفع والدا جاك دعوى قضائية.. على.. أي أحد.

هذا آخر ما كنت أحتاجه في حياتي الآن.

بلال يوشك على الوصول للنهاية، بينما أحدهم يرفع دعوى قضائية عليّ..

سأسمع كلام أمجد.

□ □ □

والد ووالدة جاك كانا مهذبين للغاية. لم يبد عليهما أي توتر من حضوري. على العكس كانا مرحبين جداً باهتمامي، سألت عن وضع عين جاك فقالت والدته إن الطبيب طمأنهما أن الأمر تحت السيطرة، سيرفع جاك الضماد خلال أيام ويتوقع أن لا يوجد أي أثر للموضوع خلال ثلاثة أشهر.

تنفست عدة أجزاء مني الصعداء."لا عاهة مستديمة كما كان المستر ويد يتمنى. تساءلت إن كان يعلم أن الأمور بخير لكنه تعمد عدم إبلاغي.

كنت قد أخبرتهما أني مدرسة جاك فور دخولي ولكني لم أقل اسمي.. ترددت قليلاً ثم قلت لها: أنا معلمة اللغة الإنجليزية. لاتيشا.

ابتسمت وقالت: نعم، سمعت بك كثيراً، كنت أتمنى أن ألتقي بك في وضع أفضل.

لم يبد علها أنها تعرف أي شيء عن الموضوع. على الأقل حتى الآن.

لطفها شجعني: هل تعرفين لِمَ ضرب بوبي جاك؟

بدا علها الاستغراب للسؤال، ثم قالت: نعم، أعرف بالتأكيد.

جاك وبوبي بينهما عداء دائم، هما يتنافسان دوماً على من يختار مدرب فريق كرة السلة بينهما. وهذا أحياناً ينقلب إلى أمر قبيح كما لاحظت، لكنهما صبيان لا أكثر.

هناك تراكمات تجاوزها المستر ويد في الموضوع. كنت أعرف ذلك.

تشجعت أكثر: هناك ربما سبب مباشر آخر، أرجو أن لا يزعجك لو أخبرتك به.

قالت باهتمام: بالتأكيد، ما هو؟

قلت لها إن جاك نادى بوبي بـ (توبي) وإن ذلك بدا مهيناً لبوبي.

بدا علها عدم الفهم: لماذا كلمة توبي مهينة لبوبي؟

شرحت لها من هو توبي وماذا قال جاك أيضاً.

امتقع لونها بسرعة وبدت محرجة جداً.

اضطررت للشرح بسرعة، قلت لها بصراحة إن المدير قد يحرضهم على تحريك الأمر لأنه يريد استغلال الأمر ليكون ضدي لأني اخترت رواية جذور، وهو كان ضدها وضدي منذ البداية. قلت لها إن هذه الحوادث تحدث دوماً وإن الأمر مثلما قالت هي قبل قليل (صبيان لا أكثر).

سكتت ولونها لا يزال ممتقعاً تماماً، ثم استأذنتني وذهبت لتكلم زوجها.

رأيتهما يتحدثان على انفراد في الممر. رأيت وجه زوجها يصبح بلون وجهها تماماً. فجأة صارا يبدوان كشقيقين وليسا كزوجين. هكذا يقال دوماً عن الزوجين اللذين يعيشان عمرهما معاً. بالتدريج يأخذ كل منهما شيئاً من الآخر ويصبحان أقرب في الشكل على نحو غريب. شيء لم أجربه أنا على أي حال.

جاء زوجها وعلى وجهه علامات الجدية. توقعت أن يهددني أو يطردني أو يقول شيئاً عن (محامي) سيتم التواصل معه. بدلاً عن كل ذلك، قال والد جاك إنهما يعتذران بالنيابة عن جاك عما قاله لبوبي، وإنه بالتأكيد لم يكن يقصد ما فهم، ولكن جاك أساء بكل الأحوال.

كنت مصعوقة. إنهما يعتذران.

قالت الأم: لا نريد للموضوع أن يكبر أبداً.

قال الأب موضحاً: جاك قد يحصل على منحة دراسية بسبب مهارته في كرة السلة، تعرفين أن الجامعات تتسابق للحصول على اللاعبين الماهرين ليكونوا بين طلبتها، جاك لديه فرصة كهذه، ونحن لا نريدها أن تضيع منه، وجود أي إشارات (عنصرية) في سجله قد يبعد عنه هذه الفرصة.

كلام منطقي جداً.

قالت الأم: وبالنسبة للمستر ويد، اطمئني، لا نريد للموضوع أصلاً أن يفتح، وجاك بخير، سيكون بخير خلال أشهر كما قال الطبيب. لكن لا نريد شيئاً في سجله. لقد تشاجرا فحسب. صبيان فحسب.

شكرتهما بحرارة، وأكدت لهما أن زيارتي لم تكن فقط من أجل هذا الأمر، وإنما اطمئناناً على جاك.

كانا لطيفين بحيث تظاهرا بتصديقي.

لكني كنت صادقة فعلاً.

وكنت فرحة أيضاً: نلت منك يا مستر ويد.

❑ ❑ ❑

قال لي "يا ابن السوداء".

كان خلافاً تطور بالتدريج، نعم، تسابينا. علت أصواتنا. علت أصوات من حولنا وهم يحاولون تهدئتنا.

ثم قال لي: يا ابن السوداء.

قالها وعم الصمت. جمد الجميع. ساد السكون كما في المقابر.

صعقت. بان على وجهه أيضاً أنه صعق عندما سمعها من فمه.

الكل كانوا مصدومين.

انسحبت أنا.

حاول البعض أن يستبقيني.. لا أعرف من؟.. لم أعد أميز الوجوه.. سمعت صوتاً يناديني بحزم: بلال، بلال.

لست متأكداً من. لم أعد أميز. لا أعرف كيف أكملت طريقي. لكني أكملته راجعاً إلى بيتي. تكورت على نفسي. استغفرت ربي. استغفرته مراراً وتكراراً. تكورت على نفسي أكثر فأكثر. لعقت جروحي بصمت. لم أكن أتوقع أن يحدث هذا أبداً من (مؤمن). كانت هذه الكلمة (وأسوأ منها بكثير) مما أسمعه كل يوم بمناسبة وبدون مناسبة عندما كنت عبداً بين عبدة الأوثان، كان تعييري بأمي، بلونها، الذي هو لوني، أمراً عادياً عند العرب الذين كانوا ينظرون إلى السود باعتبارهم أقل منهم.

لكن، مع الدين الجديد، مع المؤمنين به على الأقل، تغير الأمر، لم يعد اللون الأسود شيئاً معيباً، ولا الأبيض شيئاً باعثاً على الفخر. لقد تغيرت المقاييس. ألغيت المقاييس القديمة، وحلت محلها مقاييس أخرى لا تنظر للون.. بل إلى عمل الإنسان، إلى ما يفعله ببساطة.

تصورت أن الأمر يمكن أن يحدث هكذا ببساطة مع الجميع.

تصورت أن الإيمان يمكن أن يلغي كل شيء قديم في نفوس المؤمنين.

يومها، عندما عايرني بأمي، بلوني ولونها، فهمت أن الأمر أشد صعوبة مما تخيلت، مما توهمت.

لم أشك في إيمانه، لا.. لم يحدث..

كنت أعرفه.. وأعرف أنه سريع الانفعال.. لكن لم أشك في إيمانه..

دعوت له يومها، ربما كي أخفف من ألمي دعوت له.

فهمت وأنا أتقلب ليلاً على فراشي كم الأمر صعب. كم هو صعب أن تتخلص من كل شيء سابق كنت تؤمن به، ربما لم يكن صعباً جداً بالنسبة لي لأني كنت عبداً، وحررني الإيمان، فتخلصت من كل شيء سابق بقدر تخلصي من العبودية نفسها..

تقلبت كثيراً ليلتها، وعندما غفوت، حلمت بحمامة سوداء اللون حطت على كتفي ثم حلقت إلى السماء.. وكان أمية، سيدي القديم، الذي عذبني وجلدني ووضع الصخرة على صدري.. يقف في ركن بعيد ويبتسم بخبث.

صحوت وقد فهمت معنى الحمامة.

إنها أمي، حمامة، التي عيرني بها، سوداء نعم، ولكنها تحلق إلى السماء..

لكن لم أفهم وجود أمية.

وعندما اقترب الفجر، ذهبت لأنادي إلى الصلاة.

كان صوتي جريحاً كسيراً.. يشي بكل ما أحمله من همّ..

❑ ❑ ❑

ثم عرفت أن الأمر وصل للنبي.

وأنه أنبه. سأله. هل فعلت ذلك؟ هل عايرته بأمه؟

وأن الرجل أقر بما فعل.

وأن النبي قال له كلمة، لا تزال ترن في وجداني..

قال له: إنك امرؤ فيك جاهلية!

جاهلية مرة واحدة.

عبارة قوية جداً، ترمز لكل ما مضى من عهد الشرك والأوثان، تقول إن الأمر ليس أن تترك عبادة الأوثان فحسب، بل أن لا تترك في نفسك شيئاً من كل القيم التي كانت سائدة يوم عُبدت الأوثان.

بقيت الكلمة معي، صرت أراقب نفسي: هل بقي من جاهليتي شيء؟

تلك الكلمة، التي قالها النبي، جعلتني أفهم لِمَ ظهر لي أمية في الحلم ليلتها..

ثمة أمية في كل منا، ثمة قليلون منه في كثيرين منا، أمية. الجاهلية، أمية الكفر، أمية الذي يزيد وينقص.. ثمة القليل من أمية، حتى عند أولئك الذين لم يعرفوا أمية.

هكذا فهمت حلمي..

وهكذا فهمت ما قاله النبي لصاحبي الذي عايرني بأمي (السوداء).

إنك رجل، فيك شيء من أمية..

وعندما ناديت للصلاة، أول مرة بعد أن عرفت ما قاله النبي، أحسست صوتي وقد عاد قوياً، نشيطاً، مليئاً بالحيوية، والأمل.

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: سنوات المدينة

في الفترة اللاحقة التي قضاها بلال في المدينة، لا توجد الكثير من الحوادث، إلا حادثة مهمة حدثت في السنة الثانية للهجرة، سنأتي عليها.

المدينة ولعشر سنوات لاحقة ستزدهر، وستكبر، وستلعب دوراً أكبر في الجزيرة العربية إلى أن تنتصر لاحقاً لتسود عليها.

بلال من جهته، سيكبر كجزء من هذا المجتمع الذي ينمو.

لن نرى الكثير عنه هنا، لكنه سيكون موجوداً كل يوم، مع كل صلاة، خمس مرات في اليوم، شاهد على نمو هذا المجتمع وقوته..

ثلاث وقائع فقط تشير إلى وضع بلال كعبد أسود سابق في المجتمع الجديد.

الواقعة الأولى، كانت عندما تشاجر بلال مع واحد من المؤمنين، وهو أبو ذر الغفاري، فسبه الأخير قائلاً: يا ابن السوداء، وقد أنبه النبي لاحقاً وقال له "إنك امرؤ فيه جاهلية"، ويعني أن فيك من الكفر ما لم يزل بعد بالإيمان، الكفر المتعلق بالسلوكيات والقيم وليس بالعبادة والشعائر.

الملاحظ هنا أمران، الأول أن الأمر قد ذكر كما لو كان حدثاً كبيراً ووصل إلى النبي، مما يعني أنه كان نادراً جداً، تقريباً تم القضاء عليه.

الثاني هو أن من نقل القصة كلها لاحقاً ليس بلال، بل الشخص الذي سبه! وقد نقلها متأثراً مما فعل ومحدداً كيف غيرت هذه الواقعة من سلوكه مع الجميع.

الواقعة الثانية كانت عندما خطب بلال لأخيه فتاة من بيت من بيوتات العرب العريقة، وهو أمر ما كان يمكن أن يحدث أو أن يكون من المفكر فيه سابقاً، قال لهم بلال هذا: «أَنَا بِلَالٌ، وَهَذَا أَخِي، وَنَحْنُ رَجُلَانِ مِنَ الْحَبَشَةِ

كُنَّا ضَالِّيْنَ، فَهَدَانَا اللَّهُ، وَمَمْلُوكَيْنِ فَأَعْتَقَنَا اللَّهُ، فَإِنْ أَنْكَحْتُمُونَا فَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ رَدَدْتُمُونَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ».

وفي نص آخر أنه قال لهم:

«أَنَا بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، وَهَذَا أَخِي وَهُوَ امْرُؤٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ وَالدِّينِ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تُزَوِّجُوهُ فَزَوِّجُوهُ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَدَعُوا فَدَعُوا» فَقَالُوا: مَنْ تَكُنْ أَخَاهُ نُزَوِّجُهُ فَزَوَّجُوهُ.

هنا نلاحظ أن خطبة (أسود)، عبد سابق، لفتاة بيضاء صارت أمراً ممكناً، وكل هذا في غضون سنوات معدودة، بينما كان الأسود محتقراً مهاناً قبلها، بينما استغرق الأمر، كما تعلم، عقوداً طويلة، بل ربما قرون، إلى أن أصبح ممكناً في أمريكا.

نلاحظ أيضاً أن بلالاً لم يكن مجاملاً، قال عن أخيه أنه سيئ الخلق! ذهب ليخطب فتاة، وهناك مشكلة العائق المحتمل في اللون ورواسبه، وهو يقول عنه إنه سيئ الخلق.

هذه الصفة في بلال، ستكون مهمة جداً لاحقاً في حياته..

الواقعة الثالثة تشير إلى أن بلالاً كان قد تبوأ منصباً يشبه منصب وزير التموين أو أمين المستودعات في عهد النبي..

عن عَبْدِ اللهِ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بِلَالٍ وَعِنْدَهُ صُبَرٌ مِنَ التَّمْرِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا بِلَالُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَكَ وَلِضِيفَانِكَ. قَالَ: «أَمَا تَخْشَى أَنْ يَكُونَ لَهَا بُخَارٌ مِنْ نَارٍ؟ أَنْفِقْ بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا».

لا يمكن أن يحدث ذلك فقط لأمانته، لقد كان بلال أيضاً مسؤولاً عن التوزيع كما هو واضح من الواقعة.

كان أميناً نعم، ولكنه كان يجيد أيضاً استطلاع الواقع والحاجة وقراءة متطلبات المستقبل.

تلك هي مكانته.

❐ ❐ ❐

لاتيشا

أطلقت المدونة في اليوم الذي بدا واضحاً أن بلالاً تدهورت رؤيته جداً.

كان يمشي أمامي متجهاً إلى المطبخ واصطدم بالباب.

كان شكل عينيه قد بدا بالتغير بالكامل. بدأتا تغوران في الداخل.

منذ فترة بدأ يرى الأشياء مزدوجة بالتدريج، ليس كلها، فقط القريبة، داعبني مرة وقال لي إن الأمر ليس بهذا السوء، فهو يرى الآن أن هناك اثنتين مني.

ليتني أنا أرى أن هناك اثنين منه.

لكنه واحد فقط، ويتسرب من يدي.

واحد وبدأ يصطدم بالأشياء، ويبدو التعب والإعياء عليه سريعاً من مجرد الكلام، واحد وبدأ لا يرى بشكل جيد، ويجد صعوبة في البلع، وبالتالي في الأكل والشرب وكل شيء.

واحد فقط ويتسرب من يدي.

لكن لا وقت لديّ للاستغراق في النحيب، غالباً سيكون لديّ العمر اللاحق كله لأتذكر وأنتحب. الآن عليّ أن أركز في الأيام القليلة المتبقية للفراشة.

كان عليّ أن أغير من طريقة حياتنا تماشياً مع التدهور المستمر لصحة بلال، كل الأشياء التي يمكن أن تعوق مسيره أزحت من طريقه، زدت من إضاءة المنزل بحيث لا يشوش أي شيء على تدهور رؤيته، وصارت هناك عصا تساعده في السير، لم يتقبل استعمالها تماماً، لكنه تظاهر بأن الأمر مسلٍ وأنها تشبه مؤثرات فيلم (ترون).

كنت أعرف أن عليّ قريباً أن أشتري كرسياً متحركاً..

كرسياً متحركاً لوحيدي، لفراشتي السوداء النادرة التي أريد لها أن تحلق.

لكن بلالاً رغم كل ذلك، كان قوياً، إيجابياً، يعلق تعليقات ساخرة مرحة بعض الشيء، ويقول إن ما قبل الموت ليس سيئاً على الإطلاق، ويأتي ومعه هدايا ألعاب! (يقصد العصا والكرسي المتحرك).

ظل مصراً على الذهاب إلى المدرسة، بدا لي أن ذلك التحدي شخصي جداً بينه وبين نفسه، كما لو أنه يريد أن يثبت لنفسه أنه لن يستخدم مرضه لكي يبرر له عدم الذهاب إلى المدرسة.

كنت أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً عليه.

لكنه أصر.

❑ ❑ ❑

وضعت أغنية (غيوم)، لزاك سوشيب، كخلفية للصفحة.

زاك فتى أصيب بسرطان العظم وهو في الرابعة عشرة من عمره، ظل يقاوم المرض لأربع سنوات أجرى فيها عشر عمليات جراحية وعشرين جولة من العلاج الكيمياوي، لكن المرض انتشر إلى حوضه، وصار أمامه أن يقوم بعملية جراحية تبتر ساقه، ولا تضمن له توقف المرض، أو أن يعيش لبضعة أشهر وهو يمتلك ساقين، أقرب الأمور إلى أن تكون حياة طبيعية.

قرر زاك أن يموت بسلام دون أن يبتر ساقه، وحاول أن يعيش الأشهر المتبقية من حياته كما يحب، فشكل فريقاً موسيقياً، وكتب بضع أغانٍ، كان منها (غيوم) التي تحدث فيها عن موته القريب.

في يوم جنازته، كانت الأغنية تتصدر الرقم واحد، في الـ itunes ..

كانت الأغنية مناسبة جداً لمدونة بلال، تشبه بصمة تركها زاك على هذا العالم قبل أن يمضي.

بالضبط، كما أريد لبلال أن يترك بصمة على هذا العالم.

❑ ❑ ❑

"لقد نجحت بإقناع والدي جاك بعدم التحرك قضائياً ضد المدرسة". قال المستر ويد بعجرفة.

لم أحاول حتى التظاهر بالتصديق.

"لا بد أن ذلك كان أمراً صعباً مستر ويد، لديك مهارات في التفاوض يمكن أن تستغلها الـ إف بي آي".

كنت أحاول أن أتظاهر بالجدية، لكن مع جملة كالتي قلتها كان التظاهر غير مجدٍ.

"مس لاتيشا، لا أشعر أبداً بأنك مقدرة لما فعلته من أجلك، هذه القضية كانت ستترك أثراً على سجلك الوظيفي وستقف بوجهك في أي بحث عن عمل جديد".. قال بلؤم.

"إذا كانوا ينوون التحرك قضائياً ضد المدرسة، فقد كانت ستترك أثراً أكبر على سجلك أنت يا مستر ويد".

ثم بلؤم مماثل للؤمه: "ربما كانت ستسرع تقاعدك".

فقد تحكمه في أعصابه مع ذكر التقاعد، قال بعصبية: ما كنت سأتأثر بشيء، لقد قلت لك من البداية إن (جذور) فكرة سيئة.

هززت رأسي بلا مبالاة، كنت أعرف أن والدي جاك لا يرغبان أصلاً بعمل شيء، ربما حاول هو تحريضهم وفشل، فأراد أن يظهر هنا بمظهر المنتصر.

"على العموم، مجلس المدرسة اجتمع أمس وقرر وقف تدريسك لرواية جذور".

"ماذا؟" صرخت تقريباً.

شعر بانتصاره فأعاد الجملة ببطء، كما لو كان يتلذذ بكل حرف يقوله.

"لا يمكنك فعل هذا مستر ويد". قلت بصوت عال.

"ليس أنا، لقد كان هذا قرار مجلس المدرسة"، تم التصويت عليه بغالبية ٧ ضد ٤، لم يكن قراري.. لا مزيد من جذور في الصف يا مس لاتيشا".

"لا يمكنكم فعل هذا" قلت كما لو كنت أحدث نفسي.

"لقد فعلنا للتو".

قال بحسم.

□ □ □

"طبقا للوائح، يستطيع مجلس المدرسة أن يفعل هذا".. قالت ماغي بتفهم.

" دون تبليغي؟".. سألت جزعة.

" يبدو ذلك. الأمر تم دون أن يذكر المستر ويد اسمك أصلاً أو يشير إليك، لعبها هذه المرة بذكاء، فلم يبد أي تحيز شخصي في الأمر، قدم أولاً كل الوثائق التي تدين أليكس هيلي وتتهمه بالسرقة الأدبية من رواية أخرى، وتعرفين أن الأمر محسوم قضائياً ضد هيلي، وركز على أن هيلي قدم الأمر كما لو أنه سيرة ذاتية لجده، بينما اتضح أنه أخذ فصولاً من رواية أخرى مكتوبة قبل ذلك.. كان ويد يتحدث عن الرسالة الأخلاقية التي تقدم للطلبة بالترويج لسرقة أدبية".

سكتُّ، كان ويد يعرف تماماً أني سبقت ووضحت ذلك للطلبة، نتحدث عن رواية، وليس عن مذكرات موثقة.

أكملت ماغي: ثم قدم الوثائق التي تثبت أن الأمور لم تكن بهذا السوء!

أوه يا إلهي! قلت لها: هل كان هناك من يناظره أم أنها كانت محاضرة من طرف واحد؟

قالت ماغي: محاضرة مملة ولكن متقنة، كان يقر بوجود اضطهاد كبير للسود ولكن يعود ليقول إن الأمور لم تكن كما وصفت في الرواية، وبالتالي كان يبدو موضوعياً..

ثم انتقل إلى موضوع المشاجرة بين جاك وبوبي، حتى في هذه المسألة كان يبدو موضوعياً. قال إنها مجرد مشاجرة تحدث كل يوم، لكن "لماذا علينا أن نجازف بنسبتها إلى عمل أدبي عليه كل هذه الإشكالات".

وهكذا، ٧ ضد ٤..

لِمَ لم تخبريني ماغي؟ سألتها بحزن.

قالت: لم أكن أعلم بموضوع التصويت المطروح قبل الاجتماع، وبعده، لم أشأ إزعاجك.. ما الفائدة من ذلك كله؟ أعرف تماماً أنك كنت تريدين تقديم الجزء الأول من الرواية، الخاص بكونتا كنتي فقط، وأنك على وشك أن تنهيه، فلماذا إثارة مشاكل أنت في غنى عنها، أنت الآن لديك ما يكفيك لاتيشا".

نعم كنت على وشك الانتهاء من كونتا كنتي فعلاً، ربما ٣ دروس فقط. لكن الأمر لا يشبه أبداً أن يوقف بقرار من مجلس المدرسة. شعرت أن كونتا كنتي يخرج من قبره وتوضع القيود في يديه من جديد، شعرت به يجلد من جديد وهم يسألونه: ما اسمك؟

نعم أنا في غنى عن المشاكل، لكن هل انشغالي ببلال وبوضعه الصحي يبرر أن أترك كونتا كنتي يقيد ويجلد من جديد.

كان هذا هو ما حدث بالضبط.

قلت لها: "هل يمكنني أن أقدم طلباً لمجلس المدرسة يسمح لي بدرس واحد فقط، كي أنهي المادة المتفق عليها باختصار؟"

"نعم، يبدو هذا منطقياً جداً في رأيي، من الصعب أن تجدي من يصوت ضدك".

"عدا المسترويد".. قالت ماغي مع ابتسامة شريرة على وجهها.

□ □ □

"غيوم"

كلمات وغناء زاك سوشيب

سقطت إلى الأسفل

إلى هذه الحفرة المظلمة الموحشة

لم يعد هناك أحد

ليهتم بي بعد الآن

كان عليّ أن أجد طريقة لأتسلق

وأتمسك بالحافة.

وكنت أنت هناك

وبيدك الحبل.

سنرتفع إلى الأعلى

لكني سأحلق أعلى قليلاً

هناك بين الغيوم، حيث المشهد أجمل قليلاً

إلى الأعلى يا عزيزتي

لن يطول الأمر الآن، لن يطول الأمر الآن

وعندما نعود إلى الأرض

لن أحصل على فرصتي

سأكون مستعداً للحياة، ولكنها ستؤخذ من بين يدي

ربما سنذهب يوماً في نزهة

نحلق إلى الأعلى..

وسيكون كل شيء بخير

سنرتفع إلى الأعلى

ولكني سأحلق أعلى قليلاً

سأذهب بين الغيوم، المشهد هناك أجمل

لن يطول الأمر الآن، لن يطول الأمر الآن

فقط لو كان لديَّ المزيد من الوقت

فقط.لو كان لديَّ المزيد من الوقت معك

نستطيع أن نذهب إلى الأعالي

نذهب في رحلة، ونمسك بأيدي بعضنا

كل شيء سيكون بخير

وربما يوماً ما سأراك ثانية

سنبقى نحلق في الغيوم

ولن نرى النهاية أبداً..

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

subject: الانتقام

في السنة الثانية بعد انتقال المؤمنين إلى المدينة، حصلت معركة مهمة جداً، كانت نتائجها كبيرة، ومؤثرة على كل ما حدث لاحقاً. وكان لبلال دور مهم فيها، دور مهم في سير المعركة، وكان لما حدث أثر كبير أيضاً في حياته الشخصية.

كان المشركون في مكة قد صادروا كل أموال من ترك مكة من المؤمنين، وكان البعض من هؤلاء المؤمنين غنياً، والبعض الآخر كان فقيراً، ولكن تمت مصادرة أموال الجميع.

هذا كان مبرراً كافياً لكي يقوم المؤمنون بمحاولة تعويض ما صادره مشركو مكة، باعتراض طريق قافلة تجارية كانت تقل أموالاً لهم، قادمة من الشام، وتمر، على حسب ما كان يبدو من خط سيرها، بالقرب من المدينة، أو على الأقل فلنقل في منطقة محصورة تسهل على المؤمنين محاصرتها فيها.

تجهز المؤمنون وخرجوا بقرابة الثلاث مائة رجل، لمواجهة القافلة واسترداد ما كانوا يعتبرونه تعويضاً لهم عن أموالهم المنهوبة.

لكن قائد القافلة، الذي كان رجلاً ذكياً، علم بخروج المؤمنين لملاقاة قافلته فغير طريقها مسرعاً بحيث صار من الصعب على المؤمنين اللحاق به، وفي الوقت نفسه أرسل إلى مكة من يخبرهم أن أموالهم معرضة للنهب والسلب، وأن عليهم الخروج لإنقاذهم.

وهكذا بدلاً من أن يجد المؤمنون أنفسهم أمام قافلة سهلة المنال.

وجدوا أنفسهم أمام جيش يفوق عددهم بثلاث مرات.

تمكن النبي وقتها من وضع خطة تقلل الفجوة العددية بين المؤمنين والمشركين، وتمكن أيضاً من زيادة معنويات جيشه، وبث الفرقة بين

صفوف جيش المشركين، وكل هذا أدى إلى انتصار الجيش، الأقل عدداً وتجهيزاً، الذي لم يخرج لحرب أصلاً، على الجيش الأكبر عدداً وتجهيزاً، والذي خرج وهو يعلم أنه خارج لقتال.

هذا الانتصار المبكر جعل للدولة الناشئة وضعاً جديداً في خريطة القوى في الجزيرة العربية، جعل كل القبائل العربية، التي كانت تعتبر مكة هي الأهم والأقوى، تنظر للمدينة على نحو مختلف، كما أن الخريطة الاقتصادية، الممثلة في خط سير القوافل التجارية من الشام واليمن قد تأثرت بما حدث.

ما علاقة بلال بذلك كله؟

لبلال علاقة وثيقة.

ذلك أن بلالاً قتل أمية.

سيده السابق، وأحد أهم قادة مكة.. والذين كان مقتلهم سبباً في انكسار مكة وهيبتها بين العرب.

بلال قتل أمية..

الذي كان يعذبه بالصخرة.

بلال قتل أمية.. الذي جعل صبية مكة يسحلونه في شوارعها..

الذي كان يعذبه على الرمال في الظهيرة الحارة..

بلال قتل أمية..

قال جملة شهيرة جداً: رأس الكفر أمية، لا نجوت إن نجا.

وقتله!

□ □ □

من بعيد، أرى جيشهم.

أسأل نفسي..

تراه هناك؟ هل جاء معهم؟ أم أنه لم يخرج من مكة؟

هل يمكن لمن كان شديداً في عدائه للإسلام إلا أن يخرج..

من بعيد، ونحن حول آبار بدر، كنا نرى جيشهم، نسمع صوت الطبول، نسمع صوت غنائهم ولهوهم..

لقد جاؤوا لكي ينهوا الأمر، جاؤوا لكي يقضوا علينا على نحو نهائي.. هذا ما يريدونه من بدر، وها هم يحتفلون بانتصارهم قبل أن تبدأ المعركة..

ولم لا يفكرون هكذا؟ وعددهم ثلاثة أضعاف عددنا؟

وعندهم من الفرسان بأكثر من عشرة أضعافنا..

تذكرت سياطه. تذكرته وهو يجلدني. تذكرت الصخرة التي لم أنسها قط.

لا بد أن أمية جاء معهم.

لا بد أنه جاء ليكمل ما كان قد بدأه، جاء ليضع الصخرة هذه المرة على الجميع ويكتم أنفاسهم إلى الأبد..

لا بد أنه هناك في الجهة الأخرى.

❑ ❑ ❑

لم أنس أمية قط. عشت حراً في مكة لسنوات، وهو يعيش فيها، رأيته عدة مرات، في السوق، في الطريق، أمام الكعبة، أمام دار الندوة.. لم يكن من الصعب أن نلتقي صدفة أنا وهو في مدينة مثل مكة.

حاولت دوماً أن أنظر في عينيه مباشرة. كنت أتمنى أن أرى بعض ندم على فعله بي، أو حتى شيئاً من الوفاء لسنين طويلة قضيتها في خدمته.

لا شيء.

على العكس، كل مرة كنت أرى المزيد من الحقد، الكراهية ، الرفض، كل مرة كنت أرى المزيد من الندم على أنه لم يكمل الأمر، لم يقتلني.. كل مرة كان يبدو عليه أنه قد تذكر هزيمته معي، تذكر أني لم أطعه، بالتدريج صرت أسمعه يسب النبي أو ما حدث في مكة منذ أن ظهر الصابئ (كما يقول).. أكثر من مرة رأيته يبصق على الأرض، ربما لأني صرت أمشي عليها حراً.. مثله..

تركت مكة.

لكن لم أنسه.

لم أنس نظراته، واحتقاره لي، كما لم أنس شتائمه، ولم أنس سياطه على ظهري.

ولا الصخرة على صدري.

لم أنس.

لم أنس.

□ □ □

وعندما سبني أبو ذر، قائلاً يا ابن السوداء، عرفت أن أمية، شيئاً منه على الأقل، يمكن أن يكون كامناً في داخل أي منا..

ربما فيَّ أنا أيضاً..

صار صراعي مع أمية مختلفاً.

صار رمزاً لكل ما يجب أن أتخلص منه.

صار رمزاً لكل ضعف، لكل قسوة، لكل جهل، لكل تكبر، لكل ظلم..

صار أمية، مثل نصب، ربما موجود في داخلي، على الأقل جزء منه..

صار شيئاً عليَّ أن أقضي عليه..

❑ ❑ ❑

كان هناك، على بعد خطوات.

على مرمى البصر.

في معسكر العدو.

لا. لم أره. لكني استشعرت وجوده. لا بد أنه هناك. ما كان يمكن لأمية أن يفوت الفرصة، ما كان يمكن لمكانته في مكة أن تسمح له أن لا يأتي للقضاء على الدين الجديد..

هناك..

أمية، على بعد خطوات..

وهناك أيضاً..

أمية، ولو القليل منه، في داخل الكثيرين..

❑ ❑ ❑

بقيت لأيام، أتمنى أن ألقاه، هذه المرة كمتقاتلين.

هذه المرة ومعي الإذن من ربي بأن أحمل السلاح.

وبقيت لأيام، أحاول أن أفهم نفسي حقاً.

هل أريد أن أقتله من أجل نفسي، انتقاماً لها، أم أني أريد أن أفعل ذلك من أجل أنه عدو الله؟ من أجل أنه ظالم؟ من أجل أنه عدو لكل ما أؤمن به، وكل ما أؤمن به هو العدل والحق؟

لو كنت أريد الانتقام من أمية لأنه ذات يوم آذاني، ألا يكون ثمة شيء منه فيَّ؟ ألا يكون أمية في داخلي هو الذي يحرضني على ذلك، ألا يكون فيَّ شيء من الجاهلية هو الذي يدفعني للثأر؟

ألا أكون امرءاً فيه جاهلية؟

تصارعت مع نفسي طويلاً في هذا..

يدي على سيفي.. عيني على المعسكر الآخر..

وقلبي يدق..

سأراه..

هذه المرة، في ساحة حرب.

بيده سلاح، وبيدي سلاح..

متساويان تماماً، وليس كما كنا دائماً..

لكنه هذه المرة سيكون مضطراً إلى الاعتراف بأننا متساويان..

هذه المرة، أخيراً، سيكون لا خيار أمامه سوى أن يعترف.

بلال..

العبد السابق.. مساوٍ له..

❑ ❑ ❑

خفت من نفسي.

لا من أمية.

خفت أن أكون راغباً في الانتقام منه كشخص، خفت أن أنتقم منه لنفسي، وليس لأي قيم أؤمن بها.. ليس لله.

خفت أن يكون أمية الذي في داخلي هو الذي يريد قتل أمية.. خفت أني لو تركت أمية الذي في داخلي يقتل أمية الذي في الخارج، أن يلتفت أمية لاحقاً وينتصر عليّ..

خفت من أمية الذي في داخلي، أمية الذي يمثل الجاهلية التي يمكن أن تكون لها بقايا في أي منا، أكثر مما خفت من أمية الرجل الذي يحمل السيف هنالك..

❑ ❑ ❑

وابتدأت المعركة.

كانت عيناي تتحركان مثل عيني الصقر بحثاً عنه.

ورأيته.

لكن لم أقترب.

كل مرة كنت أهم بالاقتراب ويدي على سيفي، كان هناك شيء ما في داخلي يهزني بعنف: راجع نيتك، هل تريد أن تقتله لأنه عدو الله أم لأنه سيدك السابق الذي سامك سوء العذاب.

كل مرة كنت ألمحه من بعيد وهو يحارب، كان سيفي يشدني، لكن قلبي كان يدق ويقول لي: واثق أنت؟ لو قتلته لأنه عذبك ذات يوم فلن تتمكن أبداً من أن تزيح الصخرة التي وضعها على صدرك ذات مرة..

كانت ثمة معركتان في بدر.

معركة بيننا وبينهم، بين المؤمنين والمشركين.

ومعركة أخرى في داخلي..

معركة بيني وبين أمية الذي في داخلي، أمية الذي يستدرجني كي أقتل أمية الخارجي ثأراً وانتقاماً كي يعيش الأول في داخلي إلى الأبد.

كنت أحارب بسيفي في يدي، ولكن في الداخل كانت هناك معركة أخرى لا تقل ضراوة.

كنت أهمس في داخلي: لا نجوت إن نجا.. لا نجوت إن نجا..

لكني كنت أعرف أيضاً، أني لن أنجو لو أني قتلته من أجل شخصي، من أجل الانتقام منه، لو أني قتلته من أجل تلك الآثار التي على ظهري، لبقيت أحمله على ظهري طيلة عمري، جثة هامدة، تثقل ضميري.

لا نجوت إن نجا أمية يا بلال.

نعم.

لن تنجو لو نجا.

لكنك لن تنجوَ أيضاً يا بلال لو أنك قتلته لأنه آذاك قبل سنوات. ستكون قد أصبحت أقرب له.

قرع سيوف، نصال على نصال.

في الخارج، والداخل أيضاً..

❑ ❑ ❑

ها هم ينكسرون..

بدا واضحاً أن النصر سيكون حليفنا..

عيناي تبحثان عنه بأقصى تركيز.. وقلبي يدق بشدة.. هل يهرب فينجو؟

لا نجوت إن نجا. لا نجوت إن نجا يا بلال.

أبحث عنه. ها هو معه ابنه "علي"، الذي يقاربني في السن، ماذا يفعلان؟ يبدو كما لو أنهما يريدان الانسحاب من المعركة الخاسرة.

أمية هو أمية دوماً، سيتخلى عن أي شيء في سبيل منفعته وربحه.

لكن لا.

ليس هذه المرة.

لا نجوت إن نجا. لا نجوت إن نجا.

كنت أهمس بها مع نفسي طيلة المعركة..

لكن هذه المرة كانت كالصرخة: رأس الكفر أمية.. لا نجوت إن نجا.

سمعت صوتي عالياً في أرض بدر.. سمعه غيري.. انتبه لما قلت مجموعة من الأنصار، من أهل المدينة، لم يعرفوا شكل أمية، لم يروه من قبل، لكن سمعوا به، بظلمه، بكفره.. ربما سمعوا بما فعله بي.. لا أدري.. لكنهم فجأة انتبهوا لما قلت وتوجهوا نحوه.. سيوفهم في أيديهم..

كررت دون شعور مني: يا أنصار الله.. رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا..

كما لو أنه سمعني، كان يتلفت خلفه، هل رآني؟ هل رأى بلالاً الذي كان

يعذبه ويهينه في مكة؟ هل رأى أين وصل الأمر الآن؟ أم أنه لم يميزني من بعيد ورأى فقط الأنصار وهم يتجهون نحوه؟..

لا أدري.. لكني أدركت فجأة أني وصلت لما كنت أرغب به، لتلك المساحة الصعبة التي كنت قبل قليل أصارع نفسي من أجلها، كنت أخاف أن أقتل أمية ثأراً لنفسي، ولكن ها هم الأنصار، دون أن يشعروا بالمعركة في داخلي، يحلون الأمر، يقتلونه، وليس لديهم أي دافع شخصي في الأمر، لم يهنهم يوماً، لم يخرجهم إلى بطحاء مكة ليعذبهم على الرمال هناك، لم يضع الصخرة على صدورهم كي يغير دينهم.. لم يتصور أنه يملكهم ويملك ما في قلوبهم وعقولهم بحيث لا يحق لهم أن يروا شيئاً غير الذي يراه..

لم يكبروا على إهاناته وسبابه..

ليس لديهم أي شيء شخصي ضده.

لم يروه أصلاً من قبل.

ولولا أني قلت اسمه، لما كان لفت انتباههم بشيء..

أحاطوا به.. وكنت أهمس لنفسي، سينتهي كل شيء سريعاً.. أحد.. أحد.

اقتربوا منه أكثر..

ابنه قتل أولاً.. لم يكن أقل شراً يوماً.. أحد أحد..

سمعت أحد المؤمنين يطلب منه أن ينجو بنفسه ويقول الشهادة، قال له إن هذا كله سينتهي لو قالها.. أن يعلن عن ندمه عن كل ما فعل..

توقف الزمان عندي، شعرت أن قلبي قد توقف ليرهف السمع، شعرت أن الدنيا كلها قد توقفت لتسمع إن كان أمية رأس الكفر، سيسلم، سيشهر إسلامه، ولو رياء، فقط لينجو..

توقف الزمن لبرهة كالأبد. شعرت أن أذنيَّ قد انتصبتا وصارتا أطول فقط لكي تسمع ما سيقول أمية.

كنت أراقب نفسي أيضاً.. هل سأتقبل أن ينتهي كل شيء بنجاته هو..

انتظرت..

وقلبي يدق كطبل.

لكنه لم يقل. لم يقلها.

رأس الكفر، حتى وهو في هذا الوضع، كان أشد كبرياء من أن يقول شيئاً قاله قبله عبد حقير مثلي..

ثم سمعت صرخته. صرخة هائلة لم أسمع مثلها من قبل.

قتلوه. لقد قتلوه.

ظل صدى صرخته يتردد.

ثم..

سمعت من يقول "أحد، أحد"..

فجأة، صار كل من في الساحة يصيح "أحد، أحد"..

فجأة صار الجميع يصيحون "أحد، أحد"..

أحد، أحد، كل من في بدر يصيح "أحد، أحد"..

لا أدري من بدأها، لكنه كان بالتأكيد كان هناك في مكة، رآني وأنا أقولها كما لو كنت لا أحسن غيرها..

كما لو كانت اسمي..

أحد، أحد.. الكل يصرخ، كما لو كانت علامة النصر اليوم..

أحد، أحد..

نعم.. أحد، أحد.

سجدت لله وأنا أهمس: أحد، أحد..

الآن أزيحت الصخرة فعلاً.

لقد نجوت.

نجوت.

□ □ □

بلال

قرأت ما كتبه أمجد عن بلال الحبشي وما فعله مع سيده، قبل أن أنام.

قضيت ليلتي في ساحة المعركة، هناك.

لا أعرف إن كان الحلم قد امتد الليل كله أم أننا لا نملك ساعاتنا أثناء النوم.

لكني شعرت أني قضيت الليل كله في تلك المعركة.

كنت بلالاً مرة، أشعر بما يشعر.

وكنت مرة واحداً من أولئك الذين لم يعرفوا أمية من قبل ولكنهم سمعوا عنه وكان ذلك كافياً لكي يتقدموا نحوه ويجهزوا عليه.

وكنت مرة أمية نفسه أتلقى الطعنات، كما لو أني أريد أن أتأكد أنه مات، أكونه قليلاً وأموت قليلاً فقط لكي أتأكد، كي أذهب لاحقاً إلى بلال وأهمس في أذنيه: لقد مات!

كنت بلالاً أكثر من مرة، مرة والصخرة على صدره وهو يكاد يختنق، والسياط تنهال على ظهره، وهو يقول أحد، أحد..

ومرة وهو يسحل في الشوارع المغبرة، ولا يزال يقول أحد، أحد.

ومرة وهو ساجد في ساحة المعركة، والهمسة هي هي، أحد، أحد.

لا أعرف كم استغرق الحلم، لكني أعرف أني استيقظت وكل عظم في جسدي يشعر بالإنهاك.

هذه المرة لم يكن ذلك عرضاً من أعراض السرطان اللعين.

بل كانت من أعراض بلال الحبشي.

لقد كنت معه في المعركة.

❑❑❑

في المدرسة، كنت آخذ العصا معي ولكن أحاول تجنب استخدامها قدر الإمكان.

لم أشعر بحاجتي لها رغم إنهاكي.

في الحقيقة، كنت أشعر بالحاجة لها، لكني شعرت أكثر بحاجتي إلى أن أكون قوياً.

تحاملت على نفسي.

لكني كنت أرى على نحو مشوش أكثر.

كل شيء كان يبدو مزدوجاً، بدا فناء المدرسة مزدوجاً، وكذلك بدا الجميع. كل شيء كان مزدوجاً على نحو مشوش أكثر فأكثر. باب المدرسة، الممر، الخزانات. كل شيء.

حاولت أن أمشي ببطء، أستخدم ذاكرتي في تحديد خطواتي، نجحت في ذلك في الممر، لكن الخزانات المصفوفة بعضها إلى جانب بعض كانت مشوشة جداً، بعضها كان مفتوحاً والبعض كان مغلقاً، ولم أستطع تفادي المفتوح منها، اصطدم وجهي بشدة بباب خزانة كانت أمامي، وبينما كنت أتفادى ما توهمته الباب الثاني كنت أرتطم بباب خزانة أخرى.

سقطت أرضاً.. كان هناك بعض الضحك المكتوم، وكان هناك من حاول أن يساعدني لكي أنهض.

وهناك جاءني صوته.

"أنت يا سمين المؤخرة، ربما لم تعد مؤخرتك سمينة كما كانت، لكنك ما تزال مؤخرة".

كان هذا جون.

وقفت. نظرت له. كان مثل كل شيء: اثنان منه. اثنان من جون، مع ابتسامتين لئيمتين. واحدة على كل وجه.

كم سنة من هذا يا جون؟ كم سنة؟

فكرت.

فجأة عاد لي حلم الليلة السابقة: بلال وأمية، وكل عذاب بلال مع أمية. السياط والصخرة ومواجهتهما الأخيرة.

عادت لي كل السنوات السابقة أيضاً. منذ أول مرة قام فيها جون بإطلاق أول لقب عليّ، منذ أول مرة أضحك الصف فيه عليّ، منذ أن وضع الفيديو الذي خرجت فيه راكضاً من تواليت الفتيات على الإنترنت.

تذكرت كل تلك الليالي التي تمنيت فيها أن أموت ليلاً كي لا أذهب إلى المدرسة بسبب جون ومايك.

فجأة وجدتني أسمع بلالاً يقول: لا نجوت إن نجا.

ووجدتني أيضا أقول: لا نجوت إن نجا.

لن أسمح له أن يفلت هذه المرة.

سمعت بلالاً يهمس لي: لا نجوت إن نجا. هذه المرة بدا لي أنه كان يقول لي ذلك، يشجعني.

وجدتني أتقدم نحو جون. كان لا يزال هناك اثنان منه.

تقدمت خطوة فخطوة، ونظرة استهزاء وتحدٍ تبدو على وجهين أمامي، كلاهما لجون.

نظرة كان معناها: ما الذي ستفعله؟

وبلال كان يهمس لي: لا نجوت إن نجا، لا نجوت إن نجا.. لا نجوت إن نجا..

وكنت أقترب. أجمع كل قوتي لأضعها في يدي. جمعت كل ما في السنوات السابقة من غل وأذى تسبب به جون ووضعته في قبضة يدي.

وكان بلال لا يزال يهمس: لا نجوت إن نجا.. لا نجوت إن نجا.

حسناً. قبضتي جاهزة. لا نجوت إن نجا.

لكن ثمة وجهين أمامي، لأي منهما سأوجه قبضتي؟

تخيلت أي حرج مضاعف سيتسبب لي لو أني ضربت الوجه المزيف وجاءت ضربتي في الهواء.

قلت في نفسي: أحد، أحد.

رفعت قبضتي بسرعة ووجهتها نحو الوجه الذي على اليمين.

أغمضت عيني تقريباً، لم أكن متأكداً من أن يدي ارتطمت بشيء.

عم الصمت. لست متأكداً أن يدي ارتطمت بشيء.

لم يكن هناك أي جون الآن.

وكانت هناك صرخة عالية جداً، صرخة بصوت غريب لم نألفه من قبل من جون، لكن هذا كان صوته عندما يتألم، لم يسمعه أحد من قبل يتألم.

نظرت إلى أسفل: كان جون ممدداً على الأرض وهو يتلوى ألماً وهو يمسك أنفه، وهناك دماء في كل مكان من وجهه.

وكانت هناك أصوات أخرى: كانوا يهتفون باسمي، فرحين بانتصاري على جون.

لكن الصوت الأعلى في أذني كان الصوت الذي طغى على ساحة المعركة عندما قتل أمية..

أحد، أحد..

❒❒❒

جاءتني مكالمة هاتفية من مدرسة بلال.

كان الهاتف هذه المرة مختلفاً، لم يقل أحد إن ثمة طارئاً طبياً كما هو المعتاد كلما تدهورت حالته.

بل قيل لي أن آتي لمناقشة (أمر ما).

هرعت مسرعة إلى المدرسة.

كان الأمر مختلفاً بوضوح عن كل مرة. لم أفهم السبب. لكن قيل لي إن بلالاً بخير.

استقبلني مدير المدرسة، المستر تومسون وكان رجلاً لطيفاً أبدى دوماً أقصى ما يمكن من تعاون.

هذه المرة كان متجهماً قليلاً.

سألني بعد أن رحب بي: هل يأخذ بلال أدوية معينة قد تجعله عدوانياً أو عنيفاً؟

بدا لي السؤال غريباً. بلال عدواني وعنيف؟

قلت له إن بلالاً يأخذ عقاقير كثيرة جداً، ولا بد أن للبعض منها أعراضاً جانبية، لكن لم يحذرني أحد من أعراض كهذه، كما لم ينبهني أحد إلى أن بلالاً لديه أعراض كهذه.

كنت أتحدث بهدوء، بنبرة "في الحقيقة والواقع" ثم انتبهت إلى أن سؤال المستر تومسون لا بد أن يكون له سبب غير الدردشة عن أدوية بلال.

سألته: هل لي أن أسأل عن سبب هذا السؤال؟

قال لي: لقد اعتدى بلال بالضرب على زميل له.

رددت وراءه: بالضرب؟

قال: نعم! بالضرب. وأدى الضرب إلى كسر أنف زميله.

أعتقد أن فمي فتح إلى أقصاه وأنا أقول: بلال فعل هذا؟

نظر لي المستر تومسون نظرة من اكتفى لأنه سبق ورأى رد الفعل هذا كثيرا وتحدث بالسماعة مع سكرتيرته، قال لها أن تدعو بلالاً وجون إلى الداخل.

ثوان ودخل بلال ومعه شخص هائل الحجم، أنفه ملفوف بضمادات.

لم أستطع الربط بين ما قيل للتو وبين المشهد.

كان بلال قد وضع على وجهه قناع اللا مبالاة. كما لو أنه لم يعرفني أصلاً.

نظرت إلى المدير وأنا أحاول الفهم.

قال المستر تومسون: بلال، قام أمس بضرب زميله في الصف جون، وكسر أنفه.

نظر بلال إلى جون كما لو أنه يراه لأول مرة في حياته. وخيل لي أنه كان يبتسم من تحت شفتيه شامتاً.

قلت وأنا أحاول تجميع المشهد: "جون في نفس صف بلال، في الصف الثامن؟"

هز المستر تومسون رأسه موافقاً.

"وبلال ضربه وكسر أنفه؟"

هز المستر تومسون رأسه موافقاً مرة أخرى.

نظرت إلى بلال، بحجمه الضئيل.. وهذا الجون هائل الحجم الذي يمكن أن يجد وظيفة كحارس شخصي بسهولة.. أدرت رأسي بينهما.

كنت أسيطر بصعوبة على نفسي كي لا أنفجر ضاحكة، وكنت أعرف عواقب ذلك تماماً.

لكني لم أكن أستطيع فهم كيف حدث ذلك. أو حتى كيف استطاع بلال أن يفعل ذلك.

ماذا حدث؟

قلت وأنا أمسك نفسي بصعوبة كي لا أضحك.

قال المستر تومسون: على بلال أن يشرح لنا ما حدث.

استدرت لبلال وسألته: بلال لماذا ضربت - كدت أقول المستر جون، ثم أمسكت نفسي وقلت - جون.

نظر بلال إلى جون مجدداً كما لو أنه يراه أول مرة.

ثم نظر لي وقال: اسألوه ماذا قال عني.

نظر المستر تومسون إلى جون ونظرة الاكتفاء مجدداً على وجهه وقال: ماذا قلت له يا جون؟

شعرت أن هذا التحقيق غير مناسب، وقد يجرح بلالاً، فتدخلت موجهة كلامي لبلال وقد استعدت شخصية المعلمة: أياً كان ما قاله جون يا بلال، المشاكل لا تحل على هذا النحو.

ثم التفتُّ للمدير: أنت تعرف الوضع الصحي لبلال يا مستر تومسون، سأتحدث معه وأفهم منه ماذا حدث وأعدك أن لا يتكرر الأمر.

أشار لهما بالانصراف ثم التفت لي: فقط أرغب في التأكد من أن ما فعله بلال لم يكن نتيجة لدواء يأخذه. لأن الأمر قد يتكرر في هذه الحالة، وإذا كان بلال قد فعل هذا لشخص في حجم جون، فهو يمكنه أن يفعل المزيد لأي طالب آخر.

كان محقاً.

أكدت له أن الأمر لن يتكرر وأني سأفهم الأسباب والدوافع وأتحدث مع الأطباء لتغيير دواء أو إضافة دواء إن كان الأمر ناتجاً عن تداخل دوائي.

قال المستر تومسون: يمكنك أن تفعلي ذلك خلال أسبوع الفصل الذي سيأخذه بلال.

"هذا الجون يؤذيك منذ ثلاث سنوات وأنا لا أعلم؟ ولا أعلم إلا عندما تكسر له أنفه؟!"

قلت لبلال وأنا مصعوقة بعد أن روى لي حكاية جون ومايك معه منذ أول يوم.

لم يعد الأمر بالنسبة لي أن بلالاً كسر أنف جون. بل أن بلالاً تعرض للأذى في المدرسة منذ ثلاث سنوات ولم يقل لي.

كيف حدث ذلك؟ كيف لم أنتبه؟ لقد شككت مراراً.. نعم، وسألته في مراحل عديدة، لكنه كان ينكر ويتهرب دوماً.

"هل الأمر الآن هو أني كنت أتعرض للأذى أم أني كسرت أنف جون؟" سأل بلال بصبر نافد.

بصراحة أنف جون لم يكن يهمني. ولو مثلت الآن غير ذلك لبدا الأمر غير مقنع.

"كيف لا تقول لي ما تعرضت له يا بلال" كنت جزعة. أحاول أن أفهم تقصيري، أحاول أن أفهم إن كان وجود والده سيغير من الأمر.

"ما حدث حدث، لم أتمكن من أن أقول وقتها، ولست بنادم على ما حدث أمس، بل هذا ما كان يجب أن يحدث منذ اليوم الأول". قال بلال بحسم.

كنت موافقة على هذا. لا أستطيع أن أصرح علناً، وربما ليس لدرجة تحطيم الأنف. لكني كنت أعي أن وقوف الطفل بحسم منذ البداية ضد من يؤذيه هو ما يوقف بقية الصبيان عن التمادي.

"لماذا الآن إذن؟ لماذا ليس قبل ذلك؟" سألته، ولم أشأ أن أضيف: لماذا وأنت بهذه الحالة الصحية؟

نظر لي بهدوء، ثم قال: لم تقرئي ما أرسله أمجد عن بلال وأمية؟

قلت له بحرج: لا. لم أفعل.

لم أكن قد اعترفت بعد أني أدخل إلى بريده الإلكتروني وأقرأ ما فيه. كان يعرف وكنت أعرف أنه يعرف، لكن لم نصرح بذلك أبداً.

قال: اقرئي ما كتبه. وستعرفين لماذا حدث هذا الآن.

❑ ❑ ❑

كنت أعرف الآن أن ما فعله بلال، لم تكن له علاقة بأي عرض جانبي لدواء كما تصور المسترتومسون.

بل له علاقة بحقنة منشطة ضخها أمجد دون أن يعلم.

لم أكن أعلم كذلك، أن ما كتبه أمجد عن بلال وأمية، سيكون حقنة منشطة لي أيضاً.

❑ ❑ ❑

اليوم التالي كانت فيه الحصة الأخيرة لرواية جذور.

وافق مجلس المدرسة على منحي حصة واحدة لكي أنهي فيه عرض الرواية. لم يكن إقناعهم صعباً:

كنت لا أزال غاضبة من إنهاء جذور على هذا النحو، والموافقة على طلبي لم تقلل هذا الغضب، كنت سأغضب حتى لو جاء قرار مجلس المدرسة بوقف الرواية بعد أن أكون أنهيتها فعلاً.

كان الأمر مسألة مبدأ.

كنت أريد أن أشرح أموراً أساسية عامة أربط فيها بين الأحداث، أسمع من الطلاب آراءهم عن المرحلة الأخيرة من حياة كونتا كنتي، الذي بدأ بالتدريج يصبح توبي.

كونتا كنتي يتزوج من بيل، وهي طباخة سوداء عند السيد ولتر، كانت تعتني به عندما قطعوا له قدمه، وكونها طباخة، يعني أن لها مكانة مميزة بين بقية العبيد، ويعني أنها كانت (موضع أمانة) عند السيد وأسرته، ورغم أن ذلك كان ممنوعاً على السود، إلا أن بيل كانت تعرف القراءة والكتابة بالإنجليزية.

بيل وكونتا كنتي ينجبان كيزي، يوافق كنتي على تعميدها على مضض، تكبر كيزي لتكون طفلة جميلة تحبها آن ابنة أخ السيد الأبيض، ولأن آن مدللة جداً، فإن كيزي تعيش تقريباً في بيت السيد، وتتعلم القراءة والكتابة، وتصبح مقربة جداً من العائلة التي تملك أبويها، ويكون ذلك كله جزءاً من تطور طبيعي يطمح له كونتا كنتي وزوجته بيل.

لكن كيزي، التي تتقن القراءة والكتابة، تقوم بتزوير تصريح سفر لنوح، العبد الذي يملكه نفس السيد والذي تحبه، حيث لم يكن من الممكن للعبيد أن ينتقلوا لمسافات بعيدة دون تصريح مكتوب من المالك.

لم يبتعد كثيراً قبل أن يتم القبض عليه، واعترف أن كيزي هي من زورت التصريح.

السيد يعاقب كيزي فوراً ببيعها، فيفقد كونتا كنتي وبيل كل أمل في كل شيء. تنتهي حياتهما بطريقة ما وتقف الرواية عند كونتا كنتي وهو يطوح في الهواء بالحصى التي ظل يجمعها طول حياته، والتي تمثل كل منها شهراً واحداً مرّ عليه بعيداً عن قريته في أفريقيا.

كان عدد الحصى التي تناثرت في الأرض ستمائة واثنين وستين.

كان كونتا كنتي قد بلغ الخامسة والخمسين من العمر.

عاش فيها ١٨ عاماً (كونتا كنتي)، الذي ولد في جوفور في غامبيا.

والبقية عاشها وهم ينادونه (توبي). العبد (توبي).

ينتهي الجزء الخاص بكونتا كنتي هنا، ويتابع أليكس هيلي مع كيزي التي ستغتصب في أول ليلة ستكون فيها عند سيدها الجديد.

كنت أخمن ما سيقوله كل من طلابي: ستتحدث ليزا عن لحظات الوداع بين كيزي ووالديها، وكيزي تصرخ طالبة المساعدة من والدها، أو وهي تصرخ طالبة المساعدة من الآنسة آن، متوهمة أن علاقتهما الخاصة ستشفع لها عما فعلته.

سيتحدث إيدي عن تلك اللحظات التي اكتشف فيها كونتا كنتي أنه لم

يعد يذكر أسماء أصدقاء طفولته في جوفور. عن انتباهه فجأة، وهو في الثلاثين من العمر تقريباً، أنه قد تمر عليه الأشهر دون أن يذكر جوفور أو أي شيء أو أي أحد فيها. وسيعلق كيفن أن النسيان هنا كان آلية دفاع عن النفس أكثر منه مجرد نسيان يمكن أن يحدث لأي شخص.

سيقول كيفن غالباً إن نسيان كونتا كنتي بالتدريج للغته الأصلية لم يكن أيضاً لأنه كف عن استعمالها. ليس لأنه لم يجد من يتحدث معه بها، بل لأنه كف عن التفكير بها مع نفسه، لأن مجرد التفكير بها كان سيؤلمه.

سيتحدث حكيم عن لقاء كونتا كنتي بشخص مثله، جاء من أفريقيا، ولم يولد في أمريكا لآباء جاء أجدادهم كعبيد من أفريقيا، سيعرف كونتا كنتي منذ اللحظة الأولى ذلك، دون أن ينطق الرجل بكلمة، سيذهب له ويحييه بنفس الطريقة التي يلقون فيها التحية هناك، سيقول ما لم يقله لأحد منذ أن اختطف قبل عقود من قريته: السلام عليكم.

وسيقول الرجل، بتلقائية، وهو ينطقها ربما لأول مرة منذ عقود أيضاً: وعليكم السلام.

سيتحدث حكيم أيضا كيف أن كونتا كنتي كف عن الصلاة، وتقريباً لم يحافظ من دينه إلا على عدم أكل لحم الخنزير.

خمنت كل هذا، وخمنت ردودهم على بعضهم.

لكني لم أخمن أبداً أني سأدخل قاعة الصف لأجد المستر ويد هناك.

كان المستر ويد جالساً على الكرسي الخاص بي، وقد سحبه ووضعه في الزاوية. كان جالساً تحت العلم الأمريكي. وضع ساقاً على ساق.

وكان الطلبة ينظرون لي في وجوم.

قال فوراً: مس لاتيشا، تبدين متفاجئة، لعلك لا تعلمين أن قرار السماح بحصة أخيرة من جذور كان

مشفوعاً بحضور أحد أعضاء مجلس المدرسة للدرس.

لا. لم أكن أعلم.

حمدت الله أني لست بيضاء . لأني لو كنت كذلك للاحظ الجميع أن الدم قد تدفق في وجهي وأصبحت حمراء كالدم.

شعرت بأن أحدهم صفعني. كنت أشعر بالصفعة على وجهي فعلاً.

يريد أن يوجه لي إهانة علنية. يريد أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة في الأمر. تريدين حصة أخيرة من جذور؟ حسناً. لكني سأشاركك فيها. تذكرت اغتصاب كيزي. شعرت أنه هذه المرة صار على الملأ. لعلي كنت أبالغ. لا أدري. لكني شعرت أن لون بشرتي حماني من أن أبدو هكذا. وشعرت أن المستر ويد هو مثل أمية مع بلال الحبشي، ومثل جون مع بلالي..

قلت له دون أن أنظر إلى وجهه: مرحباً بك في أي وقت.

نظرت إلى وجوه طلابي. كان التعاطف والفهم واضحاً جداً في وجوههم، شعرت بالدعم منهم. فكرت أنني لو لم أنطق بحرف واحد الآن، لو أني تركت قاعة الصف وخرجت منها، لخرجوا كلهم تضامناً معي.

لكن لا.

يدعمونني هم، وسأدعمهم. لن أخذلهم.

ولن أترك الكلمة الأخيرة لويد.

اليوم، سأقدم الدرس الأخير من جذور، وسألقن ويد درساً.

قلت لهم: تعرفون أن اليوم يفترض أن يكون الدرس الأخير من رواية جذور، ولعل أغلبكم قرأ الجزء المخصص لهذا الدرس أو شاهده على الأغلب في المسلسل التلفازي، لكني اليوم لن أبدأ بالحديث عن كونتا كنتي.. بل عن عبد آخر، الرواية ليست عن شخص بعينه، ليست عن جد أليكس هيلي، بل عن العبودية، العبودية التي لا يمكن أن تلغى بقانون يسن أو تصويت عام.. العبودية الأعمق من الشعارات والقوانين.

سأتحدث لكم عن عبد اسمه بلال، بلال الحبشي، ابني الذي يموت بسرطان الدماغ، سُمي على اسمه، على اسم بلال الحبشي، هو أول أفريقي

مسلم، الدين لا يعنيني هنا كثيراً لأني لست مسلمة أولاً، ولكن الحديث هو عن حالة إنسانية..

بلال ولد عبداً، ليس مثل كونتا كنتي الذي ولد حراً ثم استعبد، لكنه تمكن من الحصول على حريته، كان أول عبد أسود يؤمن بالتوحيد، أو الإسلام بينما كانت الجزيرة العربية تعبد الأصنام، وقد عذب لأجل ذلك من قبل سيده، ثم قام المؤمنون بشرائه وعتقه حراً، فكان الإيمان سبباً في حريته.

لاحقاً، صار الإيمان هو السائد في المجتمع، وكان هذا الإيمان يركز على أن قيمة الإنسان بعمله وليس بلون بشرته. لا يهم أن تكون أسود أو أصفر أو أبيض.. المهم ما تفعله.

اقتنع بلال بذلك، من أكثر منه يمكن أن يقتنع بذلك، لكنه توهم أن كل مؤمن قد أزال بالضرورة كل ما يمكن أن يكون قد علق في داخله من رواسب قديمة.

ذات مرة، حدث بينه وبين أحد المؤمنين خلاف، خلاف بسيط من الذي يحصل كل يوم، وزادت حدته، وصارت اللهجة أشد، كما يمكن أن يحصل كل يوم أيضاً، ثم إذا بالرجل الآخر المؤمن، يعير بلالاً بلون أمه، يقول له يا ابن السوداء.

صدم بلال، كان يعتقد أن هذا الأمر كان من الماضي، أنه زال كما زالت الأصنام، لكن الأمر كان أعقد، الصنم تمثال واضح . لكن العبودية، أو العنصرية، أو ما شئت من الأسماء تكون في طريقة التفكير، في رؤية الحياة..".

سكتُّ قليلاً لأرى مقدار الاهتمام الموجود على الوجوه. كانوا يفهمون ما سأصل له. لم ألتفت ناحية ويد لكني أحسست أنه على وشك الكلام.

قال ويد فعلاً: ما علاقة كل هذا بموضوع الدرس مس لاتيشا؟

لم ألتفت ولم أرد عليه. أكملت فقط.

"تم تأنيب الشخص الذي قال هذا لبلال بشكل علني، قيل له إنه يحمل الجاهلية في داخله، والجاهلية هي عبادة الأصنام وما يرافقها من قيم وسلوكيات..

العنصرية بطريقة ما، لو فكرنا فيها من هذه الزاوية، هي عبادة أصنام أيضاً، هي تعلق بمظهر خارجي لدرجة أن تجعل الغلاف أهم من أي محتوى.. العنصرية، هي أن تجعل العنصر الذي تنتمي له، صنماً تدين له بالولاء..

ابتلعت ريقي وكانت فرصة لويد لكي يكرر بصوت أعلى وأكثر حدة هذه المرة: ما علاقة كل هذا بجذور؟

لم ألتفت مرة أخرى وأكملت وأنا أشدد على كل كلمة أقولها: الفكرة هنا هي أن القانون الذي ألغى الأصنام أسهل بكثير من ذلك الدافع الموجود في الداخل لكي تزيل الأصنام الصغيرة، اللا مرئية، من داخلك.. صراعك الأصعب ليس مع القانون الذي يجعل العبد حراً، بل مع نفسك، مع أصنام صغيرة كبيرة في داخلك، تجعلك لا تزال تنظر إلى العبد الذي أصبح حراً، على أنه أقل منك.. يسمونها العنصرية ربما.. ومحاربتها أصعب بكثير من محاربة قوانين العبودية، لأنها ببساطة غير مرئية".

سكتُّ هذه المرة كي أترك لويد فرصة إعادة ما يقول كي أتجاهله، سمعته: مس لاتيشا، يرجى العودة إلى موضوع الرواية.

قلت بصوت مرتفع، أكثر ارتفاعاً من صوته: كونتا كنتي كان يرى نفسه في داخله على أنه حر، حاول المحافظة على كرامته رغم كل شيء، علم كيزي ابنته لغته الأصلية، ماندينغا، رغم أنه لم يكن أحد آخر غيره يعرف هذه اللغة، في داخله كان يرى أنه حر لكنه سقط في الأسر، آخرون، كانوا مقتنعين بعبوديتهم، كانوا قد تعودوا عليها ولم يكونوا يفكرون أصلاً في التخلص منها، كان كونتا كنتي يقول إن السيد لو تركهم، دون حراسة أو قيود، وعاد بعد سنة كاملة، لوجدهم يعملون في الحقول كما تركهم بالضبط.

على الجهة الأخرى، عند السادة، كان هناك من هو غير مقتنع بعدالة هذا الوضع، حتى لو استغله لصالحه، بل إن البيض أنفسهم، كان فيهم من يعامل بدرجة أفضل قليلاً من العبيد، كانوا يسمون، القمامة البيضاء..

عندما يتغير القانون، ولو على نحو كامل وجذري، فإن هذا لا يعنـــي أن ما في النفوس قد تغير بالضرورة.. ذلك أن هناك أشياء هلامية، لا ترى، تتحكم في تنفيذ هذا القانون..".

التفتُّ هنا إلى المستروبد ونظرت له نظرة باردة ثم عدت إلى الصف وأنا أجول بعيني فيهم: فلنحاول أن نلقي نظرة على إحصاءات عن الأمر، لم يقم بهذه الإحصاءات سود. بل سود وبيض، لأن الأمر لا يتعلق بلون البشرة، بل بما تحتويه البشرة..

عندما تتطابق السير الذاتية في طلبات العمل، باستثناء الأسماء التي تشير إلى الانتماء العرقي، فإن السود كان يعاد الاتصال بهم بنسبة ٥٠% أقل.. لا يوجد قانون يمكن أن يمنع هذا.. لأنه يرجع لقرار صاحب العمل أو من ينوب عنه.

السائقون السود، يتعرضون لإيقاف سياراتهم بضعف عدد السائقين البيض..

سماسرة العقارات، عندما يتعاملون مع زبون أسود، يريد شراء منزل، فهم يعرضون عليه بيوتاً أقل بنسبة ٢٠% مما لو كان لونه أبيض.. لأنهم ببساطة يريدون لبعض المناطق أن تبقى بيضاء..

البيض والسود يستخدمون الماريجوانا بنفس النسبة، لكن السود يعتقلون بهذه التهمة بأربعة أضعاف!

السود يحكم عليهم بالسجن بستة أضعاف ما يحكم على البيض..

حتى الأطباء، لا يخبرون مرضاهم السود بتداخل قلبي جراحي ضروري، بنفس النسبة التي يخبرون البيض بها..

المشرعون البيض لم يردوا على طلبات أو رسائل بأسماء تبدو سوداء، بنسب تفوق عدم ردهم على رسائل بيضاء..

أكرر، لم يكن من أعد هذه الإحصائية سوداً، بل كانوا بكل الألوان، بالضبط كما كان من شرع قانون تحرير العبيد رجلاً أبيض اسمه إبراهام لينكولن.

التفتُّ إلى السبورة وكتبت اسمي: لا.. تي.. شا..

هذا هو اسمي، لا.. تي.. شا.. اسم بثلاثة مقاطع، يشي فوراً بأني سوداء، وسوداء من الغيتو الأسود.. اسم ابنوسي، لا يسميه غير السود .. وأيضاً أنا قادمة من حي أسود فقير في سانت لويس- ميسوري.. حي فقير ومليء بالجرائم وكل ما لا تريدون معرفته..

التفتُّ إلى المستر ويد موجهة كلامي له:

ولهذا يعتقد البعض أني مهما فعلت لا يمكنني أن أكون جيدة بما فيه الكفاية لأكون مدرسة في مدرسة محترمة، مهما كانت نتائج طلابي جيدة في الاختبارات العامة، وحتى لو تفوقت بنسب نجاح طلابي على غيري ممن يحملون أسماء أخرى.. سأبقى في نظر البعض مجرد قمامة، قادمة من مكب كبير للنفايات..

ثم نظرت للمستر ويد، بدا لي كما تخيلت أمية بالضبط، تذكرت ما كتبه أمجد وما قاله بلال، وتذكرت بلالاً وهو يلقن جون درساً ويكسر أنفه..

قلت لويد: ليس المهم كيف ينظر لي البعض، المهم هو كيف أرى نفسي، من الداخل، وكيف يراني طلابي.. هذا هو المهم..

نظرت إلى طلابي. هذه المرة كنت أريد دعمهم فعلاً.

وقف جاك. كان هذا هو ثاني يوم له في المدرسة بعد حادثه مع بوبي، الضماد لا يزال على عينه: نحن نعتقد أنك الأفضل.

وقفت ليزا: أنت الأفضل مس لا.. تي.. شا.. وهي تشدد على المقاطع الثلاثة.

وقف كيفن. وقف حكيم. وقف بوبي. وقف الجميع وهم يقولون: أنت الأفضل.

نظرت إلى المستر ويد. فهمت معنى انتصار بلال الحبشي على أمية وبلالي على جون. كان يبدو منكسراً وغاضباً، وجهه أحمر تماماً.

هب واقفاً من كرسيه وقد استوعب ما حدث وهو يتمتم: هذا الأمر خرج تماماً عن السيطرة، واضح أنك فهمت بعض الأمور على نحو شخصي جداً..

قبل أن يصل إلى الباب أوقفته: مستر ويد، كلمة أخيرة لو سمحت.

التفت لي بغضب: ماذا؟

قلت له بهدوء: هل تعلم أن كيزي، ابنة كونتا كنتي، قد رجعت لاحقاً إلى حيث كان أبوها بعد وفاتهما؟

بدا عليه الاستغراب: ماذا؟

أكملت: وهل تعلم ماذا فعلت عندما وصلت هناك؟

قال ويد من بين أسنانه وهو يفتح الباب: ليس لدي الوقت لـ..

لم أدعه يكمل، قلت: ذهبت إلى قبر أبيها، وجدت أنهم كتبوا اسم (توبي) عليه، محته، وكتبت اسمه الحقيقي..

كتبت كونتا كنتي، هذا هو اسمه، وهكذا كان يرى نفس ، وهكذا سيبقى إلى الأبد..

كونتا كنتي..

لا بد أني قلتها بطريقة ألهبت الصف. وجدتهم يهتفون معي بصوت متزايد: كونتا كنتي، كونتا كنتي، كونتا كنتي..

تذكرت (أحد، أحد) التي سمعها بلال الحبشي..

وتذكرت هتاف الطلبة لبلال عندما ضرب جون.

لقد نلت أنا أيضاً من أمية.

أمجد

عدت منهكاً بعد يوم طويل، كان لديَّ جدول مزدحم في الكلية ولقاء طويل مع البروفسور ميللر، يبدو أنه على وشك الموافقة على رسالتي. ملاحظاته هذه المرة لم تتجاوز الثلاث صفحات.

في طريق عودتي حدثتني لاتيشا، كنت قد اتصلت بها أمس مراراً ولم ترد، ثم أرسلت لي رسالة تقول فيها أنها ستتصل لاحقاً، وطمأنتني أن الأمور بخير.

كان صوتها مبتهجاً على نحو استثنائي، قالت لي: لن تصدق ما حدث أمس واليوم.

روت لي ما حدث مع بلال في المدرسة أول أمس، والذي عرفته أمس، وما حدث معها اليوم في المدرسة.

قلت لها: إذن بلال كسر أنف جون، وأنت كسرت رأس ويد!

قالت بفرح: نعم، أعتقد شيئاً كهذا.

وضحكت ضحكة مختلفة، مليئة بالحماس والسعادة. كانت ضحكة إنجاز أكثر منها ضحكة مرح.

قلت لها: هل هذا صحي؟

ردت بسرعة: صحي جداً.

قلت لها: مع ويد بالتأكيد، لكن بلالاً كسر أنف جون يا لاتيشا، هذا عنف.

قالت بلهجة موبخة فوراً: لا تحدثني عن مثاليات يا أمجد، تعرف جيداً أن لا حل لهذه المشاكل غير أن يقف الصبي الذي يتعرض لها بحزم، وينتهي الأمر.

كما تشائين. كنت أعرف أنها على حق، وكنت مستغرباً مما فعله بلال وهو في تلك الحالة الصحية، وكنت سعيداً لأنها كررت أكثر من مرة أن ما كتبته عن بلال وأمية كان له الأثر الكبير في موقف بلال ثم موقفها هي.

كنت سعيداً لأن لي هذا الأثر في حياتها.

كنت منهكاً وأريد النوم، لكني تذكرت وأنا في المصعد أن عليّ أن أخرج كوبر ليسير، فلعنت كريستين في سري. وانتبهت أنها المرة الأولى التي أذكرها ربما منذ أسابيع، منذ أسابيع أيضاً لم أدخل إلى حسابها على الفيس بوك أو ماي سبيس. شعرت بالانتصار.

□ □ □

"مفاجأة!".

قالت كريستين بمجرد أن فتحت الباب.

كانت تقف هناك، واثقة من نفسها، بثوب أحمر قصير، يكشف ذراعيها.

بقيت ساكتاً.

"ولقد أعددت لك العشاء الذي تحبه".

قالت وهي تشير إلى المائدة.

هناك شمعتان، وزجاجة نبيذ (موجودة عندي أصلاً، لم تبتعها هي)، وباستا يخيل لي أنها جاهزة وربما كانت عندي أيضاً أو جاءت بها من البقالة تحت المبنى.

انتبهت أيضاً إلى أنها قد وضعت موسيقى هادئة.

بقيت ساكتاً. لم أتحرك. كوبر فقط هو الذي تحرك. جاء ووقف أمامي وهو يهز ذيله كما لو كان يريد أن يعرف ما سأفعل.

كان المشهد مستهلكاً للغاية. استخدم عشرات المرات في الأفلام. وكانت كريستين لا تزال واثقة من نفسها. تعتقد أني لا أزال مريضاً بها. تعتقد أني سأنسى، سأغفر لها كل شيء لمجرد أنها جاءت ووضعت الباستا على المائدة.

بقيت في مكاني. أتأمل المشهد المستهلك السخيف. ألم يكن من الممكن إجراء بعض التجديد عليه يا كريستين؟

ارتبكت كريستين. أدركت أن الأمر لا يسير حسب السيناريو الذي في بالها.

اقتربت مني وهي تبتسم، تعتقد أن ابتسامتها بوجهي ستحل الموضوع.

قالت: ألن تقول شيئاً؟

بقيت ساكتاً. لا أتحرك. تذكرت الأيام والليالي الطويلة التي تعذبت بسببها. نعم لقد شفيت منك كريستين. لكن الآن ربما لديَّ الفرصة كي أرد لك الضربة. لكي أنتقم. جاءت ربما لأن براندون هجرها أو أساء لها أو لأنها تريد أن تغيظه. أو جاءت فقط لأن العلاقة الوحيدة التي تجيدها هي مع شخص تضطهده. وربما لم يكن براندون من هذا النوع.

جاءت وهي واثقة أنها ستصلح الأمر معي فقط بمجرد مجيئها.

تتصور أنها تملكني. تتصور أني عبد لها.

مجرد هذا التصور كان مهيناً لي.

أمية، من جديد.

وضعت ذراعيها على عنقي وهي تحاول أن تحتضنني. كانت تقول كما لو أنها تحدث طفلاً: هل أكلت القطة لسانك؟ قل شيئاً يا حبيبي..

أزحت ذراعيها. بدت مصدومة.

أقول شيئاً؟

نعم عليَّ أن أقول شيئاً.

قلت بصوت هادئ جداً كما لو أني أتحدث عن الطقس في الخارج: "كان عليَّ أن أغير المفتاح".

تركت لها الوقت لكي تستوعب ما قلت.

كانت تحاول أن تفهم ما قلت.

قالت: ماذا؟

كررت، بصوت أعلى، ومشدداً على الكلمات كما لو أني أتحدث مع شخص ضعيف السمع: أقول، كان يجب أن أغير المفتاح الغبي.

كانت تتنفس بسرعة، ولونها تغير: ماذا تقول؟ كيف تجرؤ على هذا؟ من تظن نفسك؟

قلت بصوت مسترخٍ وأنا أتجه إلى المائدة: أرأيت؟ كان من الأفضل أن أغير المفتاح، على الأقل وقتها ما كنت ستضطرين لسماع ما يغضبك.

سحبت ملعقة وأخذت من صحن الباستا مباشرة دون أن أضع في طبق، شيء كانت كريستين دوماً تتظاهر بأنه يقززها. ستتقزز أكثر الآن.

مضغت القليل من الباستا ثم بصقتها في الصحن الرئيسي وقلت: لو غيرت المفتاح ما كنت سأضطر أنا لأكل هذا الشيء.. رباه، لم تعودي تتقنين حتى الباستا.

كانت على وشك الإغماء من التقزز، لعلها إذن كانت تتقزز فعلاً ولا تتظاهر بذلك كما ظننت.

قالت: من تظن نفسك يا أمجد؟

رددت بسرعة: أمجد حلواني، سيدتي. وهو ليس متوفراً كما توهمت.

قالت: يا لك من مغرور تافه، هل تتصور أني جئت كي أعود لك؟

قلت: لا، لقد جئت من أجل الباستا. رديئة جداً.

قالت بتحدٍ: جئت من أجل كوبر. وأحببت أن نتعشى معاً كأصدقاء. لا أكثر.

ضحكت ساخراً بشدة وقلت: نعم بالتأكيد. الملكة كريستين لا يمكن أن تأخذ "لا" كإجابة. لكن أقولها لك، ولعشاء الأصدقاء الرومانسي هذا: لا. لا. لا تتوقعي أن تأتي هنا وتجدي أمجد القديم في انتظارك. أمجد القديم لا وجود له، والنسخة الجديدة منه لا تطيقك.. بالضبط كما لا تطيق الباستا الرديئة التي بصقتها للتو.

لقد بصقتك أيضاً، كما بصقت الباستا.. ها أنت تأتين الآن إلى هنا،

بنفسك، وها أنا أطردك.. أبصقك..

أ.. ب.. ص.. ق.. الملكة كرستين.

بدا على وجهها كما لو أني بصقت عليها فعلاً.

استدارت نحو كوبر وقالت: كوبر، هيا.

قلت لها: إذا كنتِ تريدين أن تأخذي كوبر ليسير، فلا بأس، لكن ليس من حقكِ أخذه، عليكِ أن تتركيه يختار بيننا..

"يبدو أنك جننت، بالتأكيد سيختارني، أنت لا تطيقه".

"النسخة القديمة مني كانت لا تطيقه وكانت تطيقك، حدث تبادل في الأمر".

"كوبر، هيا بنا" قالت بحسم وتحدٍ وهي واثقة من أنها ستنتصر هنا على الأقل.

"كوبر، تعال هنا" قلت له بصوت حاسم، لكني كنت خائفاً قليلاً. يتحدثون عن وفاء الكلب، لعله سيكون وفياً لها أكثر مما كانت وفية له.

نظر كوبر إليّ ثم نظر إليها.

"كوبر، هيا بنا" قالت بتوتر كما لو أن مجرد هزيمة أخرى ستجعلها تنهار.

نظر كوبر إليّ، ثم تقدم نحوي ووقف بجانبي وهو ينظر لها.

"ولد طيب" قلت له وأنا أربت على كتفيه.

نظرت إلى كرستين: أترين؟ لقد حصل تبادل بين كوبر وبينك. أنا سعيد جداً بالنتيجة.

كانت كرستين تتلقى أكبر إهانات في حياتها.

كان أمية يُقتل.

□ □ □

From:Amjadhelwani@bilalmovie.org

To:Bilal2001ny@hotmail.comsubject

subject:الانتصار

السنوات اللاحقة شهدت انتصارات أخرى للمدينة، وتمدداً في سيطرتها، كما شهدت هزيمة لهم وحصاراً انتهى بانتصارهم.

في السنة السادسة للهجرة، تم عقد اتفاقية صلح بين المؤمنين والمشركين في مكة، الاتفاقية كانت مثل هدنة لمدة عشر سنوات، يلتزم فيها الطرفان (وحلفاؤهم) بعدم خوض أي حرب أو أي اعتداء على الطرف الآخر، الاتفاقية شملت بنداً بدا للوهلة الأولى قاسياً، إذ أنه سمح لمشركي مكة أن يستعيدوا من جاء من المشركين من مكة وانضم إلى المؤمنين في المدينة، ولا تسمح للمؤمنين بالشيء نفسه في المقابل.

فيما عدا هذا، كانت الاتفاقية لا تلزم المؤمنين بعدم التوسع في خارج حدود مكة وحلفائها.

كانت الاتفاقية نصراً كبيراً للمؤمنين حتى وإن لم يفهم البعض هذا أولا.

فمن شاء أن يؤمن من مشركي قريش، لم يعد يذهب إلى المدينة، بل صار أشبه بالخارج على القانون الذي يهدد قوافل قريش وتجارتها، دون أن يكون في ذلك إخلال بالاتفاقية التي عقدها مشركو مكة مع المؤمنين، لأن هؤلاء لم ينضموا عملياً للمؤمنين، تركوا مكة، ولكنهم لم ينضموا للمؤمنين.

كان المستفيد الأكبر من الاتفاقية التي بدت مجحفة هم المؤمنين، حيث تمكنوا من نشر الدعوة إلى الإله الواحد في قبائل لم تكن ضمن حلف مع قريش، وتوسعت دعوتهم لتشمل أماكن ما كان يمكن لهم أن يصلوها في ظل الحرب المستمرة مع مكة، كما أعطتهم الهدنة الفرصة لتقوية قاعدتهم الاقتصادية والتجارية، وكان أن قدمت المدينة (بديلاً) ناجحاً، بديلاً يسود فيه قانون مختلف وفيه عدالة وفيه رواج اقتصادي وليس فقط مدينة لا

تعبد فيها الأصنام.

وجد مشركو مكة أنفسهم محاصرين بالتدريج في الفخ الذي نصبوه لأنفسهم دون أن يعلموا، وبعد سنتين، حدث اعتداء من إحدى القبائل المتحالفة مع مشركي مكة على قبيلة متحالفة مع المؤمنين، فكان ذلك خرقاً للاتفاقية، وإنهاءً للهدنة.

تقدم المؤمنون، بجيش كبير جداً بمقاييس ذلك الوقت، عشرة آلاف مقاتل، نحو مكة.

رأى سادة المشركين في مكة أن لا فائدة من القتال، لذا تفاوضوا على الاستسلام دون إراقة للدماء، وهكذا كان.

خلال ثماني سنوات من خروجهم سراً وخائفين متفرقين، عاد المؤمنون إلى مكة بجيش عظيم، فاتحين منتصرين.

دخل المؤمنون إلى الكعبة، البيت الذي بناه إبراهيم ليكون أول بيت يعبد فيه الله الواحد، والذي كان المشركون قد وضعوا الأصنام حوله وداخله، وكان عددها بعدد أيام السنة، وأخذ المؤمنون يحطمونها الواحد تلو الآخر..

ثم، بعد أن تحطمت كل الأوثان حول الكعبة..

جاء النبي، ليدخل الكعبة..

ولم يدخل معه سوى اثنين.

واحد منهما أسامة، ربيب النبي و ابن ابنه بالتبني،

والآخر هو.. بلال!

لم ينل هذه المكانة أكابر الشخصيات والأسماء اللامعة حول النبي، وبعضهم كانوا مقربين جداً ومن عشائر مهمة..

لكن لا..

فقط أسامة، (الحفيد) بالتبني..

وبلال، الأسود الذي كان عبداً حتى سنوات قليلة.

لهذه المكانة وصل بلال.

ليس لأنه أسود، ليس لأن ثمة شعوراً "أبيض" بالذنب.

بل بعمله.. بما فعل.

لكن دخوله إلى الكعبة، لم يكن كل شيء أيضاً..

□ □ □

ثُمَّ رَقَى بِلَالٌ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ فَأَذَّنَ

فَقَالَ خَالِدُ بْنُ أُسَيْدٍ: مَا هَذَا الصَّوْتُ؟

قَالُوا: بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ،

قَالَ: عَبْدُ أَبِي بَكْرٍ الْحَبَشِيُّ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: أَيْنَ؟

قَالُوا: عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ.

قَالَ: عَلَى مُرْقِبَةِ بَنِي أَبِي طَلْحَةَ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: مَا يَقُولُ؟

قَالُوا: يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،

قَالَ: لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَبَا خَالِدٍ عَنْ أَنْ يَسْمَعَ هَذَا الصَّوْتَ. يَعْنِي أَبَاهُ، وَكَانَ مِمَّنْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْمُشْرِكِينَ.

وأيضاً...

جَاءَتِ الظُّهْرُ يَوْمَ الْفَتْحِ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَالًا أَنْ يُؤَذِّنَ بِالظُّهْرِ فَوْقَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، وَقُرَيْشٌ فَوْقَ رُءُوسِ الْجِبَالِ وَقَدْ فَرَّ وُجُوهُهُمْ وَتَغَيَّبُوا خَوْفًا أَنْ يُقْتَلُوا فَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الْأَمَانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ

أُومِنَ. فَلَمَّا أَذَّنَ بِلَالٌ رَفَعَ صَوْتَهُ كَأَشَدِّ مَا يَكُونُ قَالَ: فَلَمَّا قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

تَقُولُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ: قَدْ لَعَمْرِي رُفِعَ لَكَ ذِكْرُكَ، أَمَّا الصَّلَاةُ فَسَنُصَلِّي، وَوَاللَّهِ مَا نُحِبُّ مَنْ قَتَلَ الْأَحِبَّةَ أَبَدًا، وَلَقَدْ جَاءَ إِلَى أَبِي الَّذِي كَانَ جَاءَ إِلَى مُحَمَّدٍ مِنَ النُّبُوَّةِ فَرَدَّهَا وَلَمْ يُرِدْ خِلَافَ قَوْمِهِ

وَقَالَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَ أَبِي فَلَمْ يَسْمَعْ بِهَذَا الْيَوْمِ، وَكَانَ أَسِيدٌ مَاتَ قَبْلَ الْفَتْحِ بِيَوْمٍ (بدر)..

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: وَاثُكْلَاهُ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ بِلَالًا يَنْهَقُ فَوْقَ الْكَعْبَةِ.

وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ: هَذَا وَاللَّهِ الْحَدَثُ الْجَلِيلُ أَنْ يُصْبِحَ عَبْدُ بَنِي جُمَحٍ يَنْهَقُ عَلَى بَنِيَّةِ أَبِي طَلْحَةَ

وَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: إِنْ كَانَ هَذَا سُخْطًا لِلَّهِ فَسَيُغَيِّرُهُ اللَّهُ، وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَقُولُ شَيْئًا!

❐ ❐ ❐

صعد بلال على ظهر الكعبة.

أشرف مكان في مكة.

مكان لم يكن أشرف سادات مكة وأعرقهم نسباً قد وصله بقدمه.

لكن، ها هو بلال، يتسلق جدران الكعبة، يصل إلى قمتها، كما لو أنه يلقن الجميع، يوم الانتصار، هذا الدرس العملي، أن من كنتم تحتقرونه، من كنتم تهينونه، ذاك الذي استعبدتموه، قد ارتقى اليوم هذا المرتقى الصعب..

جاء سادة مكة قبل دخول الجيش، للتفاوض، للحصول على الأمان، وهم قد حاربوا المؤمنين لسنوات طويلة صعبة.. وحصلوا على الأمان فعلاً، لكن صعود بلال إلى ظهر الكعبة، وارتفاع صوته بنداء الصلاة، الذي يحوي

كلمات التوحيد التي حاربها هؤلاء، كان صفعة أكبر من المتوقع بالنسبة لسادات مكة.

ربما توقعوا تحطيم الأصنام.. ربما كانوا واثقين من ذلك، ولم يتفاوضوا

على أن يحتفظ أحد منهم بكبير الأصنام "هبل" في منزله بمنأى عن التحطيم والتقديس. لم يحاول أحد منهم إنقاذ الأصنام التي قدسوها طيلة حياتهم..

لكنهم لم يكونوا يتوقعون أبداً هذه الضربة.. أن يرتقي بلال – العبد الأسود الحبشي- على ظهر أقدس ما عندهم، ويرتفع صوته – هو العبد الحقير في أعينهم -بالكلمات التي كانت السبب في رفضهم للدعوة الجديدة..

كانوا سيتقبلون الأمر أكثر لو أن واحداً من العرب، من قبيلة تنتمي لهم، صعد إلى ظهر الكعبة وقال تلك الكلمات..

لكن ذلك الصنم، صنم العنصرية، كان يجب أن يحطم..

وما كان يمكن أن يحطمَ إلا عبر هذا الدرس العملي.

❑ ❑ ❑

أن أرتقي الكعبة!

أن أسير عليها!

عندما قال لي أن أنادي لصلاة للظهر، جلت بعيني حول الكعبة، كنت أتساءل مع نفسي: أين سأقف يا ترى؟ أين سأقف لأرفع صوتي بالنداء للصلاة؟

كان يعرف سؤالي دون أن أقوله. فأشار لي إلى الكعبة.

شهقت.

أن أتسلق جدارها. أنا. أن أتسلق جدار الكعبة، وأصل إلى قمتها.. وأقف هناك؟

أنا؟!

شهقت جزعاً من الأمر. هذا كثير. والله كثير. لو قيل لي إني سأسير على سطح القمر لكان هذا أكثر واقعية من أن أصعد على ظهر الكعبة.

كانوا حولي يشجعونني. فهموا أي حمل ألقي عليّ. فهموا فوراً أي شعور أشعره. من عيني فرت بعض الدموع. لست متأكداً أي نوع من الدموع كانت. الفرح.. الامتنان.. الخوف. لا أعرف. وددت أن أقف لحظات لأقول لهم شيئاً. لكن لا. وقت الصلاة. لا بد أن أصعد. لا بد أن أرتقي جدران الكعبة.

تحللت من ثوبي، وقميصي، بقيت بسروالي، ما كان يمكن لي أن أتسلق الجدار وأتعلق به بسهولة بكل ثيابي. ثم فكرت أن لوني الأسود بان أكثر عندما كشفت المزيد من جسدي. كما لو كان في ذلك تذكير للجميع بلوني، وبالمرتقى الذي أرتقيه الآن.

تمسكت بأستار الكعبة، يا رب كن معي، ليس الأمر سهلاً في عدم وجود حبال هنا، لكني لن أدع الأمر يذهب مني، سأكون جديراً بثقته، لا يمكنني أن أخذله، أو أخذل نفسي.

كانت البداية صعبة، لكن ما إن ارتفعت بذراعين حتى صارت حركتي أسرع وأكثر ثقة. بدأت التكبيرات، سمعتهم يصيحون: الله أكبر، الله أكبر.. مدني ذلك بقوة وجعلني أسرع في تسلقي. شعرت أن الله معي، وأنهم أيضاً معي، يتسلقون معي جدار الكعبة، أولئك الذين آمنوا بأن لا إله إلا الله منذ البداية..

في منتصف المسافة فكرت أن أنظر إلى الأسفل، أن ألتفت، راودتني هذه الرغبة، لكن لا، لا مجال لهذا، لا مجال للنظر إلى الخلف، ثبتُّ عيني على سطح الكعبة، القمة هي ما يجب أن أصل لها، بدا لي ظهر الكعبة لحظتها كما لو كان هو الجنة التي يسعى لها كل المؤمنين. كما لو كان الفردوس الأعلى.

مع كل ذراع أرتفعه كان التكبير يرتفع ويزداد سرعة، كنت أشعر بأنفاسهم معي في التكبير، كما لو كان تسلقي جدار الكعبة معركة أخرى يريدون أن ينجزوا الغلبة فيها، كما لو كان تسلقي فتحاً آخر، تتويجاً للفتح الذي حدث قبل قليل..

وكنت أعرف أن هناك من يتمنى لي أن أسقط، أولئك الذين دخلوا الإيمان اليوم فقط بعد أن أسقط في أيديهم.. كانوا سيعتبرون سقوطي وفشلي في تسلق الكعبة انتصاراً ولو رمزياً لهم، ربما كانوا سيعتقدون أن الأوثان التي تحطمت للتو قد تدخلت في الأمر..

مع اجتيازي ذراعاً بعد آخر، أنفاسي تتسارع، والتكبيرات تتسارع، وأنا أقترب من القمة.

مكة تترقب.. بين من يريدني أن أصل القمة ويرى أني أمثله وأن بشرتي لا تعوق ذلك إطلاقاً، وبين من يريد أن أسقط فيشمت انتصاراً لآلهته المهزومة.

وأنا أرتفع ذراعاً بعد ذراع، أحتضن الكعبة كما يحتضن طفل أمه.

أنفاسي تتقطع، لكني أجد للهواء طعماً آخر كلما اقتربت من القمة.. كل شيء مختلف مع كل ذراع أقرب إلى القمة..

ها قد وصلت حافة السطح.

أتحسس بيدي علّي أجد شيئاً أتمسك به وأستطيع رفع نفسي إلى السطح.

أجد حبلاً، أظنه يلم أطراف أستار الكعبة ويصلها ببعضها، أتمسك به وأشد نفسي، والحشد يصيح: (الله أكبر) في حماس.

أرفع ساقي اليمني وهي مثنية لأضعها على حافة السطح. حركة واحدة ونصف جذعي على سطح الكعبة.

أعدل من جسمي وأقف.

أنا أقف على ظهر الكعبة.

التكبيرات تصل إلى السماء. يطير من فوق سطح الكعبة الحمام الذي كان عليها وأثار وجودي استغرابه.

تبقى حمامة واحدة تبدو غير مكترثة.

لا، تبدو كما لو أنها تنظر إليّ.. كما لو أنها بقت لتذكرني بأمي حمامة.

آه يا حمامة، يا أمي، لو تعرفين برحلتي.. لو ترين أين وصلت..

نظرت إلى مكة.. أول مرة أراها من هذا العلو.. هذه الشوارع، هذا السوق، هذا دار الندوة حيث اجتمع سادات مكة ليحاربوننا.. تلك دار أمية بن خلف حيث كنت أعمل.. هناك دار النبي..

هناك سحلوني في الشارع، وكان الصبية يرمونني بالحجارة وهم يضحكون، تراهم اليوم في الحشد الآن، يرونني؟ تراهم آمنوا بالذي كنت أعذب من أجله..

وهناك، في الصحراء التي تلوح في الأفق.. كنت أعذب، كانت الصخرة على صدري، تكاد تكتم أنفاسي، وأنا أقول: أحد، أحد..

وهذا الأحد الأحد، جاء بي من تحت الصخرة، إلى ظهر الكعبة.

خررت ساجداً له.

كنت عبداً لأمية، ثم صرت عبداً لله، وهو جاء بي من تحت صخرة أمية ليجعلني هنا، على ظهر بيته..

تمنيت لوهلة لو أن الله أحيا أمية ولو لدقائق..

فقط ليراني وأنا هنا..

شعرت أن أمية لم يمت إلا اليوم..

اقتربت من الحافة، وسحبت نفساً كما لو أني سأجعل من صوتي رمحاً ينطلق إلى الآفاق..

وبدأت..

الله أكبر، الله أكبر.

□ □ □

لاتيشا

كانت خمسة أيام صعبة جداً.

أصيب بلال بجلطة رئوية كنتيجة عارضة للسرطان.

حدث الأمر سريعاً، أو ربما ليس سريعاً جداً لكن بلالاً لم يكن يشكو بوضوح من صعوبة في التنفس.

لكني لاحظت صعوبة في تنفسه أثناء نومه، لم يستغرق الأمر دقائق بينما كنت أتصل بالإسعاف وإذا بالأمر يزداد سوءاً.

كان بلال يختنق عملياً.

وتوقعت أن الأمر يحدث الآن، أن أوان رحيله قد جاء على هذا النحو.

في الإسعاف، تمكنوا على الأقل من إيقاف ذلك.

اتصلت بأمجد، وعندما وصلت المستشفى، كان ينتظرنا هناك.

اليومان الأولان كانا شديدي الحرج، بعض العلاجات المعتادة كان يمكن أن تسبب نزيفاً لبلال في دماغه. لذا أخذت إجراءات أكثر تحفظاً ولكنها كانت بطيئة بقدر أكبر في إظهار الأثر على بلال.

انتقلت الجلطة لرئة بلال اليسرى من ساقه، وعطلت عملياً ثلث هذه الرئة.

في الأيام اللاحقة أصبحت حالته أكثر استقراراً بالتدريج، لكنه كان نائماً أغلب الوقت، وبدا كما لو أنه يخسر المعركة بهدوء.

على السرير الأبيض، مع كل الأنابيب الخارجة منه والموصولة به، وكل تلك الشاشات التي تنقل ما يجري في جسده الذي يزداد نحافة يوماً بعد يوم، وبوجهه الذي بدا خالياً من الشعر، سواء في الحاجبين أو في قمة رأسه.. بدا لي أنه يخسر المعركة.

كنت ملازمة له طيلة الوقت، لم أعد أكترث كثيراً بتفصيلات ما يقوله الأطباء وشرحهم لي، أريد فقط المزيد من الوقت معه.

وكان هناك أمجد، يظهر بين حين وآخر، لا أكاد أكتشف أنه غاب حتى يظهر، تعودت وجوده وصار يعطيني نوعاً من الأمان. كان قلقه على بلال حقيقياً. وقد قلت لنفسي أكثر من مرة، أي صدفة هذه التي جمعتنا، وأي قدر هذا الذي جعل بلالاً يراسله.

كنت منقطعة تماماً عن العالم خلال هذه الفترة، في أول يوم اتصلت بماغي لكي تخبر المدرسة، واتصلت هي لتتابع ثم جاءت عندما لم أرد، واتصلت بأمي، قلت لها إن بلالاً دخل المستشفى فسألتني بسرعة: هل مات وتريدين أن تمهدي لي الخبر؟

لا.. ربما كنت أريد أن أمهده لنفسي يا أماه.

ثم لم يعد يهمني أن أتواصل مع أحد، كانت ماغي قد مرت لتطمئن لاحقاً في اليومين التاليين، لكني لم أكترث لهاتفي أبداً، ولم أجدد شحن بطاريته، ولا أعرف متى مات تماماً.

لكني لم أتصل، ولم أسمعه يدق في اليوم الرابع.

في ظهيرة اليوم الخامس، وكان يوم أحد، وكان بلال قد بدأ بالتحسن، وشرب حساء وابتسم وعلق على كآبتي بالقول إني يمكن أن أفوز بدور في (البؤساء)، قررت أن أرى هاتفي واكتشفت أن بطاريته قد ماتت، وضعته على الشاحن دونما اهتمام كبير، فقط كنت أريد أن أرتب أمر الغد مع ماغي أوربما ووبي. وضعته على الشاحن ونسيت الأمر لساعة أو أكثر.

ثم تذكرت وفتحته.

❑ ❑ ❑

كان هناك أكثر من ٦٠ مكالمة فائتة. بعضها من ماغي ومن أمي وبعضها من أرقام لا أعرفها أبداً.

وكان صندوق بريدي مليئاً تماماً. لم يحدث أبداً أن فتحت هاتفي لأجد أكثر من ٣ رسائل صوتية، هذه المرة كان الصندوق قد وصل حده الأقصى: ٢٠ رسالة.

ما الذي حدث، لو أن أمي ماتت لما حدثت كل هذه الاتصالات، ثم إنها لم تمت، لأنها ضمن المتصلين.

لم يكن هناك أي مجال لسماع ٢٠ رسالة صوتية، قررت أن أتصل بماغي لأسألها عن الأمر الجلل، ربما كانت كل هذه الاتصالات تحدث لسبب واحد.

قبل أن أبدأ بالاتصال، كانت ماغي تتصل.

أجبتها، فسمعتها تصرخ: لاتيشا أخيراً، كانت هذه محاولتي الأخيرة قبل أن آتي إلى المستشفى.

قلت لها: ماغي ما الذي يحدث؟

صرخت: لاتيشا، بلال في الأخبار!

لم أستوعب. بلال في الأخبار. ما الذي يحدث. بقيت ساكتة أحاول أن أفهم.

صرخت ماغي مجدداً: لاتيشا، لقد نجحت.. بلال في التلفاز، مدونته انتشرت كالفيروس في هذه الأيام الثلاثة الماضية، وهو الآن في كل نشرة أخبار منذ الصباح. كل المحطات، إل إي بي سي، سي بي إس، إن بي سي..

سكتت ماغي قليلاً لتلتقط أنفاسها، ثم أكملت: الرسائل التي كتبها بلال في كل مكان الآن، أمس قرأ جيمس كوردن رسالته لك على الهواء.. واليوم روبن روبرتس قرأت رسالته إلى السرطان في "صباح الخير يا أميركا".

سكتت وسكتُّ أنا. كانت ماغي تبكي. أنا أيضاً.

قالت لي وصوتها مختنق: الأمر يحدث يا لاتيشا، فراشتك تترك أثراً في هذا العالم..

□□□

ما إن أقفلت الهاتف مع ماغي، وقبل أن أحاول استيعاب ما حدث حتى وجدت أمجد أمامي يلهث وشعره مشوش، ويبدو كما لو أنه استيقظ للتو: لاتيشا، لم أستطع الاتصال بك، هاتفك مغلق، ولم أتمكن من الاتصال بالمستشفى.. بلال في الأخبار يا لاتيشا!

قلت له إن ماغي اتصلت بي فوراً وأن ثمة عشرات المكالمات المجهولة وأن صندوق بريد الرسائل الصوتية ممتلئ تماماً.

قال لي: غالباً إنها مكالمات من برامج الأحد الصباحية، يريدون مشاركتك أو اللقاء بك أو ببلال.

دق الهاتف فوراً. رقم لا أعرفه.

كانت مكالمة من فريق برنامج " The View الرؤية"، يريدون استضافتي وبلال مع تقرير عن بلال.

مكالمة أخرى فوراً: من محررة في مجلة (أو)، تريد لقاءً، وتقول إن أوبرا وينفري نفسها مهتمة بالقصة.

استدرت لأمجد: ما الذي حدث خلال هذه الأيام، لم أدخل المدونة منذ اليوم الذي سبق جلطة بلال، ولكن لم يكن هناك أكثر من ١٨ مسجل للمتابعة - أغلبهم من الأصدقاء والزملاء - ، وكل التعليقات على كل الرسائل لم تزد عن العشرة أغلبها من أشخاص مجهولين. ما الذي حدث؟

ابتسم أمجد: الرسائل عاطفية فيها حزن ولكن فيها أمل (وتحدي)، وبلال يعبر عن ذلك بأسلوب جميل وقوي ومؤثر، الناس عموماً تتفاعل مع هذا على نحو إيجابي.

كنت أفتح المدونة من هاتفي، رباه، ١٠٠ ألف مسجل، وبعض الرسائل حصلت على آلاف المشاركات عبر الفيس بوك وتويتر.

يا إلهي، تمتمت، كيف حدث هذا؟

رد أمجد: المهم أنه حدث! هذا ما أردته أنت! أن يترك بلال أثراً، أن يوصل رسالته للعالم.

"سيدتي، نواجه موقفاً في الخارج". جاء صوت الممرضة بيتي.

"أي نوع من المواقف؟" قلت بارتباك. كان ما أنا فيه من موقف يكفي وأكثر.

"يمكنك أن تأتي معي لتري بنفسك".. قالت بيتي مع ابتسامتها التقليدية.

ذهبت معها وأنا أحاول أن أخمن الأمر، سارت بيتي إلى مدخل المستشفى وسرنا خلفها، قالت لي قبل الباب الذي يؤدي إلى المدخل الرئيسي والاستقبال: حاولنا أن نمنع دخولهم، لكن لم نستطع منعهم من الوصول إلى هنا..

وفتحت الباب.

في ثوان، تجمعت حولي الكاميرات والمايكروفونات التي تحمل العلامات المميزة لكل ما أعرف وما لا أعرف من محطات تلفازية.

لقد جاء السيرك إلى المستشفى.

□ □ □

أمجد

لن تعرف لاتيشا أبداً أن الأشخاص المجهولين الذين كانوا يعلقون على المدونة في أيامها الأولى، كانوا كلهم شخصاً مجهولاً واحداً هو أنا.

كنت أكتب للدعم والتشجيع، ولكني كنت صادقاً أيضا فيما أكتب، كانت رسائل بلال حساسة وقوية بمعزل عن عمره.

لكن عندما أصيب بلال بالجلطة الرئوية، أحسست أن الساعات الأخيرة قد اقتربت، وأن المعركة أوشكت على الانتهاء.

فقررت أن أساهم في جعله لا يخسرها بالضبط.

صرت أنشر المدونة ورسائلها في كل مكان، أنشأت حسابات وهمية، حوالي عشرة، واستخدمت كل ما تضم قوائمي البريدية من عناوين، زملاء وأساتذة في الكلية وطلبة وأصدقاء شخصيين وكل أحد راسلته وراسلني في يوم ما.. كما صرت أدخل صفحات الفيس بوك العامة، خاصة التي تضم قصص الدعم لأطفال مرضى أو لمرضى السرطان عموماً، وصرت أضع روابط المدونة ورسائلها مع عناوين حرصت أن تكون جاذبة ومؤثرة.. هكذا أخبرني غوغل أن أفعل.

كان هناك تجاوب وزيادة في عدد المسجلين والتعليقات، لكن كل ذلك كان في نطاق محسوس، ولكن محدود.

"نقطة التغير" كانت في شيء آخر.

في اليوم الرابع، وبينما كنت راجعاً من المستشفى إلى البيت، فتحت المذياع لا على التعيين، ووجدت نفسي أستمع إلى برنامج (دليلة)، الذي تستلم فيه دليلة مكالمات من المستمعين وتستمع إلى مشاكلهم وهمومهم وتمنحهم الدعم والتشجيع وتبث أغاني مناسبة لأوضاعهم.

كانت لديَّ فرصة ضئيلة لأكون المتكلم التالي. حاولت. وإذا بي على الهواء مع دليلة، ومعها ثمانية ملايين مستمع يتابعون برنامجها.

تحدثت عن بلال، من يمكنه أن لا يتعاطف مع صبي يحتضر بالسرطان ويقاومه بكتابة رسائل جميلة موجهة إلى الجميع؟

دليلة في هذه الأثناء – وبينما أتحدث، وما إن ذكرت اسم المدونة، دخلت على مدونة (شيفرة بلال)، ويبدو أنها أحبت ما كتبه بلال، فأخذت تقرأ بعض ما كتبه وهي متأثرة جداً، وكررت عنوان المدونة عدة مرات، ثم اختارت نفس الأغنية التي اختارتها لاتيشا للمدونة: (غيوم) لزاك سويش.

عندما وصلت البيت كان عدد المسجلين ١٣ ألفاً، وعشرات التعليقات.

وكانوا قبل ذلك أقل من ألف.

لا أعرف ما الذي حدث بعدها، لكن تفسيري الوحيد أن أحد معدي برنامج (The late late show العرض الليلي المتأخر جداً) على قناة الـ cbs كان يستمع لبرنامج دليلة، وأن ثمة فقرة في البرنامج ألغيت لسبب ما، وعرض أن يعوضها بهذه الفقرة المختلفة عن المعتاد في البرنامج الفكاهي عادة.

لم أشاهد البرنامج، غفوت والتلفاز مفتوح، واستيقظت متأخراً صباح الأحد لأجد صورة بلال على الشاشة.

صرخت صرخة مرتفعة وأنا أدرك أني لم أكن أحلم وأن بلالاً وقصته يتصدران كل نشرات الأنباء ليوم الأحد.

فتحت المدونة، فوجدت عدد المسجلين قد جاوز الـ ٧٠ ألفاً، ومئات التعليقات والمشاركات.

الأمر يحدث، إنه يحدث.

اتصلت بلاتيشا ولكن هاتفها كان مغلقاً، هرولت لأخبرها دون أن أغسل وجهي حتى.

ثم تذكرت شيئاً..

ركعت شكراً لله.

ثم انطلقت أركض.

□ □ □

لاتيشا

كان التعرض لأضواء السيرك الذي اقتحم حياتنا يشبه عملية (تعري) أمام الملأ.

لكنها عملية (تعري) داخلية، أعري فيها مشاعري، مخاوفي، أدق تفاصيل مشاعري.

أن تتحدث أم عن ابنها الذي يتسرب من بين أيديها لأضواء الكاميرات والشاشات وجمهور التوك شو والمحاورين الأذكياء الذين يريدون أكثر ما يريدون زيادة نسب المشاهدة.. كان ذلك كله عملية (تعري) أمام الملأ.

كنت واعية بذلك، واعية أن الأمر بالنسبة للميديا سيكون ضمن فقرة (التسلية)، الناس ستتعاطف مع بلال وستبكي وستتأثر لما أقول، لكنها في النهاية ستنفس بهذه المشاعر عن مشاكلها هي، ستجد في الدموع على بلال وسيلة لإظهار الدموع عن أمور أخرى لا تريد مواجهتها بالضبط.

كان الانجرار إلى لعبة العواطف على شاشات التلفزيون أمراً مغرياً بلا شك، وكان بعض المحاورين في البرامج الحوارية يريدون ذلك، يسألون أسئلة توجهني إلى أن أبكي أمام الجمهور.

"كيف هو شعورك كأم ستفقد وحيدها؟".

كان من المفروض أن أصمت قليلاً، ثم أبدأ بالحديث عن أكثر مشاعري خصوصية وحميمية أمام الملايين ممن سينتهي الأمر عند غالبيتهم بمناديل تمسح دموعهم وينتهي الأمر.

كان الأمر سيزيد نسب المشاهدة بالتأكيد، لكن لم يكن هذا يعنيني، لم أصل إلى هنا لكي تزيد نسب مشاهدة البرامج الحوارية، بل لكي يترك بلال بصمة على هذا العالم، لكي يعيش حياته المتبقية على أفضل نحو ممكن.

كنت أرد بالقول إني أكثر حظاً من أكثر من حوالي ٤ آلاف أم يموت أولادهن كل سنة في أمريكا جراء حوادث، فلا يملكن الفرصة لوداع مناسب، ولا يجدن أصلاً الفرصة للتهيؤ للرحيل، يذهب ابنها إلى المدرسة في الصباح فيموت في الطريق – مثلا - وربما لم تكن قد قبلته أو احتضنته هذا الصباح.

أذهب مجهزة بأرقامي التي تغير الجو فوراً، فيعرف المحاورون أنهم لن يجدوا المناحة المتوقعة، كنت حريصة على ذلك، هناك ستة آلاف طفل دون الرابعة عشرة يموتون في أمريكا كل عام، أكثر من نصفهم، ٦٣%، يموتون في حوادث (غالباً سيارات، وبدرجة أقل جرائم).. أي أنه كان موتاً فجائياً بلا سابق إنذار أو تمهيد..

كنت أقول إني من الـ ٢٠% من الأمهات الأكثر حظاً، اللواتي يعلمن أن أولادهن سيموتون، ويملكن الفرصة ليس للوداع فحسب، بل لبناء علاقة أفضل معهم، لجعل البقية الباقية من حياتهم أفضل.

كنت أيضاً أتحدث عما يبدو مخالفاً للمتوقع في هذه البرامج، عن أثر شخصية بلال الحبشي في صراع بلال مع المرض، عن بحثه عن نفسه من خلال بحثه عن الشخصية التي اختار والده أن يسميه تيمناً بها، باعتبار أن هذا الاسم هو الشيء الوحيد الذي تركه والده له.

كان الأمر يثير الاستغراب في البداية، خاصة أن الشخصية التاريخية هي شخصية مسلمة، لكن ما كنت أتحدث عنه من كون هذه الشخصية عبداً أسود تحرر عبر الإيمان، كان يخفف من وطأة الاستغراب، خاصة أني لم أكن مسلمة بأي حال من الأحوال. كنت أتحدث عن شخصية تاريخية ساهمت في الحضارة الإنسانية، وليس عن "رجل دين".

كانت الميديا تفضل بالتأكيد لو أني وبلال كنا نمثل (الحلم الأمريكي) بالنسخة الستيريوتايب منه، بيت في الضواحي مع حديقة وسيارة ذات دفع رباعي، وأب وأم مثاليين يملآن البيت حباً وحناناً.

للأسف، كنت أمثل النسخة الواقعية: كنت أماً عزباء جاءت من سانت

لوس إلى نيويورك، تعيل ابنها وتعيش في بروكلين.

قلت ذلك في (الرؤية) صراحة، قلت إني لا أمثل ما تريده الميديا بالضبط، وإن قصة بلال ربما كانت أكثر جاذبية للميديا لو أنه كان أبيض، في عائلة مكونة من أم وأب، تنتمي للجزء العلوي من الطبقة الوسطى، وتعيش في الضواحي.

أيدتني ووبي غولدبيرغ بشدة، وقالت إن ما جذب الميديا لم يكن قصة الصبي المحتضر بقدر ما كان محتوى المدونة ورسائل بلال وأسلوبها الجميل. وأثار ذلك نقاشاً متوقعاً بينها وبين نيكول والاس لكن مجمل النقاش كان إيجابياً، وتمكنت أنا من إيصال ما أراده بلال من رسائل إيجابية.

❑ ❑ ❑

كانت مراقبة ردود أفعال الناس على تحولنا – أنا وبلال - إلى (نجمين) أمراً مثيراً جداً.

المستر ويد فجأة تحول إلى ألطف شخص قابلته في حياتي، ولعله كان يفكر بجعل (جذور) رواية إجبارية على الصف العاشر في السنوات المقبلة.

أقارب وأصدقاء من الكلية لي لم أسمع منهم اتصالاً منذ سنوات، وكانوا يعرفون تماماً بمرض بلال ولم يفكروا يوماً أن يرسلوا رسالة دعم وتشجيع، لكني فجأة أصبحت (أحسن صديقة لهم) عندما يشاركون التقارير التلفزيونية عن بلال ويشيرون لي على صفحاتهم على الفيس بوك. فجأة صار أن تمتلك صديقة لها ابن مريض بالسرطان أمراً يدعو للفخر.

فقط عندما تظهر على شاشات التلفزيون الوطني.

ماغي كانت قلقة عليّ من كل هذا.

وكان أمجد معي في كل حين، يمنحني الدعم الذي احتجت إليه طيلة عمري.

❑ ❑ ❑

كنت أرد بالقول إني أكثر حظاً من أكثر من حوالي ٤ آلاف أم يموت أولادهن كل سنة في أمريكا جراء حوادث، فلا يملكن الفرصة لوداع مناسب ولا يجدن أصلاً الفرصة للتهيؤ للرحيل، يذهب ابنها إلى المدرسة في الصباح فيموت في الطريق – مثلا - وربما لم تكن قد قبلته أو احتضنته هذا الصباح.

أذهب مجهزة بأرقامي التي تغير الجو فوراً، فيعرف المحاورون أنهم لن يجدوا المناحة المتوقعة، كنت حريصة على ذلك، هناك ستة آلاف طفل دون الرابعة عشرة يموتون في أمريكا كل عام، أكثر من نصفهم، ٦٣%، يموتون في حوادث (غالباً سيارات، وبدرجة أقل جرائم).. أي أنه كان موتاً فجائياً بلا سابق إنذار أو تمهيد..

كنت أقول إني من الـ ٢٠% من الأمهات الأكثر حظاً، اللواتي يعلمن أن أولادهن سيموتون، ويملكن الفرصة ليس للوداع فحسب، بل لبناء علاقة أفضل معهم، لجعل البقية الباقية من حياتهم أفضل.

كنت أيضاً أتحدث عما يبدو مخالفاً للمتوقع في هذه البرامج، عن أثر شخصية بلال الحبشي في صراع بلال مع المرض، عن بحثه عن نفسه من خلال بحثه عن الشخصية التي اختار والده أن يسميه تيمناً بها، باعتبار أن هذا الاسم هو الشيء الوحيد الذي تركه والده له.

كان الأمر يثير الاستغراب في البداية، خاصة أن الشخصية التاريخية هي شخصية مسلمة، لكن ما كنت أتحدث عنه من كون هذه الشخصية عبداً أسود تحرر عبر الإيمان، كان يخفف من وطأة الاستغراب، خاصة أني لم أكن مسلمة بأي حال من الأحوال. كنت أتحدث عن شخصية تاريخية ساهمت في الحضارة الإنسانية، وليس عن "رجل دين".

كانت الميديا تفضل بالتأكيد لو أني وبلال كنا نمثل (الحلم الأمريكي) بالنسخة الستيريوتايب منه، بيت في الضواحي مع حديقة وسيارة ذات دفع رباعي، وأب وأم مثاليين يملآن البيت حباً وحناناً.

للأسف، كنت أمثل النسخة الواقعية: كنت أماً عزباء جاءت من سانت

لويس إلى نيويورك، تعيل ابنها وتعيش في بروكلين.

قلت ذلك في (الرؤية) صراحة، قلت إني لا أمثل ما تريده الميديا بالضبط، وإن قصة بلال ربما كانت أكثر جاذبية للميديا لو أنه كان أبيض، في عائلة مكونة من أم وأب، تنتمي للجزء العلوي من الطبقة الوسطى، وتعيش في الضواحي.

أيدتني ووبي غولدبيرغ بشدة، وقالت إن ما جذب الميديا لم يكن قصة الصبي المحتضر بقدر ما كان محتوى المدونة ورسائل بلال وأسلوبها الجميل. وأثار ذلك نقاشاً متوقعاً بينها وبين نيكول والاس لكن مجمل النقاش كان إيجابياً، وتمكنت أنا من إيصال ما أراده بلال من رسائل إيجابية.

❑ ❑ ❑

كانت مراقبة ردود أفعال الناس على تحولنا – أنا وبلال - إلى (نجمين) أمراً مثيراً جداً.

المستر ويد فجأة تحول إلى ألطف شخص قابلته في حياتي، ولعله كان يفكر بجعل (جذور) رواية إجبارية على الصف العاشر في السنوات المقبلة.

أقارب وأصدقاء من الكلية لي لم أسمع منهم اتصالاً منذ سنوات، وكانوا يعرفون تماماً بمرض بلال ولم يفكروا يوماً أن يرسلوا رسالة دعم وتشجيع، لكني فجأة أصبحت (أحسن صديقة لهم) عندما يشاركون التقارير التلفزيونية عن بلال ويشيرون لي على صفحاتهم على الفيس بوك. فجأة صار أن تمتلك صديقة لها ابن مريض بالسرطان أمراً يدعو للفخر.

فقط عندما تظهر على شاشات التلفزيون الوطني.

ماغي كانت قلقة عليَّ من كل هذا.

وكان أمجد معي في كل حين، يمنحني الدعم الذي احتجت إليه طيلة عمري.

❑ ❑ ❑

تمادى البعض في سيرك الميديا، فطلبوا مني أن أوافق على أن يتم تصوير الأيام الأخيرة لبلال، مثل برامج تليفزيون الواقع، فرفضت ذلك مع كمية لا بأس بها من الشتائم.. لن أحول موت ابني إلى سيرك يتفرج عليه الجميع.

كان آخر ظهور إعلامي لي مع الدكتور فيل.

قررت بعدها أن كفى.

مسجلو المدونة تجاوزوا الثلاثة ملايين. وعدد مشاهدات التقرير الذي أعده فريق (الرؤية) تجاوز الملايين الخمسة.

بلال بطريقة ما تمكن من إيصال الرسالة.

لا داعي للمزيد من الأضواء..

انسحبت لكي أتمكن من البقاء معه أكثر في الوقت المتبقي لنا.

وكان من الواضح أنه يقل.

ويقل.

ويقل.

□ □ □

رسالة من بلال إلى جيسيكا (المدونة)

غالباً لن تتذكريني.

ربما إن ذكروا لك أنه ذلك الصبي الذي دخل إلى تواليت البنات، فستعرفين من يقصدون.

لكني لن أنساك أبداً، والأبد بالنسبة لي بضعة أشهر فقط للأسف. لكنه أيضاً (أبد).

كنتِ الشيء الوحيد الذي يهون عليّ عذاب المدرسة، إلى أن انتقلتِ إلى لوس أنجيلوس في الصف السابع.

لا أزال أذكر اليوم الأول للصف السابع. مسكني جون ومايك في الممر الضيق بين المكتبة وقاعة الرياضة، وحاولا تعليقي في الحائط.

كان يوماً سيئاً جداً.

لكن أسوأ ما فيه لم يكن هذا.

بل كان أني عرفت أنكِ قد غادرتِ وذهبتِ غرباً، وأنكِ لن تعودي أبداً.

يومها آذاني ذلك أكثر بكثير مما آذاني ما فعله جون ومايك وضحك الآخرين عليّ.

كان هناك ضوء خافت في هذه المدرسة، وانطفأ بذهابك.

كان مجرد وجودك، مجرد أن أنظر إليكِ، يجعلني أشعر بشيء مختلف.

كنت أراكِ كأجمل شيء في الوجود، اكتشفت لاحقاً أن ليس الكل يعتبرك هكذا، صدمني الأمر، كان الفتيان يتحدثون عن فتيات الصف الجميلات وعددوا أغلب الفتيات ولم يأتوا على ذكركِ. للوهلة الأولى تصورت أن كونك الأجمل كان أمراً محسوماً بحيث إنه لا داعي للحديث عنه.

لكن اسمك جاء متأخراً.. بعد خمس أو ست فتيات. وأحدهم سخر من فمك وأيده آخر.

اكتشفت أن سحرك هذا، لا تراه كل العيون.. مثل أشعة غير مرئية، تحتاج إلى أجهزة خاصة لرؤيتها.

زادني ذلك تعلقاً بك.

فرادتك، وفهمي لتلك الفرادة.

كانت ابتسامتك جميلة جداً، تبتسمين فتبتسم معك عيناك، ويبدو العالم فجأة مكاناً أفضل مما كان قبل ابتسامتك. مجرد وجودك كان يجعل العالم أفضل.

ذات مرة في الصف السادس، قبل إجازة الربيع بالضبط، طلبت مني الآنسة كولتون، مدرسة الإنجليزي أن أقرأ شيئاً كتبته عن "عشرة أشياء تتمناها أن تحدث لكي تكون أسعد".

قلت تسعة أشياء، عن وجود أبي، عن البلاي ستيشن الذي أريده من أمي، عن مادة الرياضيات، عن اختفاء البعض من حياتي (كنت أعني جون ومايك)، عن حضور حفل قادم لـ ويز خليفة، وتذاكر لنهائي سوبر بول، أن يقل وزني، أن يكون أنفي أصغر، أن لا أترك ولا يناديني أحد عندما يتم اختيار اللاعبين لفريقي كرة السلة كما يحدث كل مرة..

ثم عاشراً، قلت شيئاً عنك، دون أن أذكر اسمك طبعاً، قلت شيئاً عن ابتسامتك، تمنيت أن تبقى فقط هذه الابتسامة لتنير الصف..

قلت هذا ورفعت بصري عن الورقة واسترقت نظرة إليك، فوجدتك محمرة خجلاً..

أحسست أنك تعرفين أني أقصدك.

أحسست أنك كنت تعرفين هذا قبل أن أقوله.

❑ ❑ ❑

رحلت في السنة التالية.

وشخصت بالسرطان بعدها بأشهر.

❑ ❑ ❑

عزيزي الله..

اليوم أعرفك على نحو أفضل بكثير.

أشعر أني أقرب منك.

أشعر أنك أقرب مني.

ربما كنت أنت دوماً بنفس القرب، لكني لم أكن أشعر بذلك.

هل يحدث هذا لأني أقترب من الموت أكثر؟

لا أعتقد، كلنا بطريقة ما، منذ أن نولد، ونحن نقترب من الموت.

ما جعلني أقرب منك، هو أني فهمت الحياة أكثر..

اقترابي من الموت، جعلني أفهم الحياة أكثر، أفهم روعتها، أفهم الجمال الساكن في غموضها أحياناً.. وعيي بأني سأموت قريباً جعلني أتمسك بالحياة قبل أن أمضي، جعلني أحاول أن أعيشها إلى الحد الأقصى الممكن.. وجعلني هذا أراك في كل شيء، ببساطة لا يمكن لروعة كهذه إلا أن تكون قد نتجت عن إله رائع مثلك..

قبل أن أعرفك أكثر، كنت أشعر بالغبن لأشياء كثيرة، كنت أشعر أنك لم تكن تحبني، أو على الأقل لم أكن أفكر بذلك أصلاً.. لكني لم أكن سعيداً بما فيه الكفاية لأحبك، وكنت أعتقد أني يجب أن أكون سعيداً لكي أشعر بالامتنان لك وبالتالي لأحبك..

لكني الآن أعرف أكثر عن كل شيء.. جعلني السرطان، والموت الحتمي، أفهم أن السعادة ليست تلك التي تظهر في الإعلانات، بل في شيء أعمق، في شعور داخلي لا يمكن أن يظهر أمام الكاميرا، في قناعة داخلية، في رضا داخلي..

مررت بالسرطان، وصلت إلى المراحل الأخيرة منه، وها أنا على وشك الموت، لكن هذا الطريق جعلني أقرب منك، نعم، الطريق مؤلم، والحياة

مليئة بالآلام، لكن هذا لا يتعارض مع السعادة كما نتوهم، كما كنت أتوهم أنا على الأقل.

لم يكن عليك أن تخلق العالم على نحو أفضل. لقد خلقته هكذا - وهو رائع فعلاً - لكنك تركت لنا نحن فرصة أن نجعله أحسن، لم يكن عليك أن لا تخلق السرطان، أو لا تجعله يتكون، لقد تركته يحدث لأن بعض الطرق يجب أن تكون صعبة، بعض الأماكن لا يمكن الوصول لها إلا عبر الطرق الوعرة، لو جعلتها سهلة، لما كان يمكن الوصول لها أصلاً.. لو جعلتها سهلة، لما عرفنا قيمة ما وصلنا له أصلاً..

نعم، السرطان سيئ ، لكنه جعلني أفهم أكثر، ربما حياتي قصيرة بسببه، لكني بسببه أيضاً عشت أكثر من مرة في هذه الحياة القصيرة، ربما لو كنت عشت كما سيعيش زملائي في الصف، إلى أن يموت أغلبهم في متوسط أعمارهم، لما كنت سأفهم بهذا العمق.. لما كنت سأعيش عدة أعمار كما حدث لي..

كل ما حدث جعلني أقرب من نفسي، وبالتالي منك، كما لو أن معرفتي بنفسي، تجعلني أعرفك أكثر..

وعندما أعرفك أكثر، اكتشفت أني لا بد أن أحبك أكثر..

عزيزي الله: شكراً لك على كل شيء، كنت أتمنى سابقاً حياتي بتعديلات أكثر، كنت أود أن أضيف أباً هنا أو أشياء أخرى هناك، لكني اكتشفت (ليس متأخراً جداً) أنها كانت حياة رائعة كما هي، لدي أم رائعة بذلت كل ما في وسعها لتجعلني أعيش أيامي بأفضل ما يكون، كانت حياتي فرصة رائعة رغم مصاعبها للتعرف على نفسي، وعليك، وعلى صديق رائع مثل أمجد حلواني، وعلى جيسيكا، وعلى جون الذي كسرت له أنفه، وعلى شخص رائع كان موجوداً قبل أكثر من ألف سنة.. هو بلال الحبشي..

عزيزي الله: لا أقولها مجاملة، وأنا أعرف أن المجاملات لا تجدي معك.. لكنك فعلاً رائع..

وأنا فعلاً أحبك.

بطريقة ما: سعيد أني سآتي إليك.. رغم حزني على فراق أمي.

أرجوك خفف عنها.

□□□

رسالة من بلال إلى أمجد الحلواني (المدونة)

عزيزي أمجد..

لم أكن أعتقد، يوم أرسلت رسالتي الإلكترونية الأولى لك، أن الأمور ستنتهي هنا.

لم أكن أتوقع رداً بالأساس.

كنت فقط أحاول أن أحسن الظن بالناس، أحاول أن أكون إيجابياً.

فاجأتني.

فاجأتني عندما رددت، عندما استفضت في الرد، عندما فرغت وقتك لي، خيل لي أحياناً أنك قد تركت كتابة سيناريو الفيلم أصلاً وتفرغت لي!..

وعندما خرجت من الواقع الافتراضي، إلى الواقع الحقيقي، يوم التقيت بك في المطار لأول مرة، أحسست بالصدمة قليلاً، الافتراضي كان أقوى وأكثر ثقة في نفسه، الحقيقي بدا لي متردداً ومهزوزاً ومرتبكاً أكثر، لعلي كنت قد وضعت صورة خارقة مثالية في بالي، لعلي كنت قد وضعت سقفاً عالياً للتوقعات، ثم جئت لأجدك أقل من ذلك السقف بكثير.

مع الوقت عرفت أن سقفي كان مجرد وهم، وأن الحقيقة دوماً أجمل وأهم.

بل أكثر من ذلك: عرفت أن ذلك الرجل الخارق الافتراضي لن يفعل ما فعلته أنت من أجلي، غالباً سيكون مشغولاً جداً بنفسه.

لن يفعل ما فعلته من أجلي أنت إلا شخص متردد قليلاً، حائر قليلاً، أحمق قليلاً، مثلك.

لأنه لن يفعل ما فعلته إلا إنسان حقيقي، ولا يمكن أن يفعله إنسان خارق.

والإنسان الحقيقي، بالتعريف، سيكون متردداً قليلاً، حائراً قليلاً، وأحياناً أحمق قليلاً.

لكنه في النهاية أفضل وأجمل من الخارق.

هكذا عرفتك لاحقاً.. وهكذا فهمتك بالتدريج.

لا، لم أجد فيك "الأب" أو "ظل الأب"، لست متأكداً من أني كنت أبحث عن ذلك أصلاً، لكني وجدت تعويضاً مناسباً جداً.

وجدت "الصديق الأفضل".

هذا ليس قليلاً على الإطلاق، بل ربما يكون واحداً من أجمل الأشياء في هذه الحياة.

ربما لم أكن أتوقع أن أجد الصديق الأفضل في شخص يكبرني بأكثر من عشرين عاماً.

لكن أن تجده أكبر منك، أفضل من أن لا تجده أبداً.

أمجد حلواني. لم تكن الصديق الأفضل فحسب، بل كنت الصديق الذي غير حياتي إلى الأفضل.

ولهذا وجد أفضل الأصدقاء.

رسالة من بلال إلى أنف جون واشنطون المكسور (المدونة)

آسف جداً لأني كسرتك.

لكنك تعلم جيداً أن ذلك كان يجب أن يحدث منذ فترة طويلة.

تعلم جيداً أنك موجود على وجه جون الذي قام فمه (في الأسفل منك) بتسديد الإهانات لي طيلة سنوات، وأن خطئي الوحيد كان أني لم أكسرك منذ البداية، أو على الأقل كان يمكن وقتها أن لا أكسرك، فقط لكمة في الوجه كانت ستكفي في البداية.

أعرف أن جون حتماً لديه مشاكل جعلته يقول لي ما يقول عبر السنوات، كان ذلك واضحاً جداً، لا أحد يفعل ما يفعله إلا عندما تكون لديه مشكلة أو عدة مشاكل (ربما كنت أنت من مشاكله يا أنفه!).. كان يفرغ مشاكله في كيس الملاكمة الأقرب والأسهل..

كان عليّ أن أواجهه مبكراً، لكني لم أكن أعرف ذلك، ذلك أني لم أكن قد تعرفت على نفسي بعد، لم أكن صديقاً لها، لذا كان ما يفعله بي (هو ومايك خصوصاً) أمراً يحدث لشخص ربما يستحق أن يعامل هكذا، مثل كيس ملاكمة أو حتى ماسحة الأحذية عند الباب..

ثم إني بعدها، مررت بقصة جعلتني أتعرف على (بلال)، بلال آخر غيري أنا، بلال الذي سميت على اسمه.. وجعلني هذا أتعرف على بلال الآخر الذي في داخلي، عليّ أنا كما أستحق أن أكون..

وانتهى أمر تعارفنا، أنا ونفسي، بأني كسرتك يا أنف جون واشنطون.

لا شيء شخصياً إطلاقاً ضدك.

لقد تعادلنا أنا وجون. هذا هو.

بالمناسبة: حاول تذكير جون، لاحقاً، بأن يسدي لي خدمة أخيرة، فقط ليؤكد على حسن نياته..

فليحاول جون أن يذكر الجميع بي، عبر كلمة أو أغنية يهديها أو أي شيء، وذلك عندما يحدث لم الشمل، بعد عشر سنوات من التخرج.

سيكون ذلك لطيفاً منه.

وسأسامحه حيث أنا موجود.

□ □ □

رسالة من بلال إلى أمية (المدونة)

هل يمكنني أن أقول: عزيزي أمية..

لا أعتقد.

لكن هذا مجرد (أسلوب كلام)، لا يعني أني أعزك حقاً. معاذ الله.

هل أنت في المكان الذي أعتقد أنك فيه الآن؟ لا بد أنه مزدحم!

أحببت أن أقول لك شيئاً.

عندما تعرفت على قصتك، لم أجد الشر المطلق الذي نجده عادة في الأفلام المتحركة. بل وجدت الإنسان الذي يخطئ ويرفض الاعتراف بخطئه، يكون أضعف من أن يعترف، ثم يصل لمرحلة متقدمة، عندما يجعله ضعفه هذا يستخدم قوته ليغطي على ضعفه، ليعوض عن ضعفه.

كنت أراك أولاً في جون واشنطون.

ثم في السرطان.

ثم صرت أراك في نفسي. في ضعفي تجاه جون واشنطون. في ضعفي أمام السرطان.

لم تعد بالنسبة لي رمزاً للشر، بل أصبحت رمزاً لقبولي بالشر. لضعفي أمام الآخرين، أمام جون واشنطون، أمام السرطان.

لم أستطع أن ألكم جون واشنطون، قبل أن ألكم أمية الذي في داخلي.. أمية الذي يجعلني ضعيفاً أمام أمية الذي في الخارج..

أمية في الأساس أضعف من أن يواجه نفسه، لذا فهو يتلهى عن ذلك بظلم الآخرين.

كذلك جون واشنطون.

كذلك كنت أنا.. كنت أضعف من أن أواجه ضعفي.. لذا كنت أتلهى بالاستسلام لقدركيس الملاكمة، أو ماسحة الأحذية على الباب..

ثم حدث أن واجهت ضعفي، ونغير كل شيء..

□ □ □

عزيزي أمية: لا أستطيع أن أقول لك: اذهب إلى الجحيم.

فأنت هناك فعلاً.

□ □ □

رسالة من بلال إلى السرطان (المدونة)

عزيزي السرطان..

للوهلة الأولى، سيبدو أنك قد انتصرت عليّ.

هذا ما سيبدو عندما تنطفيء كل الأجهزة، الأمر الذي سيحدث عما قريب. أعتقد.

لكن عليك أن تعرف أن الأمر ليس كذلك، ربما أنت قبل أي أحد، عزيزي السرطان، تعرف أن الأمر ليس كما يبدو.

في هذه المعركة، أن أموت لا يعني أنك انتصرت. فالجميع سيموتون في النهاية، أنت نفسك، تموت، عزيزي السرطان، عندما أموت أنا. فموتي لا يعني انتصارك.

في هذه المعركة، هزيمتي الحقيقية ليست الموت الآتي لا محالة، بل هزيمتي عندما تقتل إرادة الحياة في داخلي، عندما أموت قبل أن أموت، عندما أموت دون أن أترك أثراً (للحياة) في هذا العالم.

وهذا ما لم يحدث. هذا ما استطعت أن أنتصر عليك به. لن تستطيع أن تهزمني في هذا.

في البداية كنت أعتقد أنا مثل الكثيرين، أن المعركة هي أن أبقى على قيد الحياة، لكن ما المعنى في هذا ما دمنا سنموت بعد كل شيء؟

انتصاري هو أن يبقى شيء مني بعد أن أرحل.. أن أترك أثراً يساعد الآخرين في هذه المعركة وسواها..

بالمناسبة عزيزي السرطان، لا أعرف من أين أتيت بالضبط، لكني أعرف أن أحدهم سيعرف ذلك يوماً ما وسيساعده ذلك على أن يخلص الناس منك..

عزيزي السرطان: عندما تنطفىء كل الأجهزة، ستتوهم أنك قلت كلمتك الأخيرة.

لكنك ستفاجأ بأني بقيت بعد أن رحلت.

سأكون قد تركت لك رسالة: كش ملك، عزيزي السرطان.

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001-ry@hotmail.com

subject: بلال كمراقب عام

بعد عامين من انتصار المؤمنين على المشركين في مكة، توفي النبي.

وخلفه في تسيير الأمور أبو بكر، أقرب أصدقائه، وهو الذي أعتق بلالاً.

توفي أبو بكر بعد عامين أيضاً، بقي خلالهما بلال ينادي للصلاة كما كان يفعل خلال حياة النبي.

بعد وفاة أبي بكر جاء عمر بن الخطاب، الذي كان يعد المقرب الثاني للنبي بعد أبي بكر، دامت مدة حكمه ٩ سنوات توسعت فيها الدولة لتصبح قوة عظمى انتصرت على إمبرطوريتي الروم والفرس، وتحقق في عهده أهم المنجزات الحضارية والعمرانية، وكان يضرب به المثل في العدل والعدالة الاجتماعية.

لكن هذه الفترة شهدت انسحاباً لبلال من دوره الذي عرف به في عهدي النبي وأبي بكر، كف بلال عن النداء للصلاة، بل ترك المدينة كلها والتحق بالجيش ليحارب الروم في بلاد الشام.

للوهلة الأولى، سنفهم أن الأمر كان فقط كما قال، رغبة من بلال في الالتحاق بالجهاد، بنشر العدل وإزالة الظلم.

لكن نظرة سريعة لما ورد من أحداث في تلك الفترة تخبرنا أن الأمر كان أعقد من مجرد ذلك.

فلنتذكر هنا صفتين من الصفات التي عرفناها عن بلال في الرسائل السابقة.

أمانته (المالية)، التي جعلته خازناً في عهد النبي.

وصراحته التي قد تكون حادة، يقول كلمة الحق ولو على أقرب الناس إليه، كما رأينا في حديثه عن سوء أخلاق أخيه، بينما هو يخطب له!

هاتان الصفتان، تجعلانه مؤهلاً جداً لما يريده عمر، الحازم العادل

المتقشف، الذي كان يعرف جيداً أن توسع الدولة وزيادة الثروات قد يجلبان معهما مظاهر جديدة من الترف وحتى من استفادة محتملة لبعض القادة من الوضع الجديد.

كل ما ورد من أخبار عن بلال وهو في بلاد الشام، يشير إلى أنه كان بمثابة هيئة النزاهة، أو الرقيب المالي، الذي يرتبط مباشرة بعمر، ويعتمد عليه عمر في معرفة أن الأمور تسير - أو لا تسير – على النحو المطلوب.

جَاءَ بِلَالٌ إِلَى عُمَرَ حِينَ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، وَعِنْدَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ يَا عُمَرُ فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا عُمَرُ، فَقَالَ: إِنَّكَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ، فَانْظُرْ مَنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمَنْ عَنْ يَمِينِكَ، وَمَنْ عَنْ شِمَالِكَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَاءُوكَ - وَاللَّهِ - إِنْ يَأْكُلُونَ إِلَّا لُحُومَ الطَّيْرِ، فَقَالَ عُمَرُ: «صَدَقَ، لَا أَقُومُ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا حَتَّى تَكْفُلُوا لِي لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمُدَّيْ بُرٍّ وَحَظِّهِمَا مِنَ الزَّيْتِ وَالْخَلِّ» فَقَالُوا: نَكْفُلُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هُوَ عَلَيْنَا، قَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَأَوْسَعَ، قَالَ: «فَنِعْمَ إِذًا».

وأيضا...

لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشَّامَ غَدَا هُوَ وَبِلَالٌ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَاسْتَأْذَنَ بِلَالٌ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَدْخُلُ؟ قَالَ: ادْخُلْ، قَالَ: أَنَا وَمَنْ مَعِي؟ قَالَ: أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، فَدَخَلَ عُمَرُ وَبِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَوَجَدَا أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسًا عَلَى خُصٍّ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ غَيْرُهُ، وَرَآهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَالٍ شَدِيدَةٍ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ، فَكَلَّمَهُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ، فَقَالَ: «كَفَاكَ مَا بَلَّغَكَ الْمَقِيلَ»، ثُمَّ خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ فَذَهَبْنَا إِلَى مَنْزِلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاسْتَأْذَنَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَدْخُلُ أَنَا وَمَنْ مَعِي؟ قَالَ: ادْخُلْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، فَدَخَلَا فَوَجَدَا خَالِدًا يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ، وَرَأَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَيْتِهِ صُنْدُوقًا فَظَنَّ أَنَّ فِيهِ مَالًا، فَفَتَحَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِذَا أَدْرَاعٌ مِنْ حَدِيدٍ فَسِحَتْ.

بلال إذن يتجول مع الخليفة على بيوت القادة ليتأكد من عدم وجود ترف زائد أو مال مخزون متراكم..

في الوقت نفسه، فإن علاقته مع عمر، وهو الحاكم، كانت علاقة ندية، علاقة رجل لرجل، وليس علاقة رجل من الجمهور بالحاكم، ناهيك عن أن تكون علاقة (عبد سابق) بالحاكم.

قَالَ: قَدِمْنَا الشَّامَ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَأَذَّنَ بِلَالٌ فَذَكَرَ النَّاسُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَرَ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْهُ، جَاءَ بِلَالٌ يَسْتَأْذِنُ عَلَى عُمَرَ، وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ، فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَائِمٌ، فَقَالَ بِلَالٌ: لَا تَكَلَّمُونَ عِنْدَ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ نَائِمًا، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ يَقْظَانًا لَقَرَأْتُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَتَّى يَضَعَ رَقَبَتَهُ.

هكذا كان بلال..

صاحب موقف، وصاحب قضية، لم يكتف بمكانته التي حصلها، مكانة الصوت الذي وصل إلى الآفاق..

بل جعل صوته هذا، يقول ما يعتقد أنه الحق بوجه الحاكم، بوجه أي فساد محتمل أو ترف زائد..

كان بلال رجل مبدأ.

وهؤلاء يسخرون كل ما يملكون، من أجل مبدئهم..

❑ ❑ ❑

بلال الحبشي

بعد أن مات.

صار النداء للصلاة مؤذياً بالنسبة لي.. مليئاً بمشاعر وحنين.

في أول نداء للصلاة بعد أن دفن، وقفت لأنادي للصلاة وأنا كالساهم، لست مصدقاً أنه لم يعد هناك ليسمع صوتي مباشرة.

ضربتني الفكرة في رأسي حتى شعرت بالصداع.

وعندما وصلت إلى ذكر اسمه، (وأشهد أن محمداً رسول الله) أجهشت بالبكاء كما لا أظنني فعلت حتى في طفولتي.

حاولت أن أعيد الأمر ثلاث مرات، وكل مرة أجهش بالبكاء..

فهمت معنى اليتم وأنا واقف أناديْ للصلاة الأولى بعد موته.

لم أعرف أبي حقاً، وماتت أمي منذ زمن بعيد.

لكن اليوم فقط أحسست بمعنى أني صرت يتيماً.

عرفت معنى اليتم.

كنت أفهم تماماً ما قاله (أبو بكر) في الناس عندما صرخ فينا وهو يرانا منهارين: أيها الناس، من كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت.

نعم.. أيقظني أبو بكر بهذه الجملة من نحيبي..

محمد مات. انتهى الأمر.

الله لا يموت. هنا لا ينتهي الأمر. هنا يستمر.

نعم، أفهم ذلك.

لكن الافتقاد سيبقى أمراً لا يمكن أن نعالجه بالفهم أو بالكلمات الحكيمة.

الافتقاد سيبقى مؤلماً.

وهذا ما واجهته – وجهاً لوجه - مع أول نداء للصلاة بعد وفاته..

لن يكون موجوداً بعد الآن..

لن يكون هنا بعد الآن..

زاد بكاء الناس وهم يسمعونني أبكي. جعلني ذلك أتماسك قليلاً، قررت أن صوتي الذي نقل لهم كلمة الإيمان وشهادتيه يجب أن لا ينقل لهم رسالة حزن..

تحاملت على حنجرتي، وأكملت الكلمات وأنا أتحشرج.

لكن أكملتها.

في كل نداء للصلاة بعدها كان هناك شيء من هذا، لكن بنسبة أقل.

كان هناك ذلك الألم، ألم الافتقاد الذي لا تخففه الكلمات.

لكني بقيت من أجل أبي بكر، كانت المرحلة حرجة جداً، وبعض القبائل ارتدت ونقضت عقودها التي كانت قد عقدتها مع النبي، والناس لم تتعود غياب النبي بعد، لو أني كنت اختفيت بصوتي عن النداء للصلاة، لكان الناس شعروا بوجود اختلافات أكبر وأكبر بين عهد النبي وعهد أبي بكر.. ربما مثل غيابي طعنة في الظهر ولو غير مقصودة..

بقيت من أجل أبي بكر.

رغم ألمي في كل مرة أنادي فيها للصلاة..

لكني بقيت من أجله..

كان في عنقي نحوه ذلك الموقف الذي لا يمكن أن أنساه.. كان في عنقي أنه جعل عنقي حرة..

وكان أقل ما يمكن أن أفعله لأبي بكر.

مع عمر، الأمر كان مختلفاً.

الناس بطريقة ما صارت تتعامل مع غياب النبي كواقع..

وكان عمر نفسه مختلفاً.. طموحاته التي تخص الدولة توسع حدودها ومساحاتها..

قررت أن لا أستمر في النداء للصلاة.. بل أن أسير مع عمر فيما يريده..

قررت أن أخرج لحرب الروم في الشام..

وكنت أعرف أن عمر، بزهده وحزمه وعدله وتقشفه، سيصطدم بما يعرف أنه سيصطدم به في النفس البشرية.. بقايا الجاهلية التي ستظهر في شكل حب الترف والمال وكل ما يمكن أن يقود الطريق إلى الخلف.

كنت أعرف أنه يحتاج إلى من يساعده..

سأكون أنا واحداً ممن يفعلون ذلك.

❑ ❑ ❑

رسالة من بلال إلى لاتيشا (المدونة)

أعرف أن الوقت يكاد ينفد.

أشعر بذلك.

كل شيء يذوي بالتدريج، لم أعد قادراً على الحركة بسهولة.. لم أعد أتنفس بسهولة.. لم أعد أرى بنفس الوضوح.

كان هذا منذ فترة، اليوم لم أعد أرى تقريباً.

حتى وجهك. لم أعد أراه بنفس الوضوح.

فهمت معنى الموت من هذه الأشياء التي تقل.. أن لا أتحرك.. أن لا أتنفس..

وأن لا أرى..

بالذات أن لا أراكِ يا أمي.

فهمت معنى الموت.

فهمت أسوأ ما فيه.

أن أذهب إلى مكان أنتِ لستِ فيه..

لا أراك فيه..

أشعر بالوحشة من الآن. ليس الخوف بالضبط. شيء آخر. الوحشة، الوحدة، كيف سيكون الأمر من دونك أماه؟ هل يكون الأمر أصلاً من دونك؟

وأشعر بالندم أيضا.. الكثير منه..

أشعر بالندم على كل لحظة مرت دون أن أحتضنكِ فيها. دون أن أمسك يدكِ فيها.. دون أن أخرج معكِ فيها للتسوق أو للرياضة أو للحديقة.

كم كنت أحمق عندما كنت أقضي الوقت في ألعابي الافتراضية، مع أشخاص افتراضيين في عالم افتراضي..

واليوم، بينما أنسحب من عالمي الحقيقي، إلى عالم آخر يختلف عن العالم الحقيقي وعن الافتراضي.. أجد أني أريدكِ أنتِ وحدكِ من بين كل هؤلاء الأشخاص الذين لا وجود لهم..

ولكنك لن تكوني قادرة على المجيء معي.

كم كنت أحمق يوم قررت أن لا تحتضنيني أو تقبليني في الأماكن العامة.

اليوم، أتمنى لو أنني أنا من كنت يحتضنك في كل مكان، عام وخاص.

اعذريني على حماقتي يا أمي. على عنادي أحياناً. على شغبي أحياناً.

وعلى كل حماقاتي الأخرى، حتى تلك التي لا أذكرها. لا بد أنه كان لديَّ الكثير منها وأنا طفل.

لا بد أنك تعبت كثيراً معي، وكنت وحدك.

اعذريني الآن، لأنك ستكونين وحدك ايضاً.

كنت أتمنى لو أني أعوضك، لو أني بقيت معك، لو أكون سنداً لك حين تكبرين..

كنت أتمنى أن أفرحك بتخرجي، بحصولي على شهادة جامعية، بزواجي، بأبناء لي يكونون أحفاداً لك..

للأسف..

لن أحقق شيئاً من هذا. وها أنا أتركك وحيدة كما ترككِ أبي من قبل.

اعذريني على هذا.

اعذريني على أني لم أفهمك حقاً إلا متأخراً جداً.

وبعد أن أوشك الوقت على النفاد.

نفهم دوماً متأخرين يا أمي.

نفهم دوماً متأخرين.

□ □ □

وإذا حدثت "الحياة الأخرى".

فلن أترك يدكِ أو حضنكِ أبداً.

سأكتفي من الجنة بهذا..

□ □ □

أمجد

أدركت أن بلالاً، الذي تتدهور حالته بتسارع، لن يكون موجوداً عند نزول الفيلم فعلاً، كما قال لي بالضبط في أول رسالة أرسلها لي.

كنت أعرف أن تغيير موعد نزول الفيلم أمر مستحيل. كنت أعرف أصلاً أن الفيلم لا يزال في مراحل مونتاجه الأخيرة، ولكن لا يزال هناك أشهر من العمل قبل أن يظهر بشكله النهائي.

اتصلت بعبدول وطلبت لقاء عاجلاً معه.

قال لي "أراك في الزوايا الإثني عشر".

لم أكن قد سمعت به، هذا المكان. قلت هذا لعبدول، فقال لي إنه بدأ يشك في أني نيويوركي. جملة كان يقولها كلما علقت على مكان يعتبره هو من من بديهيات نيويورك، وأكون أنا لا فكرة لديَّ عنه أبداً.

ذهبت إلى شرق برودواي لألتقي بعبدول. كانت القهوة رائعة فعلاً وكذلك الفطائر المدورة.

سألت عبدول: هل سمعت بالصبي بلال، ومدونته شيفرة بلال؟

قال عبدول فوراً: بالتأكيد، من الذي لم يسمع؟ حاولنا كثيراً التواصل مع أمه، لأنها ذكرت بلالاً الحبشي كثيراً في لقاءاتها، وذلك سيكون لصالح الفيلم لو تمت الإشارة إلى أن هناك فيلماً ينتج عن بلال، لكن أمه كانت قد قطعت كل تواصل مع أي جهة إعلامية.

أخبرت (عبدول) بكل شيء. منذ أول إيميل إلى آخر رسالة بيني وبين بلال.

بدا مبهوراً بكل شيء، قام واحتضنني وهو يقول لي إنه فخور بي (يا أخي). وكان العطر الذي يضعه عبدول شديد النفاذية بحيث إني كدت أختنق.

فكر عبدول قليلاً بعد أن جلس ثم صرخ: هل تعرف أن هذه قصة رائعة؟ لو بدأت بينكما – أنت والأم - قصة حب، لكان هذا أجمل فيلم رومانسي في العقد. يمكن لبيونسيه أن تؤدي الدور وسيكون نجاحه ساحقاً.

ابتسمت. بيونسيه ستكون مناسبة للدور. لكن في عيني، لاتيشا أجمل.

صاح عبدول عندما رأى ابتسامتي: أنت تحبها فعلاً!

وقام من مقعده مجدداً وهو يهنئني ويبلغني كم هو سعيد من أجلي يا (أخي). مرة أخرى غطست في غمامة العطر النفاذ.

قلت له وأنا أحاول تغيير مسار اهتمامه عن لاتيشا: ما هذا العطر؟

رد بسرعة: هل أحببته؟ هذا عطر العود. بعثته لي شقيقتي أمس مع صديقة لها.

أخرج عبدول قنينة كبيرة بحجم اللغم الأرضي من حقيبته وبخ منها باتجاهي كمية هائلة جعلت المقهى كله يغرق في غمامة العطر، ثم أقسم بعدها أن آخذ قنينة العطر كلها كهدية!

حاولت أن أعيده إلى الموضوع: بلال يحتضر يا عبدول، لا أعتقد أنه سيبقى حياً إلى موعد الفيلم في فبراير.. هل يمكن أن نسمح له برؤية المنجز من الفيلم، هو الآن لا يرى على نحو جيد بكل الأحوال، إنها رغبة صبي يحتضر..

حك عبدول لحيته وهو يفكر، وكان يبدو على وجهه الاهتمام جداً بما قلت، ثم فتح النوت بوك الخاص به ونظر في بعض الملفات.

ثم نظر لي وقال: لديّ فكرة أفضل بكثير.

□□□

خلال عشرة أيام، تمكن عبدول من إقناع رئيس مجلس إدارة الشركة المنتجة بعمل عرض تمهيدي خاص للفيلم في نيويورك، حيث اتضح أن هذه العروض التمهيدية التي يدعى لها النقاد والصحفيون لا يشترط فيها أن يكون الفيلم كاملاً، بل تعرض أجزاء من الفيلم فحسب (لم يكن لديّ أدنى فكرة عن ذلك)، وكان حضور بلال ولاتيشا، والدعاية المصاحبة لذلك باعتبار أن بلالاً هو الطفل المحتضر صاحب المدونة الشهيرة، هو ما أقنع المنتجين بضرورة الإسراع في العرض التمهيدي.

أشرف عبدول على كل شيء، حتى على ملابس لاتيشا، وبلال، وملابسي أيضاً، بدلة سموكنغ لي ولبلال، وفستان سهرة أسود طويل رائع للاتيشا.

وأرسل (فنانة مكياج) خاصة للاتيشا قبل الحفل.

ثم جعلنا جميعاً نهبط من سيارة ليموزين تسير خلفها سيارة إسعاف (لضرورات الحبكة الإعلامية).

وسرنا أنا ولاتيشا على السجادة الحمراء ونحن ندفع بلالاً على كرسي العجلة المتحرك.. بينما كانت أضواء الكاميرات مسلطة علينا.

كان الأمر أشبه بالحلم.

وخلال الفيلم، لا أعتقد أن بلالاً كان يرى الكثير مما على الشاشة.

لكنه كان يبتسم.

وكانت لاتيشا تمسك بيده. وتبكي.

كانت يدها الأخرى، تمسك يدي . أحياناً.

لاتيشا

تعودنا أن نرى ما هو مبهج على الشاشات.

على الأقل كان هذا خياراً دائماً. خياراً يمكنك أن تغيره حسب رغبتك، أن تغير القناة، تغلق الشاشة.

علاقتنا بالشاشات كانت دوماً حساب خياراتنا.

لا نتخيل أبداً أن تحاصرنا هذه الشاشات، بخطوط صاعدة نازلة، لأرقام وبيانات، تقول لنا إن فرحنا الوحيد في هذه الحياة ينتهي. يتسرب من بين أيدينا.

مع بلال، في غرفته بالمستشفى، تحاصرني الشاشات من كل جهة. الشاشات التي تنقل أخبار المعركة في جسده الصغير. الشاشات التي تقول لنا إن الأمور ليست بخير. ليست بخير. ليست بخير.

كان بلال يتلاشى بالتدريج، في شبه غيبوبة. لم يعد يفتح عينيه تقريباً. لم يعد يتكلم تقريباً. وتنفسه صار من خلال الأجهزة أغلب الوقت.

صرت أرى في الشاشات حياة بلال القصيرة معي، حياته التي هي أجمل سنوات عمري.

صرت أراها بالتصوير البطيء. بأبطأ سرعة ممكنة، كي أقضي أكثر وقت ممكن معها.

فهمت أن عليَّ أن أتعود على ذلك، لأني في السنوات القادمة، سأعيد سنواتي الأربع عشرة معه. بالتصوير البطيء، بالسرعة البطيئة التي عليها أن تكفيني المتبقي من عمري.

□ □ □

From: Amjadhelwani@bilalmovie.org

To: Bilal2001ny@hotmail.com

Subject: موت بلال

توفي بلال في دمشق.. في السنة العشرين لهجرة المؤمنين إلى المدينة، وكان ذلك عبر وباء الطاعون الذي انتشر وقتها في بلاد الشام.

كان يبلغ الثالثة والستين من العمر آنذاك.

طيلة حياته كان بلال إيجابياً، كل ما نقل عنه وبقي منه من كلمات كانت في منتهى الإيجابية، منذ (أحد، أحد)، إلى كلمات الأذان، إلى موقفه من عمر.

حتى في وفاته، كان بلال إيجابياً..

يندر جداً أن يقول محتضر كلاماً بهذه الإيجابية والتفاؤل، لكن بلالاً كان إيجابياً حتى وهو يموت..

يروى أن زوجته كانت تبكي عليه وهي تراه يموت وتقول: يا ويلاه..

فرد عليها بلال بذلك الرد الذي صار شعاراً عند المسلمين:

غداً نلقى الأحبة.. محمدا وحزبه.

□ □ □

لاتيشا

توفي بلال صبيحة الأحد.

كان يوماً مشمساً رائعاً، ذلك الأحد الذي توفي فيه بلال.

كان الجو مناسباً فيه لرحلة جماعية جميلة.

وقد قام بلال بتلك الرحلة، ولكن وحده.

اختار له الله يوماً جميلاً، مشمساً، كي يذهب إليه.

هكذا فكرت.

قبل أن يموت بساعات، قبل الفجر، تحدث بلال للمرة الأولى منذ أيام.

كنت أمسك بيده عندما سمعته يقول: أمي..

أمسكت يده بشدة أكبر وقلت: نعم حبيبي، أنا هنا..

رد: أعرف أنكِ هنا. أنتِ دوماً هنا. كنتِ دوماً هنا من أجلي.

قالها بصوت أقوى مما توقعته.

ثم سألني: هل تذكرين جهاز الإكس بوكس الذي كنت أرغب فيه؟

انهمرت دموعي وأنا أقول: نعم أذكره.

كان جهازاً أراده بلال بشدة منذ سنوات، ولم أكن قادرة يومها على شرائه.

قال: لا عليك إن لم تستطيعي شراءه، ليس الأمر مهماً..

ثم ابتسم وقال: ليس الأمر مهماً بعد الآن، ولم يكن مهماً حتى وقتها.

قلت له بصوت باكٍ: لا بأس. لا بأس.

سكت قليلاً حتى تصورت أنه أنهى كلامه. لكنه ابتلع ريقه ثم قال: أمجد رجل طيب.

قلت له: نعم، هو كذلك.

سكت مجدداً ثم قال: لقد غيرت كلمة السر لبريدي الإلكتروني.

حاولت أن أفهم متى استطاع فعل ذلك، لكنه أسرع بالقول كما لو أنه يريد أن يقولها قبل أن ينتهي الوقت..

كلمة السر الجديدة هي "أحد، أحد".

ثم ابتسم وقال: اعتن بنفسك يا أمي.

ولم يتحدث بعدها.

❑ ❑ ❑

في الخارج كان يوماً جميلاً..

لكن أجمل ما في حياتي كان يغادرني فيه.

فجأة صارت الشاشات تقول إن المعركة انتهت، وأخذت تصدر أصواتاً تبلغ عن مغادرة بلال.

تراكضت الممرضات حولي وحوله، لكنهن عملياً لم يقمن بشيء، كنت أعرف – وكن يعرفن - أن لا فائدة من شيء.

كنت ساكنة تماماً.

لقد ذهب. ذهب أمامي.

كان يفترض أن يذهب إلى الحديقة في يوم أحد مشمس جميل كهذا.

وكان يفترض بي أن أقول له: اعتن بنفسك، ليكن يومك سعيداً.

فكرت أنه ربما كان بطريقة ما، يذهب إلى الحديقة أيضاً.

الحديقة الأكبر والأجمل.

فكرت أن أركض خلفه لأقول له: اعتن بنفسك بلال، وليكن يومك سعيداً..

لكني قلت مع نفسي: ليعتنِ الله بك يا بلال.. ولتكن حياتك الأخرى سعيدة.

❑ ❑ ❑

في كل يوم أحد جميل ومشمس سأتذكر بلالاً وهو يطلب مني أن أعتني بنفسي ويغادرني.

ويقول لي أيضاً إن أمجد رجل طيب.

وهو كذلك فعلاً.

وقف معي يومها وفي الأيام التالية، كما وقف معي قبلها،

وقفنا معاً أيضاً بعدها.

بطريقة ما، صرنا معاً باستمرار.

كان جزءاً مما تركه لي بلال.

فصار جزءاً من كل شيء بعدها.

هو الآن معي في أولى خطوات "مؤسسة بلال لحياة أفضل قبل الموت Bilals Foundation for a better life before death"، مؤسسة نحلم بها وتستهدف الأطفال الذين يعجز الطب عن إبعاد الموت عنهم، نريد لهم حياة أجمل قبل الموت، حياة قصيرة ورائعة مثل حياة الفراشات..

أمجد هو الذي اقترح الفكرة، لكنها كانت في النهاية تحصيل حاصل. نحاول الآن استخدام المدونة وأثرها في جمع التبرعات اللازمة..

شجعني أمجد أيضاً على أن أقدم لدراسة الماجستير في الخريف القادم. وكتب لي أكثر من رسالة توصية لتساعدني في الحصول على القبول.

بل إنه بدأ يقترح من الآن موضوعات للبحث.

ويقول إنه يعد لي مفاجأة يوم نزول فيلم (بلال) إلى دور العرض.

إذا سارت الأمور كما أراها.. أعتقد أنه سيطلب يدي.

وأعتقد أيضاً أني سأقول: نعم..

◻ ◻ ◻

بعد قرابة الشهرين من وفاة بلال، استيقظت لاتيشا صباحاً لتجد عدداً كبيراً جداً من الإشعارات التي تصلها على بريدها الإلكتروني والتي تبلغها بوجود تعليقات جديدة على مدونة (شيفرة بلال).

كان العدد أكبر بكثير من المعتاد، فتحت المدونة لتجد تدوينة جديدة نشرها بلال!..

ارتعشت لاتيشا وهي ترى هذه الإشارة (نشرت من قبل بلال)، شعرت كما لو أن بلالاً يحوم حولها.

فهمت أن بلالاً قد جدول هذه التدوينة لكي تنشر في وقت لاحق، قدر أنه سيكون قد مات فيه.

كانت تلك رسالة بلال الأخيرة، نشرها بعد موته، كما لو أنه يريد أن يقول بشكل عملي، ما كان قد كتبه قبل ذلك، عن الأثر المستمر.. عن المعنى الحقيقي للحياة.

رسالة من بلال إلى بلال الحبشي (المدونة)

عزيزي بلال

هذا أمر محرج وغريب. ويمكن أن يكون جزءاً جديداً من (العودة إلى المستقبل)، أو إلى الماضي، لا أعرف، كما أنك لا تعرف أيضاً عم أتكلم بالتأكيد.

الأمر محرج وغريب، لكني أخاطبك اليوم كما لو كنت موجوداً هنا، كما لو أني أعرفك، رغم أنك عشت قبل ١٥ قرناً!..

الأمر الأكثر غرابة، أنك، وأنت قد عشت في قارة أخرى بعيدة، قبل ١٥ قرناً، قد غيرت حياتي أنا اليوم، أكثر مما فعل أي شخص آخر ممن لا يزالون على قيد الحياة.

جعلني هذا أفهم أكثر ما معنى أن تكون على قيد الحياة، جعلني أفهم معنى أن تستمر في الحياة حتى بعد أن تموت.

لا أظنك تهتم بتفاصيل ما حدث، لكي أجعل القصة الطويلة قصيرة: أبي اختار لي اسمك، لم يكن يعرفك لكنه مر بمسجد يحمل اسمك في قارة جديدة لم تكن مكتشفة أصلاً يوم كنت أنت على هذا الكوكب. أعجبه الاسم.. عرف عنك القليل الذي جعله يحبك، رغم أنه كان بعيداً جداً للأسف عن كل شيء صالح.. ثم أطلق عليَّ اسمك، ورحل بعد أشهر.

كل ما تركه لي هو اسمك. كما لو كان وصية. حتى لو لم يكن يقصد ذلك.

بعدها بسنوات أصبت أنا بمرض قاتل، وبينما أتلقى علاجي سمعت أنهم ينتجون فيلماً عنك (أعرف أنك قد لا تعرف معنى الفيلم، ولا أعرف كيف أشرح لك ذلك، لكنه شيء يشبه القصة المرئية)، وكنت أعرف أني

على الأغلب لن أكون حياً عندما ينتهون من ذلك، فخاطبتهم كي أطلع على سيناريو.. أقصد القصة مكتوبة قبل أن تكون مرئية.

ومن يومها وأنا أعيش معك، أو هل عليَّ أن أقول: من يومها وأنت تعيش معي؟

كنت معك وأنت تحت الصخرة،

وكنت معي وأنا في علاجي الطويل المرير..

وكنت معك عندما تسلقت الكعبة.

وكنت معي وأنا أخرج من قعر بئري..

كنت معك وأنت تهمس: (أحد، أحد) والصبية في شوارع مكة يضربونك.

وكنت معي وأنا أهمس لنفسي أني سأفعلها.. سأكون مثلك..

وكنت معك وأنت تصرخ بها في ساحة المعركة، يوم أنهيت الأمر مع أمية.

وكنت معي يوم قلت لنفسي (أحد، أحد)، وكسرت أنف جون.

كنت معك في تلك الليلة، يوم صرت حراً،

وكنت معي في تلك الليلة، عندما قابلت أبي للمرة الأولى في السجن..

وكنت معك في تلك الليلة، الليلة التي سبقت أول فجر ناديت فيه للصلاة.

وكنت معي يوم أطلقت مدونتي..

كنت معك في الليلة التي تقلبت فيها يوم عيروك بلون أمك.

وكنت معي يوم عرفت أن نسبة شفائي صفر بالمائة..

كنت معك في حيرتك، وفي يقينك.

وفي الطريق بينهما.

وكنت معي في حيرتي ويقيني.. والطريق بينهما.

كنت أولاً مفتوناً بك، بأنك بطل أحمل اسمه.. بأنك حصلت على حريتك، وانتقمت من سيدك.

لكني بالتدريج فهمت أن الأمر أكبر وأعمق من ذلك.

فهمت أن حياتك يمكن أن تغير حياتي، وأن رحلتك من العبودية إلى الحرية، يمكن أن تكون مناراً لرحلة خلاص كثيرين.

العبوديات كثيرة جداً، ولكن طرق الخلاص منها دوماً متشابهة. دوما ثمة نمط متكرر في الخروج.. وهكذا يمكن لحياتك أن تساعدني أو أن تساعد أمي، أو تساعد أي شخص آخر يمر في مواجهة ما..

لكن ما كان يمكن لي أن أصل إلى ذلك قبل أن أفك شيفرتك أولا.

لم يكن من الصعب أبداً أن أعرف أين أجد كلمة السر في رحلتك.

لكن، كان عليَّ أن أفهم ماذا تعني.

كلمة السر كانت بالتأكيد هي (أحد، أحد). لا يحتاج الأمر إلى تفكير كثير قبل أن يحزرها أي أحد.

أحد، أحد، بالتأكيد.

لكن ماذا يعني ذلك؟

إله واحد؟ فقط؟!.

لكن هذا ما يؤمن به كثيرون أيضاً، دون أن يغير شيئاً في حياتهم، ناهيك عن أن يجعلهم يغيرون حياة سواهم.

لا بد أن هناك شيئاً آخر في (أحد، أحد).

قضيت فترات طويلة وأنا أحاول الفهم، أحاول أن أفهم كيف أربط هذه الكلمة (أحد، أحد) بقوتك، برحلتك من العبودية إلى الخلاص.. إلى الحرية.

كان الأمر بالنسبة لي أشبه بدورة مكثفة من العلاج الكيمياوي (لا أعرف كيف أشرحه، لكنه علاج له نتائج جانبية مؤلمة)..

ثم فهمت!

إنه ليس أن تؤمن فقط بوجود إله واحد، بل أن تتوحد مع قضيتك فيه أيضاً، أن تتوحد أنت مع قضية تتعلق بالقيم التي ترتبط بهذا الإله.. قيم الحق والعدل..

هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكن أن يمدك بقوة من هذا الإله، أن تتوحد مع قضية، أن تجد لك شيئاً تتبناه، شيئاً تعتنقه، يجري معك في دمك وفي أنفاسك..

هذه هي الـ (أحد، أحد)، قضية توحدت فيها مع ما يريده الإله الذي لا يريد إلا الحق والعدل والخير..

هذه هي شيفرتك، وشيفرة كثيرين آخرين أيضاً، وليست شيفرتك وحدك..

إنها شيفرة موحدة، يمكن أن تعمل في القرن الأول الميلادي، والسادس الميلادي، والواحد والعشرين الميلادي.

شيفرة تعمل دوماً، لا يذهب وقت صلاحيتها أبداً.

بلال، يا ابن رباح وحمامة، يا من عشت قبل ألف وخمسمائة سنة في قارة لم أرها من قبل، شكراً لك لأنك غيرت حياتي، أنا بلال الذي يحتضر بالسرطان في بروكلين، ابن لاتيشا.. وسعيد (الذي لم أره إلا مرة واحدة في السجن!)..

شكراً لك، بقدر الألف والخمسمائة سنة التي تفصل بيننا، وبقدر المسافة التي تفصل بين العبودية والحرية.. وبقدر ما تغيرت بعد أن عرفتك..

شكراً لك.

المخلص

بلال

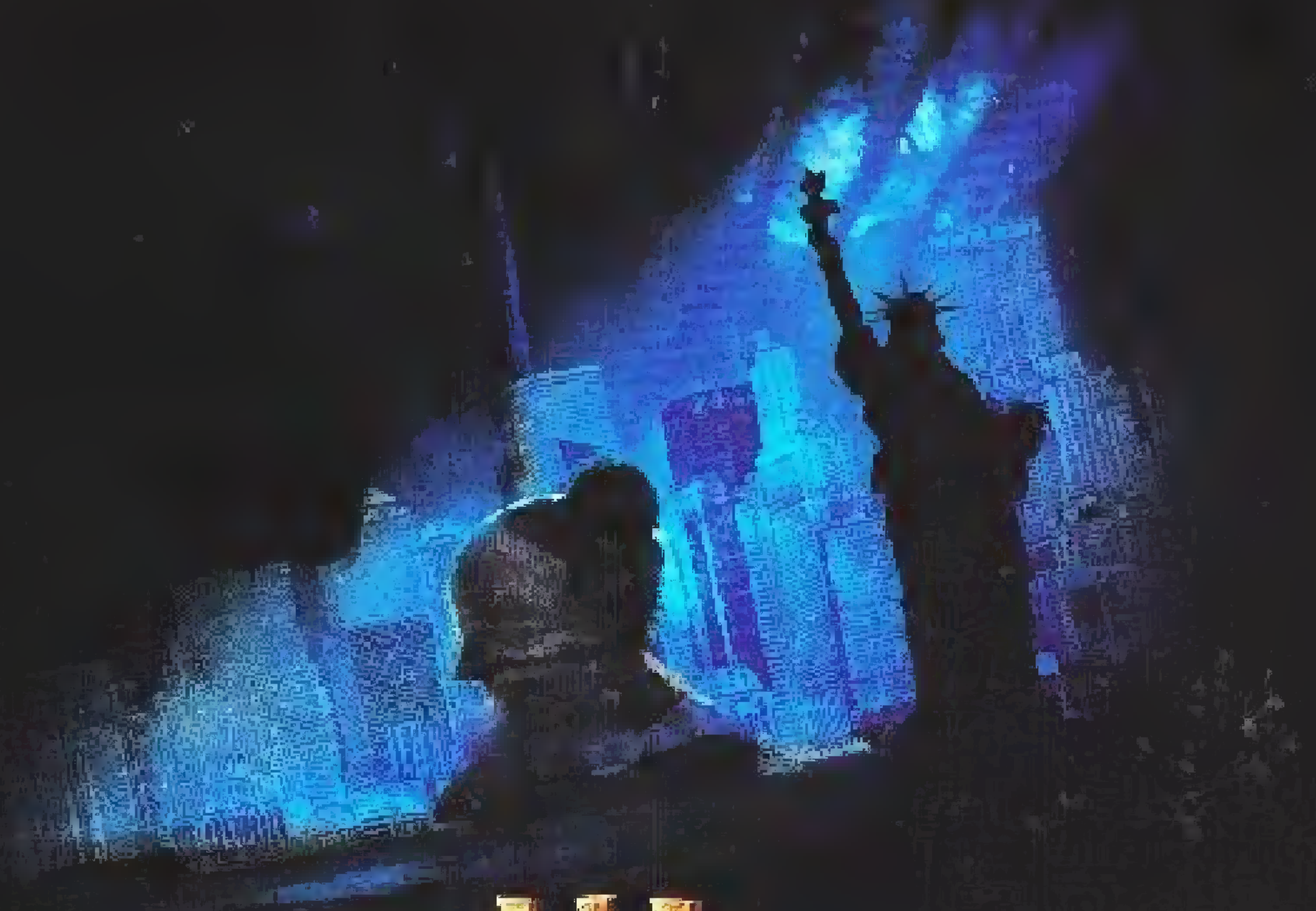
بدأت يوم ٢٠١٥/١/١

انتهت ٢٠١٥/٦/١

المصادر التي استندت عليها المعلومات التاريخية عن بلال الحبشي رضي الله عنه

صحيح البخاري
سنن أبي داود
مسند أحمد
المستدرك على الصحيحين
مصنف ابن أبي شيبة
مصنف عبد الرزاق
فضائل الصحابة
تاريخ دمشق لابن عساكر
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
أخبار مكة للأزرقي
المنتخب من مسند عبد بن حميد
الأموال لأبن زنجويه
تاريخ المدينة لابن شبة
الزهد لأبي داود

المحتويات



شيفرة بلال

أن تتأثر بقصة بلال بن رباح شيء، ولكن أن تتغير حياتك كلها بسبب ذلك شيء آخر تماماً..
وأن يحدث ذلك في مجتمع عربي مسلم شيء.. ولكن أن يحدث في نيويورك ؟
رغم غرابته فهذا ما حدث.. قصة بلال بن رباح تغير مسار حياة أشخاص يعيشون في نيويورك،
حياة بعيدة تماماً عن أي تغيير وبالذات عن تغيير يأتي من قصة رجل مات قبل أكثر من ألف عام.
لكن، ذات يوم.. يصل ايميل لأحدهم... ويتغير كل شيء...

هذه الرواية هي قصة ما حدث معهم.. بسبب (بلال)..
وما يمكن أن يحدث معك...

BARAJOUN

www.bilalmovie.com

51733
9786035030294